

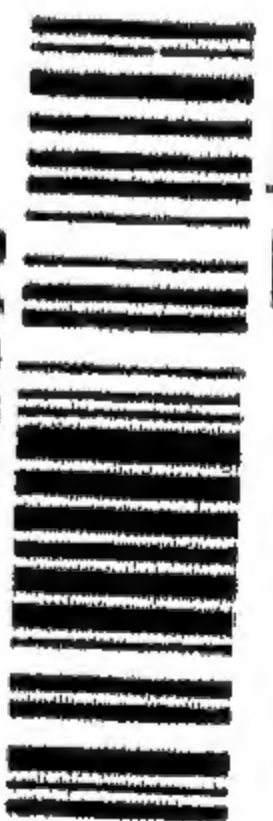
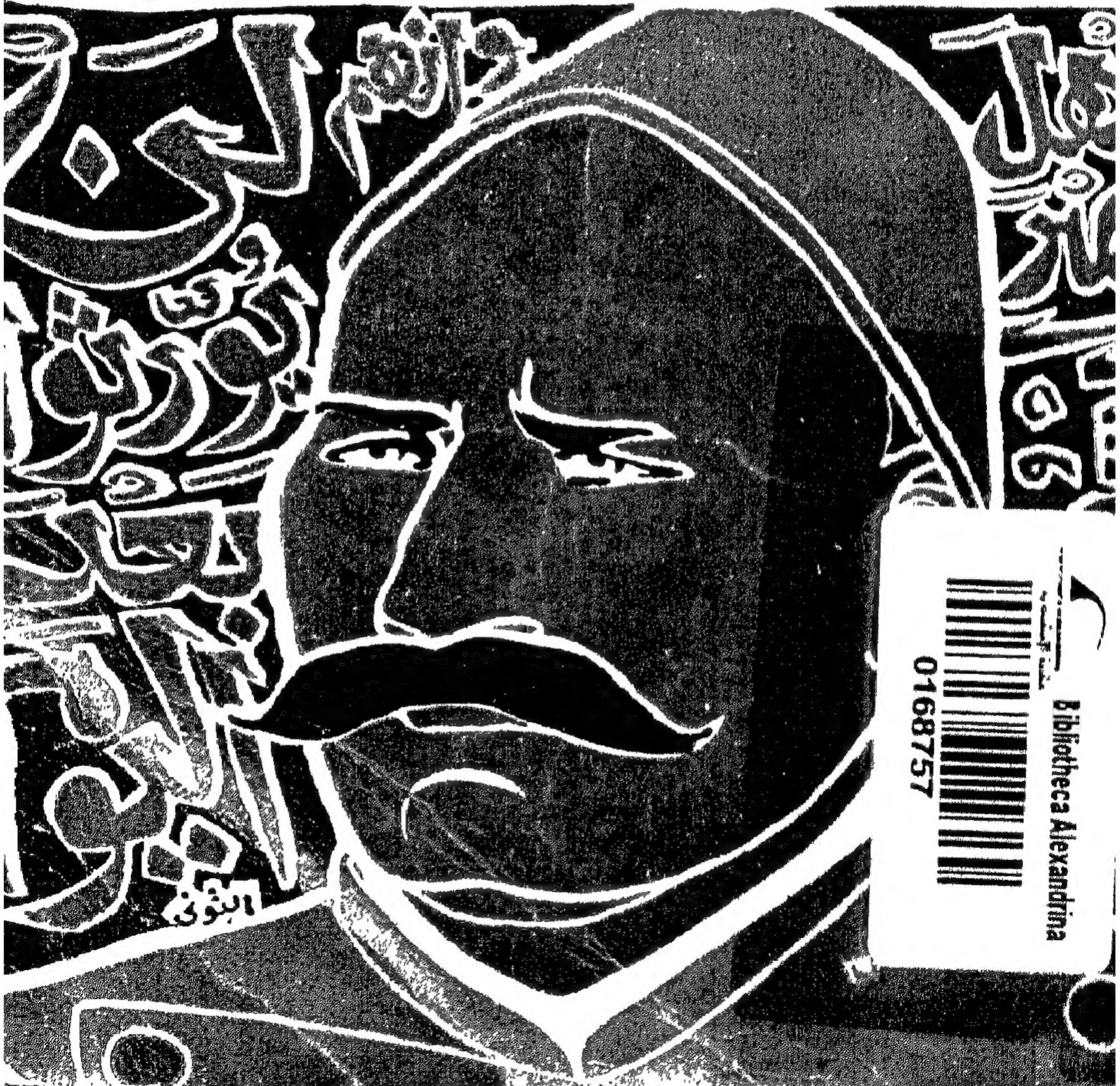
كتاب الهلال



سلسلة  
ثقافية  
شهرية

# أحمد عرابي الزعيم المصري عليه

محمد الخفيف



0168757

Bibliotheca Alexandrina



# كتاب الهلال

LAL

سلسلة شهرية

ك

رئيس مجلس الإدارة :

العدد ٢٤٥ ربيع الثاني ١٣٩١ - يونية ١٩٧١

No. 245 — June 1971

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

## الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : ( ١٢ عدداً ) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ - فى سائر انحاء العالم ٥٠٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م.) - والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ••

# كتاب اطلال

اهداءات ٢٠٠١

أ.د. محمد هود دياب

جراح بالمستشفى الملكي المصري



مكتبة شهرية لنشر الثقافة بين الـ

الفيلاد بريشة  
الفنان حلمى التونى



محمود الخفيف

# أحمد عرابي

الزعيم المفترى عليه

---

الجزء الأول

دار الهلال

## الاهداء

الى الأشبال النواهض الميامين من شباب هذا الجيل ،  
فى وادينا المبارك ، وفى الأقطار العربية الشقيقة أهدى  
سيرة هذا الزعيم المصرى الفلاح ، الذى جاهد فى سبيل  
الحق ومات على دين الحق ، والذى آن أن ينصفه التاريخ  
وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية .

محمود الخفيف

## مقدمة

كان المصريون الى عهد قريب يذكرون اسم عرابى فلا يبتعث هذا الاسم وا أسفاه فى أذهانهم الا صور العنف والنزق وتراهم وان لم يقصدوا يقرنون اسم عرابى بمعانى الهزيمة والاحتلال والمذلة كأن هذه المعانى من مرادفاته

وما أذكر مجلسا تطرق الحديث فيه الى عرابى الا وسرت فى الوجوه كآبة ، وتسابقت اللسان الى الهزء به وتعدد مساوئه وإبراز مثالبه ، اللهم الا قلة لا يعجبهم هذا الكلام ولكنهم لا يعرفون كيف يدفعون عنه هذا الظلم ..

وكنت أبدا أحد المخالفين الذين يحسون فى قرارة أنفسهم ان الرجل مظلوم وأنه مفترى عليه ، وكنت أسأل نفسى دائما : أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصرى الفسلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

والحق أنه قل أن نجد فى رجالنا رجلا ضاعت حسناته فى سيئاته كما ضاعت حسنات عرابى فيما افترى عليه من سيئات ، كذلك قل أن نجد فى رجالنا رجلا كرهه أكثر بنى قومه مضللين ، واستنكروا أعماله جاهلين بقدر ما كره هؤلاء عرابيا واستنكروا ما فعل وما أسند



اليه من الاعمال زورا وافكا ، وفي ذلك دليل قوى على أن التاريخ قد يظلم عامدا كما قد يخطيء غير عامد ، وفيه كذلك دليل على أن الامور كثيرا ما تجرى فيه كما يشاء الحظ لا كما يكون العدل والقسطاس ، فيكون نصيب بعض الرجال من التعظيم والتوقير بقدر ما يتوافق لهم من حظ لا ندرى كيف اتفق لهم دون غيرهم ، بينما يجنى على كثير من ذوى النفوس الصحيحة والعظيمة الصادقة ما يلحق بهم من سوء الطالع وما يحيط بهم من نحس الايام ...

وما كان عرابى فيما اعتقد الا طالب حق يلحق به في طلب الحق الخطأ والصواب كما يلحق بغيره ، ولعلى استطعت أن أجلو ذلك في سيرته بقدر ما وصلت اليه من الادلة في تلك السيرة التى بالغ كثير من ذوى الاغراض في تشويهها والخط من قدر صاحبها

ومهما يكن من الامر فما احسب ان فى الناقمين على عرابى من يستطيع أن يمارى فى أنه كان زعيم حركة وداعية فكرة وأنه ، أخطأ أو أصاب ، كان مخلصا فيما يفعل أو يقول ، وأنه قبل ذلك كله وفوق ذلك كله كان أول مصرى فلاح فى مصر الحديثة نجم من بين عامة الفلاحين فى قرية من قرى مصر فاضطلع بقضية من القضايا الوطنية الكبرى ، ونادى على رأس المنادين بمطالب مصر ، وصار اسمه فى ظرف هام من ظروف نهوضها علما على الجهاد ورمزا للمقاومة ومثلا للقومية حتى شاعت الاقدار فامتشق الحسام وسار على رأس جيش من بنيتها الفلاحين يذود عن اراضيها ويقف غير طامع ولا هازل فى وجه الفادرين الباطشين من أعدائها

بهذه الروح كتبت عن عرابى ، وعلى هذا الاساس بينت سيرته فالخلاص فى الرجال هو عندى مقياس

بطولتهم بل هو فيما أرى أصح المقاييس وأهمها ، أما  
الصواب والخطأ وما اليهما فأمور توجد في الإبطال وغير  
الإبطال ، ولا فرق فيها في كثير ولا قليل بين هؤلاء  
وهؤلاء ...

وانى اذ كنت أكتب سيرة عرابى كانت تقوم في ذهنى  
المفتريات التى افتريت عليه ولكن ذلك لم يضعف قط  
احساسى بأنه كان شديد الاخلاص لقضيته متوقد  
الحمية في وطنيته شديد الانفة في قوميته وليس بضائره  
بعد ذلك ما يرميه به المبطلون او المفرضون ، ولو قد واتاه  
الحظ الأعمى كما واتى الآلاف غيره من الزعماء والقواد  
فانتصر في معركة التل الكبير ، أو لو أنه لم يحط به  
من الخيانة في أصرح صورها وأقبحها ما أحاط به وأبلى  
في تلك المعركة بعض البلاء أو قتل في غمرتها لرأينا اليوم  
له التماثيل في عواصمنا ولزخرت الكتب بالثناء عليه

وعندى أنه من أكبر الظلم أن تنسى حسناته وهى لعمر  
الحق كثيرة ولا تذكر الا أخطاؤه ما اقترفه وما افترى  
عليه منها لتسباق أدلة على ما يشاء بعض المؤرخين  
نعته به ...

ولقد كان هذا الظلم الذى لقيه الرجل على أيدي فريق  
من بنى قومه هو حافزى للكتابة فأخذت أنشر سيرته  
تباعا في مجلة الرسالة الفراء ، وما أن رأى بعض أبنائه  
المقال الرابع حتى تفضلوا بزيارتي بدار المجلة معبرين  
لى عن شكرانهم ثم وضعوا بين يدي مذكراته المخطوطة  
وبعض الكتب التى كانت ترد اليه في منفاه وغيرها من  
الوثائق والصور العظيمة القيمة ، مما أثنى عليهم من  
أجله أعظم الشناء ...

ومما طببت له نفسا ما أفضى الى به أحدهم ومؤداه  
أن والده رحمه الله تنبأ بأن الذى سيدافع عنه هو شاب

من شباب الجيل القادم الذى لم يفسده الاحتلال . . .  
وما زادتني هذه النبوءة الا اهتماما بدراسة سيرته  
لعلى اكون هذا الشاب الذى يحسن أن يدافع عن عرابي،  
ولقد كنت قبل هذا كما ذكرت أحس أنه مظلوم وأن  
أعداءه بالغوا في الكيد له والزراية عليه ، وآلمني من هذا  
الظلم فضلا عما يلحق عرابيا منه أنه ينال كذلك من حركة  
مصر القومية على يديه تلك الحركة الجليلة التي حاول  
المبطلون تشويهها .



وبعد فهذا كتابي أقدمه للقراء ، فان كنت وفقت الى  
ما أحببت فحسبى جزاء على ما بذلت من جهد أنى  
أنصفت مظلوما قضى نحبه ولم ينصفه أحد ، وأنى  
بسطت سيرة الحركة القومية ولعل في هذا البسط عبرة  
وذكرى لهذا الجيل الذى يتوثب ويتطلع الى المجد ،  
وان كنت قصرت عما أردت فعذرى أن هذا جهد ما  
استطعت ، ولتكن هذه خطوة متواضعة يسرنى أن أشهد  
بعدها خطوات يخطوها غيرى من الكرام الكائنين في  
سبيل هذا الوطن الذى نخلص له الحب والولاء .  
وفقنا الله للعمل لمصر وهيا لمصر المكان المرجو من العزة  
والسؤدد والحرية .

محمود الخفيف



## الصبي القروي

يعد كتاب التراجم الذين يتناولون سير العظماء طائفة من الانبياء التي تجلو حياة هؤلاء ابان طفولتهم فيستعرضونها مستخرجين منها ما يعدونه من امارات النجابة ومن بشائر النبوغ والتبريز ، او ما يرون أنه من الشواهد على قوة الشخصية وبعد الهمة ومضاء العزيمة وما اليها مما تقوم عليه العظمة .

ونحن اذ نتكلم عن أحمد عرابي تعوزنا المصادر التي يمكن أن نعلم منها الكثير عن سيرته وخلاله في طفولته وقصارانا أن نقول انه ولد في شهر مارس سنة ١٨٤١ في هرية رزنة ، وهي قرية بالشرقية تقع غير بعيد من مدينة الزقازيق ...

ونشأ الصبي القروي كما ينشأ الآلاف مثله في قرى مصر على نمط من العيش لا نحسبه يختلف كثيرا أو قليلا في قرية عنه في أخرى من هاتيك القرى التي نبتت منذ الازل على ماء النيل .

نشأ في هذه القرية الصغيرة ذلك الصبي الذي قدر له أن يجرى اسمه يوما ما على كل لسان في مصر ، والذي صارت حياته فيما بعد فصلا من تاريخ وطنه ، والذي تداولت اسمه ألسن الساسة في انجلترا وفرنسا دهرًا طويلا ، والذي اجبر الخديو على النزول اليه حيث

وقف على رأس الجيش يوم عابدين ليسمعه كلمة الامة ،  
والذى يحتل جهاده أبرز مكان فى كل كتاب تناول ما  
تعارف المؤرخون على تسميته المسألة المصرية ...

ودرج الصبى القروى بين لداته فى هرية رزنة عرضة  
للأوبئة المختلفة ، يحيط به فى قرينيه الجهل والفقر  
والمرض أينما اتجه ، ولا يجد حوله من مظاهر الحياة  
والعمران مثل ما يجده من ينشأ فى مدينة كبيرة او يتلقى  
العلم فى مدرسة منظمة .

وكان أبوه محمد عرابى شيخ هرية رزنة أو على  
الأصح أحد « مشايخها » على حد الاصطلاح الإدارى  
فكانت تقسم القرى فى تلك الايام أقساما يسمى الواحد  
منها « حصة » ويعين على كل حصة شيخ يختار لبروز  
شخصيته إما بالثراء أو بالقوة أو بالاستنارة بشيء من  
التعليم أو بها جميعا ، ولم تكن وظيفة العمدة على النحو  
القائم فى القرى الآن قد عرفت بعد .

ويذكر عرابى عن أبيه فى مذكراته (١) أنه كان « شيخا  
جليلا رئيسا على عشيرته عالما ورعا تقيا نقيًا موصوفا  
بالعفة والأمانة » ، ونراه عند ذكر نسبه يعدد آباءه حتى  
يصل الى السيد صالح البلاسى فيذكر أنه ينسب الى  
بلاس وهى كما يقول قرية صغيرة ببطائح العراق ، كما  
يذكر أنه أول من هبط مصر من أجساداه وأنه تزوج  
بالسيدة صفية شقيقة السيد أحمد الرفاعى الصيادى ،  
وما يزال عرابى يرتقى بنسبه اذ يذكر آباءه بعد البلاسى  
هذا حتى يصله بالامام موسى الكاظم بن الامام جعفر  
الصادق بن الامام محمد الباقر بن الامام على الزاهر  
زين العابدين بن الامام الحسين رضى الله عنه .

(١) كشف الستار عن سر الاسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة  
العربية .

ويذكر عرابي كذلك فيما يذكره من انباء والده قوله :  
« وكان قد أمر والدي بترتيب درس فقه في المسجد  
الذي جدده للعامة بعد عصر كل يوم وبعد صلاة العشاء  
فتفقه عامة اهل البلد في دينهم وصحت عبادتهم وحسن  
حالهم بفضل قيام المرحوم والدي على تعليم قومه واهل  
بلده » .

وادخله أبوه مكتب القرية وهو كما يقول من منشأته  
فيها ، وفي هذا المكتب فتحت عينا الصبي على نور العلم  
فحفظ شيئا من القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة  
والكتابة ...



ويمكننا أن نتصور حال هذا الصبي في أول عهده  
بالتعليم قياسا على ما نعرف من حال أمثاله من أبناء  
المكاتب في كل قرية ، وهي حال تكاد أن تكون في القرى  
جميعا واحدة فلا فرق بين مكتب ومكتب الا بقدر ما يكون  
من فرق بين قرية وقرية .

فهذا صبي في جلباب طويل من القطن أو التيل وفوق  
رأسه قلنسوة ، يخطر بين صبية مثله الى المكتب وتحت  
ابطه لوح من الصفيح ويده محبرة فيها لأفلام الغاب  
خزانة أو هي محبرة ذات « مقلمة » كما يقول أبناء المكتب ،  
وهو لا يمتاز عن بقية الصبية في شيء الا بما عسى أن يكون  
في قدميه من نعل لأنه ابن شيخ البلد وأكثرهم حفاة ،  
وما يحضر في جيبه من فطائر يأكلها متى جاع أو يدفعها  
الى « الفقيه » على جوعه في حين لا يوجد في جيوب لداته  
الا الخبز اليابس ...

وفي المكتب يجلس الصبي على الارض بين أقرانه ولعل  
العريف يرفعه درجة فيجلسه على حصير أو على دكة  
من الخشب ثم يكتب له بعض كلمات في لوحه ليكتب



مثلاً ، أو بعض أرقام الحساب ليقلد رسمها ، فلا يضع لوحه الا حين يتلو العريف على الصبية بعض سور القرآن الصغيرة جملة فجملة فيرددون ما يتلو في نفمة مثل نفمته ، ويردد الصبى كما يفعلون ولكنه أفصح منهم لسانا وأسرع حفظا ، فالفصاحة هى أول ما يظهر من صفات ذلك الصبى وبها يتحدث العريف الى أبيه !

وتعهد صراف القرية كذلك ميخائيل غطاس فعلمه مبادئ الحساب ، وكان تعلم الحساب يحدث عادة على يد هؤلاء الصيارفة وبخاصة الأبناء المشايخ الذين يتصل بهم هؤلاء ويحرصون على مودتهم ورضائهم .



ومات أبوه وهو فى الثامنة من عمره ، ولكن يتمه لم يحل بينه وبين أن ينال قسطا من التعليم فى الأزهر ، فقد أرسله أخوه الأكبر محمد عرابى الى هناك عسى أن يكون عالما من علمائه ، ولكن الصبى لم يلبث بالأزهر الا أربع سنوات تعلم فيها على طريقة الأزهر يومئذ شيئا من الفقه والتفسير والنحو ، وحفظ الصبى القرآن بالضرورة كما يفعل من يلتحقون بهذا الجامع العتيق .

وعاد الصبى الى قريته ولسنا نعلم ما الذى حمله على العودة ، اكان ذلك نفورا من التعليم وركونا الى البطالة ، أم كان لرغبة منه فى أن يسلك فى الحياة سبيلا غير سبيل الأزهر ؟ ذلك ما لا نستطيع أن نتبينه على وجه اليقين . وكان من الممكن أن يعيش هذا الصبى القروى بقية عمره فى تلك القرية زارعا ثم يموت فيها كما يعيش ويموت سواه من الفلاحين .

ولكن الاقدار تخرجه بعد قليل من القرية ليفقد فيما بعد رجلا من رجال مصر ، بل ليكون أول مصرى فلاح ينطق بحق مصر وتتمثل فى حركته الروح القومية لمصر

وقد استيقظت من سبات طويل وأخذت تنفض عنها غبار القرون ، أجل أخرجت الاقدار هذا الفلاح من قريته ليقف وجها لوجه تلقاء خديو مصر يعلن اليه في رسالة وفي غير طيش أن « أهل مصر ليسوا عبيدا وأنهم لن يورثوا بعد اليوم » ويفتح بهذه الوقفة وبهذه الكلمة فصلا جديدا في تاريخ هذه البلاد فيكون فضله فضل الرواد يخطون الخطوة الاولى فيظل لهم الفضل ويظل لهم الحمد وان اتسعت بعدهم الخطوات وتوالي الوثبات ، وما نحسب خطوة عرابي في طريق الحرية والقومية كانت أقل خطرا من وثبة سعد ، ذلك الفلاح الذي نهض من بعده والذي غضب مثل غضبته ووثب مثل وثبته واتجه نفس وجهته ، ولكنه لم يكن من رجال السيف فلم يشهر الا القلم سلاحا ولم يمتط الا أعواد المناير مجاهدة وكفاحا



ونحب أن نقف عند أمرين في نشأته كان لهما أثر بعيد في تكوين خلقه وخلق شخصيته ، أما أولهما فهو أن أباه كان شيخا في القرية ، وأما الثاني فهو أنه في التحدث عن نسبه يصل أجداده بالحسين عليه السلام

كان يجد أبناء الحكام في القرى حتى وان لم يكن حظ آبائهم من الثراء كبيرا أنهم في موضع يصغر دونه موضع أبناء الزراع ، ففيهم على لداتهم شيء من الترفع وفي نفوسهم شيء من الكبر على من حولهم من الناس ، اذ يجد الصبي منهم أباه محاطا بالتوقير مخوف الجانب يتقدم الناس اذا سار ويفسح له صدر المجلس اذا جلس ، وتبدو عليه اذا كان ذا مال آثار النعمة في مظهره وملبسه كما تبدو تلك الآثار في مسكنه وفيما يقتنى من دواب وفيما يقوم على خدمته من خدم أو يلوذ به من اتباع أو يحيط به من بطانة ، لذلك كان اذا خرج هؤلاء

الابناء من القرية الى مجال اوسع منها خرجوا وفي انفسهم ذلك الاعتزاز الذى الفوه في بيثتهم الاولى فما يحبون أن يسمعوها كلمة نابية بل انهم ليكرهون أن يجدوا عدم الاكتراث لهم بله التطاول عليهم ، ولقد يوحى الى الصبى منهم ما غرس في نفسه منذ صغره أن يثور على الوضع الجديد اما باظهار القوة البدنية على من كانوا في مثل سنه ، او بالتفاخر عليهم بالمال والنسب ، واما بالعناد والشغب على من لهم عليه حق الطاعة من المربين والرؤساء ، ولقد يسرف هؤلاء فيتوهمون المدلة فيما ليس فيه مذلة ، أو يفسرون بالاهانة ما لم يقصد به أية اهانة فيبدون لذلك كثيرا من الالباء ويغالون فيه حتى ينقلب اباؤهم شراسة أو حتى يحسبه الناس شراسة.



ونحس من سيرة عرابى أنه كان أحد هؤلاء ، فلما قدر له أن يخالط قوما كانوا ينظرون الى المصريين جميعا نظرة الاحتقار ويجعلون نعتهم بالفلاحين مسبة لهم ، ثارت في نفسه الحمية ثم عصفت في رأسه النخوة فكان صوته أول صوت مصرى مثل القومية المصرية وان كان بذلك يفصح عن شعور غيره ممن احسوا مثل احساسه ولكن لم يكن لهم مثل جراته وقوة شخصيته .

وزاد الحمية تسبعا في نفس عرابى ثانى الامرين اللذين اشرنا اليهما وذلك وصله اجداده بالحسين بن على رضى الله عنهما ، فسواء اصحت هذه الصلة أم لم تصح فقد كان بها مؤمنا ، وكان ايمانه بها كفيلا أن يملأه انفة وعزة فمن كان مثله كما يزعم شريفا عربيا ينتمى الى الحسين عز عليه أن يستذل وبخاصة بأيدي قوم يرى أنهم مهما علوا فهم دونه علوا وشرفا ، وانك لتلمح اعتزازه بنسبه في تمثله ببيت الفرزدق « أولئك آبائى » فى خاتمة



كلامه عن نسبه في مذكراته .  
بقى الصبى في قريته لا يعلم ماذا يكون من أمره في غده ،  
ولا يخالط إلا الفلاحين من أبناء القرية ، أما الشراكسة  
المترفعين الذين يمقتون الفلاحين فلم يك يعلم من أمرهم  
شيئاً ولا كان يسمع يومئذ بوجودهم ، وأنى له ذلك في  
قريته ، ولكن الاقدار عما قريب سترمى به الى حيث  
يجد نفسه كما يجد بنى قومه موضع ازدراء هؤلاء ، فلا  
يطيق هذا الفلاح المصرى ترفعهم وكبريائهم والتمتع  
بأكبر المناصب في الجيش ، واذ ذاك يناضل عن قوميته  
ويفضب لكرامته ويكون في هذه الدائرة الضيقة وان لم  
يقصد ممثلاً مصر كلها التى كرهت الاجانب يومئذ وقد  
استيقظت فيها روح القومية ، تلك الروح التى تتمثل  
فيما امتلأت به نفس ذلك الفتى القروى القادم من قرية  
مصرية .

## فِي صفوف الجيش

لم يطل بالصبي المقام بالازهر ، ولم يطل به كذلك المقام في قريته ، فان القدر الذي لم يشأ له أن يكون شيخا من أشياخ الازهر ، ولا فلاحا من فلاحى القرية ، قد شاء له أن يكون جنديا في صفوف الجيش .

أراد سعيد باشا أن ينهض بالجيش المصرى ، فأمر أن يكون في صفوفه أبناء المشايخ والاعيان ، كيلا يحتقر الجندى في نظر الناس ، اذ كانوا لا يرون الا المستضعفين والفقراء يحشدون ويساقون الى الجيش ليكونوا عسكريه ، أما ضباطه وقواده فكان أكثرهم من الشركس . وكان بين من الحق بالجيش من أبناء الاعيان هذا الفتى الازهرى القروى ، وكان يومئذ في الرابعة عشرة من عمره ، وبالتحاقه بالجيش تبدأ مرحلة جديدة في حياته ، تم تنتهى من ناحية أخرى مرحلة تعليمه ، ومن ذلك ترى ان كل ما ناله هذا الفتى من المعرفة لم يعد ما تلقاه في المكتب ثم في الازهر حتى سن اليفاعه ، اللهم الا ما كان من مطالعته فيما بعد ، وهى أمر لا نستطيع تحديده ...

انتظم عرابى في سلك الجيش جنديا صغيرا ، ولكن حظه من القراءة والكتابة على قلته ، والمأمه بشيء من علم الحساب قد أجدى عليه من أول الامر فعين في عمل

من أعمال الكتابة بالاورطة الرابعة من آلاى المشاة  
الاول (١) .

وما لبث ان رقى عرابى بعد سنتين الى رتبة ملازم  
ثان ، ثم الى رتبة ملازم اول ، فيوزباشى فى نفس السنة ،  
وكان يومئذ فى السابعة عشرة ، ولم يمر عامان بعد ذلك  
حتى وصل الى رتبة قائمقام ، وكان عرابى اول مصرى  
وصل الى هذه الرتبة كما يقول فى مذكراته .

وصل هذا الجندى من رتبة الجاويش الى رتبة  
قائمقام فى اقل من اربع سنوات وما كان ذلك عن حظوة  
له عند احد ، وانما كان سلاحه ذلك القدر من العلم  
الذى اشرنا اليه ، فيه تمكن عرابى ان يدرس القوانين  
العسكرية ويجتاز بها الامتحان متفوقا ، ويدلنا ذلك  
على ندرة المتعلمين فى ذلك الجيش ، ولا شك فى ان هذا  
الترقى السريع قد بث فى نفس الفتى القروى كثيرا من  
الطموح والاقدام ...

على أنه كان طموحا بطبعه ، جريئا فى عصر كثيرا ما  
كانت تعد الجرأة فيه ضربا من العصيان والتمرد كما  
سيأتى بيانه ، ولسوف نرى من مواقفه فى ذلك العصر  
ما يريد معنى بسالته وضوحا ، ويظهرها مضاعفة .

واول ما عرف عنه فى الجندية كراهته للعنصر  
الشركسى ، فكان لايفتا يقارن بين نصيب هذا العنصر  
ونصيب المصريين من المناصب ، فلا تزيده المقارنة الا

---

(١) ويذكر عرابى فى تاريخ حياته الذى كتبه لستر بلنت والحقه  
هذا بكتابه ، أنه كره ان يعمل هذا العمل الكتابى لانه لا مجال  
فيه للترقى . وبما أنه كان يطمح ان يكون ذا شخصية كمدير الاقليم ،  
فقد ألح على رئيسه ان يلحقه بصفوف الجيش ، ولكن رئيسه  
افهمه أنه يخسر بذلك ، لان أجره فى وظيفته هذه ستون قرشا فى  
الشهر وأجر الجندى خمسة عشر فحسب ، وما زال عرابى بهذا  
الرئيس حتى ألحقه بالجيش فى مرتبة جاويش .

غضباً وكراهية لهؤلاء الأجانب ...  
أليست هذه النزعة فيه هي نزعته الوطنية في الجيش  
يوم تبدأ الحركة العسكرية ؟ ثم السنا نجد فيها جانباً  
من الوطنية ونحس معنى من معانيها ؟  
ولكن بعض المؤرخين لا يفهم هذا من جانب عرابي إلا  
على أنه ضرب من الانانية والجشع ، بل لقد يسرف  
بعضهم فيرمونه بالتبجح قائلين : ما لهذا الفلاح وعليها  
المراتب في غير جدارة ؟ وانهم في الحق ليمتدخونه بذلك  
من حيث لا يشعرون ولئن كان الطموح بالنفس والشعور  
بالقومية تبجحاً ، فماذا نسمى التقاعد والتخلف  
والاستخذاء أمام الأجنبي ؟ ألا ليت كل تبجح يكون  
كتبجح عرابي هذا ، فما أجدره بالاعجاب والثناء .

وكيف يستطيع رجل في مثل موقفه أن يقنع المكابرين  
أن نزعته كانت قومية يقصد بها بنى قومه جميعاً ؟ وأى  
عيب في أن يبدأ بنفسه فيرقى بها ؟ أليس مصرياً ؟  
وهل كان يعتز إلا بمصريته إذ اعتز بنفسه ؟ على أنه لو  
أراد بالرقى نفسه فحسب دون أى اعتبار قومي فما  
وجه العيب في ذلك ؟ أكون من العيب أن يتطلع الإنسان  
إلى المعالي ، ولا يكون من العيب أن يرضى بتقدم غيره  
عليه في غير حق ، حتى ولو كان ذلك الغير أجنبياً ؟

كره عرابي الأجانب في الجيش كرها شديداً ، وبخاصة  
هؤلاء الشراكسة المتعصبين لأنفسهم المترفعين على المصريين  
واستقر هذا الكره في أعماق نفسه ، ولسوف يجر عليه  
عنتاً كثيراً وضيقاً ، ولكنه لن يابيه لذلك ، ولسوف يظل  
على عناده وإصراره حتى يصبح الأمر أمر الوطنيين جميعاً  
في الجيش لا أمر أحمد عرابي فحسب .

وظل عرابي في مرحلته الأولى في الجندية ساخطاً على  
هؤلاء الأتراك والشركس لا يفتر سخطه ولا ينقطع عليهم



شفبه ، يكيدون له ويكيد لهم ، وانا لنلمس في هذا سببا قويا من اسباب زعامته للحركة العسكرية فيما بعد ، فلسوف يلتقى في دار هذا المتبرم الساخط رؤوس الساخطين الحائقين من رجال الجندية يوم يزمعون أن يشتكوا الى الحكومة في أوائل عهد توفيق مما يلحق بهم من أذى من جراء سياسة وزير الجهادية الشركسي عثمان رفقي ...

ويذكر عرابي في مذكراته ما كان بينه وبين سعيد باشا من حسن الصلة حتى لقد اختاره ياورا له في زيارته المدينة المنورة ، فكان على مقربة منه أثناء هذه الرحلة وقد أهدى اليه هذا الوالي كما يذكر تاريخ نابليون مترجما الى العربية ، ولقد قرأ عرابي هذا التاريخ كله في ليلة ، كما قال في مذكراته عن نفسه التي كتبها لمستر بلنت والتي أثبتها هذا في آخر كتابه ، وقد ذكر فيها عرابي أن سعيدا ألقى بالكتاب مفضبا على الأرض إذ رأى أن نابليون استطاع أن يفتح مصر بثلاثين ألف جندي ، وتناول عرابي الكتاب فلم ينم حتى أتمه ، وجاء الى سعيد ينبئه أن نابليون استطاع ذلك بالجيش المدرب ، وأن سعيدا يستطيع أن يجعل لمصر جيشا مدربا على نمط جيش نابليون ، ولست أستطيع أن أتبين على وجه اليقين ما تركته قراءة مثل هذا التاريخ من أثر في نفسه ، فلم يعلق هو على ذلك الا بقوله : « ولما طالعت ذلك الكتاب شـعـرت بحاجة بلادنا الى حكومة شورية دستورية ، فكان ذلك سببا لمطالعتي كثيرا من التواريخ العربية » (١) .

ولست أدري كيف توحى قراءة تاريخ نابليون بحاجة مصر الى حكومة شورية دستورية ؟ على أن قراءة سيرة

---

(١) كشف المستار عن سر الاسرار .

ذلك الجندي المغامر الفذ الذي وصل بجده الى قمة  
المجد الحربى وبلغ أوج الشهرة والجاه ، توحى الى كل  
من يقرأها معانى الاقدام والبطولة وتملاً النفس تطلعا  
وحماسة ، وعلى هذا فلا يصعب أن نتصور ماعسى أن  
تلقية تلك السيرة من المعانى فى نفس كنفس عرابى الجندى  
المتطلع المتوثب ...

ويشير عرابى فى مذكراته الى أن سعيدا كان يميل الى  
المصريين فى الجيش ويريد أن يرفع عنهم ما لحقهم من  
غبى على يد الشركس ، كما يشير الى أنه كانت لسعيد  
نزعة وطنية تتجلى فى محبته لمصر وللمصريين ، وفى  
رغبته أن ينالوا قسطهم الحق من الترقى فى الجيش .

وما يعنيننا من ذكر هذه العلاقة بين سعيد وعرابى  
الا ما فيها من اقبال عرابى على كل من يحب المصريين ،  
فهذا الاقبال دليل على أن النزعة الوطنية القومية كانت  
منبعثة من أعماق نفسه ، وعلى أن شغفه على الشركس  
والترك لم يك بدافع الاثرة كما يحلو لبعض الناس أن  
يرموه ...

ويقول عرابى ان ميول سعيد الوطنية قد تبينت فى  
خطبة القاها فى حفل جمع كثيرا من علية القوم ، وقد  
أثبت عرابى فى مذكراته بضعة أسطر تحت عنوان :  
خطبة المرحوم سعيد باشا ، وبدأها بقوله : قال مرتجلا .

فهل أثبت عرابى خطبة الباشا وهو يلقيها ؟ اذا صبح  
ذلك كان لكلام سعيد الذى يورده عرابى أهميته فى  
الدلالة على اتجاه هذا الوالى يومئذ ، واذا كان عرابى  
يذكر ما وعته ذاكرته فحسب ، فان فى هذا الذى يذكره  
عن سعيد ما هو كاف لان يكشف عن نزعته ، وقد جاء  
فى هذه الخطبة قول سعيد حسبما أثبت عرابى «وحيث  
أنى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا

الشعب وأهذه تهذبا حتى أجعله صالحا لان يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر الى العمل » .

يقول عرابى : « فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الامراء والعظماء غاضبين حائقين مدهوشين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحا واستبشارا . وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر فى أساس نظام مصر للمصريين . وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الامة المصرية الكريمة » .

ولقد كتب عرابى هذه الآراء بعد الثورة ، ولعل فى ذلك ما يدعو الى ضعف الثقة فى قيمتها عند بعض المؤرخين ، كما هو الحال مثلا فى مذكرات نابليون التى كتبها فى منفاه فى سانت هيلانة ، فلقد أخذها بعض المؤرخين على أنها دفاع من جانب نابليون عن أعماله بعد أن خلا الى نفسه فنظر وتدبر .

ولكن أعمال عرابى التى لاينكرها المؤرخون ، حتى المفرضون منهم ، لاتتناقض مع كثير مما جاء فى مذكراته ، وعلى الأقل فى هذا الجانب الذى نتلمس فيه الدليل على ما نحسه من أن عرابيا قد اتجه منذ نشأته اتجاها وطنيا قوميا ، وهذا أمر نراه على جانب عظيم من الأهمية ، ففى هذه النزعة القومية نرى عرابيا الحقيقى . أما عرابى الذى صورته خيال المفرضين من المؤرخين والمدافعين عن الاحتلال من كتاب الانجليز فما أبعداه عن هذا ، وهل كان يحلو لهؤلاء الذين استغلوا حركة عرابى أقبح استغلال الا أن يصوروه أقبح صورة ، فلا يكون عندهم الا جنديا جاهلا مغرورا ، واثته الظروف فراح يخبط

في حماقته لا يلوى على شيء ، وما زال في جنونه يلوح  
بسيفه حتى اضطر آخر الامر الى أن يسامه صاغرا  
الى قائد جيش الاحتلال الانجليزى ...

ما كانت حركة عرابى عسكرية بحتة كما يتصور  
البعض ، وما كان هو بالاحمق ولا بالمجنون ، وانما كان  
لابد أن تلقى الحركة العسكرية ، وهى لا تخلو من  
الصفة الوطنية ، بالحركة الوطنية العامة ، ولقد تم هذا  
الالتقاء فى شخص عرابى ، وكان النجاح حليفه فيما طلب  
باسم الامة يوم عابدين ، ولا لوم عليه بعد ذلك ولا جناح  
أن تحاك الدسائس وتوقد نار الفتنة تنفيذا لسياسة  
مرسومة سوف نميط اللثام عنها بكل ما وسعنا من حجة

هذه النزعة الوطنية القومية فى نفس هذا المصرى  
الفلاح مع ما توافر له من صفات الفيرة والبسالة هى  
التي جعلت اليه قيادة الحركتين يوم التقتا ، وما نشير  
اليها الآن هذه الاشارة فى غير موضعها من سيرته الا  
لنبين هنا انها نزعة أصيلة فيه جاشت بها نفسه منذ  
شب ، وكانت الثورة التي نشير اليها هى مظهرها فيما  
بعد . كتب فى ذلك مستر بلنت وكان من اصدقاء عرابى  
يقول فى علاقة عرابى بسعيد : « وقد حظى عرابى ، وكان  
شابا حسن الطلعة ، بعطفه ، حتى لقد اختاره اركان  
حرب له ورافقه الى المدينة فى السنة التى سبقت وفاته  
وقد كون عرابى آراءه السياسية الاولى أثناء هذه الصلة  
القريبة بسعيد ، وهذه الآراء هى المساواة بين طبقات  
الامة ، وما يجب للفلاح من احترام باعتباره العنصر  
الغالب فى القومية المصرية ، وهذا الدفاع عن حقوق  
الفلاح هو الذى جعل لعرابى ميزة بين مصلحي ذلك  
العصر . فقد كانت حركة الازهر نرمى الى اصلاح حال  
المسلمين عامة بغير تمييز بينما كانت حركة عرابى فى



جوهرها قوامها الجنسية ، وهذا جعلها أوضح في معنى القومية ومن ثم قدر لها أن تكون أكثر شهرة وذيوعا « ولقد كان لصلة عرابي بسعيد على هذا النحو أثرها في حلق عرابي على اسماعيل فلم يكن في قلب هذا الوالي شيء مما كان في قلب سلفه من الميل الى المصريين ، بل لعل ميله كان الى الشراكسة ، وقد أدى ذلك منه الى ازدياد كراهية عرابي لهؤلاء واضطفانه عليهم ، اذ يرى ان كل خطوة لهم عند الوالي انما هي على حساب الوطنيين وقويت في نفسه النزعة الوطنية ، وزادها قوة اتصاله بتلك الحركة الوليدة التي أخذت تدب في جسم الامة وقد كرتتها الكوارث من وراء سياسة اسماعيل وذيون اسماعيل .

وازدادت كذلك في نفسه نزعة التمرد والسخط ، وتجلت في مواقف له كان من أهمها ما كان بينه وبين خسرو باشا الذي ما زال يكيد له ويسعى بالوشاية به عند اولى الامر حتى رفت من الجندية .

وكان خسرو هذا شركسيا ، وقد رقى حتى أصبح في مرتبة اللواء وصار رئيسا لعرابي الذي كان يومئذ قائما للآلای السادس ، ويذكر عرابي أنه رقى « لا بعلمه ومعارفه ، بل لكونه شركسيا ومن الخارجين على الدولة العلية مع ابراهيم باشا بن محمد على باشا في تلك الفتنة الدهماء التي دكدت سياج الاسلام وكسرت شوكة الدولة العلية الحامية لجميع الموحدين » .

ويعزو عرابي سبب رفته الى أن خسرو قد سار بالوقية بينه وبين وزير الجهادية متهما اياه بأنه « صلب الرأي شرس الاخلاق لا ينقاد لاوامره ولا يحفل بما يصدر منها عن ديوان الجهادية » ، ثم يقول عرابي معقبا على ذلك : « وما بى والله من شراسة ، ولكنى جبلت على

حب العدل والانصاف وبفض الظلم والاجحاف » .

ويذكر عرابى سببين للخلاف بينه وبين خسرو ،  
أولهما أنه لم يشايعه فيما ذهب اليه من رغبة فى ترقية  
أحد الضباط ممن كان عرابى من ممتحنينهم وكان فى نظر  
عرابى لا يستحق الترقية بينما كان خسرو شديد الرغبة  
فى ترقيته ، هذا فى الوقت الذى أبعد فيه خسرو عن  
الترقية ضابطا آخر يستحقها ، وأوعز خسرو الى أحد  
الضباط فدبر مكيده لعرابى ، فاتهم بإساءة استعمال  
سلطته وحكم عليه بالحبس واحدا وعشرين يوما ، ولكنه  
رفع ظلامته الى المجلس العسكرى الأعلى فقضى ببراءته .

أما السبب الثانى ، ولعله فيما أحس أقوى السببين ،  
فهو أن خسرو سعى سعيه حتى حرم عرابى من أرض  
أنعم عليه بها الخديو اسماعيل فيمن أنعم عليهم من رجال  
الجيش ، وذلك عقب حفلة سر فيها الخديو من حسن  
نظام الجند .

وما زال خسرو يكيد له حتى رقت من الجندية كما  
أسلفنا ، ولنا أن نتصور مبلغ ما وقع فى نفسه من السخط  
والثورة على خسرو وعلى الشراكسة جميعا فى شخص  
خسرو .

والذى يعنيننا مما كان بينه وبين خسرو أنه يصور  
لنا شدة الخلاف بين عرابى ورؤسائه فى الجيش مهما  
كانت أسباب ذلك الخلاف .

كذلك يكشف لنا ما علق به عرابى على هذه القصة  
عن ناحية من نواحي عقله ، فلقد راح يذكر ما حل بمن  
آذوه من مصائب معددا أسماءهم مبينا ما لحق بكل  
منهم موردا ذلك على أنه انتقام له من الله . . . وفى هذا  
نوع من السذاجة فى رأى من ينظرون الى مثل هذه  
العقائد نظرة يقولون أنها حرة ، ونوع من الايمان فى نظر

آخرين لا يعرفون هذه النظرة التي يصفها أصحابها هذا الوصف ، كما ان فيه دليلا على ما كان للدين من سلطان على عقل عرابي وقلبه .

على أن خصومه قد استغلوا هذه الناحية الدينية من حياته استغلالا مرذولا اذ يحاولون أن يسوقوها دليلا على أنه كان رجلا لا يختلف كثيرا عن عامة الناس في جميع افكاره ونزعاته ، وليتهم يشعرون أنهم بهذا التعميم الذي لا مبرر له انما ينالون من عقولهم ، وأنهم يسيئون الى انفسهم ولا يسيئون اليه .

كان للدين سلطان على عرابي ما في ذلك شك ، ولكن تلك كانت نزعة العصر ، على اننا نسأل : ماذا يضره من ذلك ؟ وكيف يساق هذا على أنه من مساوئه وخليق به أن يعد من حسناته ؟ وهل عاب أحد هذا العيب على كرمول ، وهو جندي مثله ، في تزمته وتقشفه وصرامته في دينه ؟ وهب أن عرابيا كان يغلو أحيانا فيخلط بين ما يتصل بالدين وما يتصل بالسياسة فهل مال به ذلك عن منهاجه السياسي أو صرفه عن وجهته التي عمل على بلوغها ؟ وهل يستطيع أحد من خصومه أن يقيم الدليل على أنه اتخذ يوما من الدين سلاحا في غير موضعه ؟ أو انه استغنى بالدعوة الدينية عن الجهاد والقتال حتى النهاية حين عملت خيانة بني قومه ودسائس أعدائه على انتزاع النصر من بين فكيه ؟

ظل عرابي ثلاث سنوات مبعدا عن وظيفته الى أن عفا عنه الخديو بعد أن ظلت ظلامته لديه هذه السنوات الثلاث مهمة لغير سبب ظاهر ، ولقد تأصل في نفسه كره الاستبداد في كافة صورته كما استقر في قلبه حب الانتقام من هؤلاء الشراكسة الذين يراهم أذى وتقمة على العنصر الوطني .

وطلب عرابي أن يحال على الاعمال المدنية ليبعد عن  
دسائس أعدائه كما يقول في مذكراته ، وأنه ليذكر أنه  
بدل في تلك الاعمال جهدا عظيما ووفر في أحدها للخزانة  
مبلغا كبيرا كان لولا نشاطه ذاهبا لا محالة الى خزانة  
أحدى الشركات الأجنبية ، ولكنه رأى غيره يكافأ مكافآت  
مالية . أما هو فكان جزاؤه كما يقول : « وكوفئت أنا  
على تلك الاعمال الشاقة الجليلة بالتقاعد والراحة من  
غير معاش لحين ظهور خدمة أخرى فيالله ما أمر وأصعب  
تلك المكافآت المقلوبة على النفوس الحساسة الشريفة !  
وما أكثر العجائب نى الحكومات المطلقة المستبدة الظالمة »

على أن بلغت يذكر في كتابه أن تكليف عرابي بتلك  
الاعمال كان على غير رغبته ، وإن ذلك كان سببا من  
أسباب تقمته على العهد القائم يومئذ ومن دوافع  
انضمامه الى الساخطين والمتدمرين .

ولم يلبث عرابي أن أعيد الى صفوف الجيش ،  
وكانت الحكومة تستعد الحملة الحبشية فرقت بعض  
رجال الجيش الى مناصب أعلى مما كانوا فيها ، ولم  
يرق عرابي وكان قد جعل على ديوان الحربية في ذلك  
الوقت الأمير حسين كامل بن اسماعيل باشا ، ويقول  
عرابي في مذكراته : « وبعد اختيار المختارين للفرقة  
الثانية من الذين ترقوا بحضرة الأمير المشار اليه قال  
للذين تأخروا عن الترقى : اجتهدوا أيها الضباط في  
التعليم والتمرين حتى تدركوا ما وصل اليه أخوانكم  
الذين ترقوا ، والله يشهد وفطاحل الجهادية أن المتأخرين  
في الترقى هم أساتذة الذين ترقوا في العلوم الحربية وهم  
أرقى أخلاقا وأدبا . . . ولكن الغرض يعمى ويصم . . .  
ثم التفت الأمير الى وقال بلهجة الأسف : انى طلبت من  
أفندينا ترقية الى رتبة الميرالاي ، فقال : انك من بتوع



سعيد باشا ، فقاطعته الكلام ، وقلت : انى لست بتاع  
أحد ، بل خادم الحكومة والوطن وبلدى هرية رزنة  
بمديرية الشرقية ، ولكن بتاع سعيد باشا هو راتب  
باشا لانه ملكه ، فقال : لا تفتر همتك فى تادية واجباتك  
وانى سابدل جهدى فى ترقيتك عند تريب الفرقة  
الثالثة ، فشكرت له وخرجت وأنا شاعر بأنى لا أنال  
خيرا فى عهد والده لانى متحقق من أن خسرو باشا ،  
وراتب باشا ورؤساء الشراكسة يعارضون فى ترقيتى  
بكل ما فى قدرتهم ، وقد سمعت من أحد أمرائهم وهو  
رجل معتدل غير متعصب لبنى جنسه على ما فيه من  
غلظة أنه حضر مجلسا لأولئك الشراكسة حيث تذاكروا  
فى اختيار الذين يريدون ترقيتهم الى الفرقة الثالثة  
فعرض عليهم ترقيتى الى رتبة الاميرالاي مراعاة للحق  
والانصاف فأبوا عليه ذلك ، فقال لهم ربما ترقى قهرا  
عنكم يوما ما اذا لم يرتق برضائكم واختيساركم وانتم  
تعلمون أنه أقدم القائمقامات وأعلمهم وفيكم من كان تحت  
امرتة فالاولى بكم ألا تعرضوا انفسكم للانتقاد ، ولكنهم  
لم يزدادوا الا عتوا ونفورا ، ولما ترتبت الفرقة الثانية  
والثالثة وتم ترقى الضباط ، لم يقدر ناظر الجهادية  
الامير حسين كامل باشا على الوفاء بوعدده لأصرار  
السردار راتب باشا على رفض ترقيتى ، ومن الغريب  
أن الآلاى الذى تحت ادارتى ظل خاليا من ضابط من  
رتبة الاميرالاي مدة ثمانية أعوام ، وكنت أنا القائم  
بوظيفة الاميرالاي بأحسن نظام وأكمل تربية وأدق تعليم  
وأحسن هيئة عسكرية ، فما أوضح هذا الظلم المبين .

هذا كلام عرابى ومهما يكن من أمره فان حرمانه من  
الترقية سواء أكان مرده الى دسائس الشراكسة أم الى  
أى سبب آخر كان خليقا أن يحمله على الثورة والسخط ،

وأن يميل به الى اعتناق مبادئ الحركة الوطنية التي أخذت تشيع في نفوس الساخطين على حكم اسماعيل .  
والحق عرابى بالحملة الحبشية ، ولكن عمله في هذه الحملة لم يكن عمل الجندى المحارب ، فقد كان يعمل فى منصب « مأمور مهمات » بمصوع ، ولقد حنق عرابى على تلك الحملة ، فهو ما يفتأ يندد بها فى مذكراته ويصف ما حل فيها بالجيش من كوارث فى غير موجب ، وقد اتهم لورنج القائد الأمريكى الجنس فيها بالخيانة ، اذ كان يتصل عن طريق أحد القساوسة بالاحباش ويطلعهم على كل شىء ...



ويقول بلنت فى كتابه : « انه قد عاد من الحملة ساخطاً كما سخط العائدون على ماكان فيها من الفوضى ، واليه يرجع اتجاه نفسه نحو السياسة ، وازدياد بغضه وغضبه ، ذلك الغضب الذى كان فى ذلك الحين متجها أكثر ما يتجه الى الخديو » .

وفى شهر فبراير عام ١٨٧٨ وقعت مظاهرة الضباط الخطيرة ، تلك المظاهرة التى نلمح فيها بوادر الثورة العسكرية ، ويتلخص هذا الحادث فى أن عدداً من الضباط بزعمامة البكباشى لطيف سليم قد توجهوا الى وزارة المالية يطالبون بمرتباتهم المتأخرة ، فلما حضر نوبار باشا رئيس الوزراء وكان معه السير ريفرز ولسن وزير المالية هجم هؤلاء الضباط عليهما وأشبعوا نوبار لظما ولكما وراحوا يجرونه من شاربيه ، وامتدت أيديهم كذلك الى وزير المالية ، وكاد يتفاقم الحادث لولا أن خف الى هناك الخديو بنفسه فى فرقة من حرسه حينما نرى اليه ذلك النبأ ، وأمر الخديو بإطلاق النار ارهاباً ، فأطلقت رصاصات فى الهواء وفر المتظاهرون .

ولكن تهمة القيام بهذه المظاهرة وتديرها قد وجهت الى عرابي واثنين آخرين من الضباط ، وعقد لهم مجلس عسكري يحاكمهم وأصدر المجلس حكمه بتوبيخهم وفصل كل منهم عن آلايه الى جهة بعيدة ، وكانت الاسكندرية من نصيب عرابي وفيها اتصل بكثير من الاوروبيين .

ويدفع عرابي التهمة عن نفسه مقررا انه لم يكن له يد فيها قط ، اذ كان في رشيد وقت وقوع الحادث ، ذكر ذلك في مذكراته وذكره كذلك في التاريخ الذي كتبه لمستر بلنت بناء على طلبه عام ١٩٠٣ بعد عودته من منفاه ، ولقد اطلع مستر بلنت الشيخ محمد عبده على ما كتب عرابي ، فوافق على براءته من هذا الحادث .



ولقد أدى اتهام عرابي على هذا النحو الى ازدياد كراهته لاسماعيل وعهد اسماعيل ، ولسوف يكون ذلك من أهم الدوافع التي توجهه الى الاتصال بالوطنيين بغية معاونتهم والاستعانة بهم على تنفيذ ما كانوا يأملونه من وجوه الإصلاح ، قال عرابي في ذلك التاريخ الذي كتبه لصديقه بلنت والذي أثبتته هذا في آخر كتابه : « ولكن قبل أن نفترق اجتمعنا فاقترحت أن نتحد ونخلع اسماعيل ، ولو أننا فعلنا ذلك لكان خير حل للقضية ، لانه كان يسر القناصل أن يتخلصوا من اسماعيل على أية صورة ، ثم انه كان يوفر على البلاد ما حدث بعد ذلك من تعقد في الامور ، كما كان يوفر تلك الملايين الخمسة عشر التي حملها اسماعيل معه عندما خلع ، ولكنه لم يكن هناك يومئذ من يقود هذه الحركة ، ولذلك فان مقترحي لم ينفذ وان حاز القبول ، وقد القى خلع اسماعيل بعد ذلك عبئا ثقيلا عن كواهلنا وعم الفرح ، ولكن لو أننا فعلنا ذلك بأنفسنا لكان أفضل اذ أننا كنا

نستطيع أن نتخلص من أسرة محمد على كلها فانه لم يكن فيها حاكم صالح الا سعيد وكنا نستطيع ان نعلن اقامة جمهورية ، وقد اقترح الشيخ جمال الدين على الشيخ محمد عبده أن يقتل اسماعيل عند كوبرى قصر النيل ووافقه محمد عبده على ذلك .



ومن هذا الذى ذكره عرابى يتبين مبلغ حنقه على اسماعيل ، ولولا أن سعيدا كان يعطف على المصريين حقا وان اسماعيل لم يكن يبدو منه ما كان يبدو من سعيد من مظاهر هذا العطف ، لجاز أن يتهم عرابى بأنه يحب سعيدا ويبغض اسماعيل متأثرا بدوافع شخصية .

أما عن اتهام عرابى وزمئلته فى هذا الحادث ، فان عرابيا يورد له سببا فهو يتهم اسماعيل بأنه كان المحرض على هذه الفتنة ليتخلص من الوزارة الأوروبية ، ولكى ينفى عن نفسه الشبهة ، فانه اتهم هؤلاء الضباط الثلاثة بأنهم مدبرو الحركة .



## بقظة ونهوض

أخذت انجلترا وفرنسا تتنافسان في بسط نفوذهما في مصر منذ حملة بوناپرت على هذه البلاد ، ولكنهما وجدتتا في محمد علي رجلا يمد سلطانه ولا يفقد ذلك السلطان ، فاكثفت اولاهما بالعمل على تحطيمه و فرحت الثانية بمصادقته . . .

وساقت الاقدار ولاية العهد لإسماعيل قبل موت سعيد ، فاستبشر الناس وارتقبوا الخير في عهد هذا الامير الذي ذاع من صفاته فيهم ما حبه اليهم ، وكانوا قد علموا أنه من ذوى النباهة والحزم وبخاسة في شئون المال ، ولم يطل ترقب الناس فقد آل اليه الامر عام ١٧٦٣ .

وراحت مصر تستقبل طورا من اطوار تاريخها ، نهار أشد الحيرة ماذا نسميه وبأي الصفات ننعاه . . . طورا كان غريبا حقا ، تترك غرابته العقول في دهشة ، وتكلف من يريد الانصاف في درسه عسرا شديدا .

ما برحت فرنسا وانجلترا تراقبان سير الحوادث في وادي النيل ، أما فرنسا فكانت لا تنى تعمل على أن تزيد نفوذها في مصر ذلك النفوذ الذي وضعت أساسه حملتها على هذه البلاد ، والذي ما فتىء بعظم ويتزايد في عهد محمد علي ، وهما هو ذا في عهد اسماعيل قد بلغ مبلغا

عظيما حينما اتصل البحرين واستطاع دى لسبس أن  
يجرى بينهما القناة التى سوف تغير مجرى تاريخ هذا  
الوادى ... وأما انجلترا فكانت دائبة على سياستها  
تحويل دون ظهور قوة فى مصر ، وقد استراحت من  
محمد على وراحت اليوم نقف فى وجه حفيده وتحرص  
على أن يظل خاضعا للخليفة ، ولما التقى البحرين أصبح  
هما متجها الى السيطرة على مصر لتسيطر على القناة .  
ونصبت كل من الدولتين شباكها وعولت كل منهما  
على أن تتدخل فى شئون مصر من طريق المال أولا ثم من  
طريق السياسة بعد ذلك .

شهدت مصر فى هذا العهد جلائل الاعمال ومظاهر  
الاستقلال ، كما شهدت عوامل البلى وعناصر الانحلال ،  
شهدت يد التعمير تبعث الحياة والنشاط والقوة فى  
العاصمة وعلى صفحة الوادى ، وشهدت يد التخريب  
تهوى بمعولها فى غير رحمة أو هوادة فتزلزل البنيان  
وتقوض الاركان ، شهدت العظمة الشامخة والثروة  
الباذخة وشهدت الذلة المستخدية والفقر المستكين ،  
شهدت دوافع الحرية وشهدت نوازع الاستبداد ،  
شهدت مواقف البطولة والصدق وشهدت مخازى الدس  
والبهتان ... شهدت مصر ذلك كله وشهدت زيادة  
عليه ما تشهده الفريسة تجمعت عليها الذئاب وأوهنها  
طول الدفاع والجلاد ...

أراد اسماعيل أن يسبق عصره فيما يطلب من أوجه  
الكمال ، فلن يجل بمصر وهو واليها أن تكون قطعة من  
أفريقيا ولا أن تكون جزءا من تركيا ، ولن يهدأ له بال  
حتى تنتسب مصر الى أوربا ، وحتى تحطم الاصفاذ  
وتطرح عن عنقها نير الاستعباد ...

ولم يمض من عهد هذا الامير الفذ اثنا عشر عاما حتى

غمر مصر فيض من الإصلاح ، وتهيأ لها من أسباب الرقي ما لم يكن يتهيأ مثله في أقل من قرن إذا سارت الأمور سيرها العادى . . . . . ففي تلك الفترة القصيرة وصل بين البحرين وشقت الترع الطويلة تحمل إلى أنحاء الوادى من مياه النيل وغرينه ما يدرأ عنه رمال الصحراء ، ومدت سكك الحديد وأسلاك البرق ، ونظم البريد ومهدت السبل ، وأقيمت الجسور ، وأصلحت الموانئ وشيدت المنائر ، وبنيت المصانع ، وافتتحت دور العلم للبنين والبنات على نحو يذكر بالحمد والاعجاب وفي تلك الفترة تقلص نفوذ السلطان ، وأحاطت بوالى مصر مظاهر السيادة فلقب بالخدو ونظمت ولاية العهد ، وسمح للوالى بمنح الألقاب ، وأطلقت يده فأصلح القضاء وأدخل على النظام الإدارى كثيرا من الإصلاح . . . . .

وفي تلك الفترة سارت القاهرة تستبدل حياة بحياة ، ومظهرا بمظهر ، فتخلص ما وسعها الجهد من أفريقيا ولا تنى تقترب من أوربا ، وراح الخديو العظيم ينشر فيها من مظاهر همته ما جعل أعماله فى هذا المضمار من عجائب القرن التاسع عشر ، وما برحت انقاهرة طول عهده غاصة « بالمونة والاحجار » تلك التى كانت هوية الخديو ومسرة قواده . . . . .

ولكن اسماعيل وا أسفاه أنفق فى سبيل ذلك المجد ما زاد على خمسين مليوناً من الجنيهات لم يكن لديه منها شيء يذكر ، ولذلك لم يلبث أن رأى مصر التى أراد أن تكون قطعة من أوربا تساق على رغمه لتكون ملكا لأوربا ! فمن أوربا استدانته تلك الملايين ، ولما عجزت عن دفع دينها كانت رهينة لهذا الدين !

ولما أرادت مصر أن تجد لمشكلتها المالية حلا سنحت الفرصة لانجلترا فراحت تتنكر لمصر وتتربص بها الدوائر

وكان لابد للمسألة المالية أن تنتهى الى ما انتهت اليه من تغفل الانجليز والفرنسيين في صميم شؤون مصر .

على أن هذا التدخل لم يك شرا كله كما اعتاد المؤرخون أن يصوروه ، وحسبنا مما انطوى عليه من عناصر الخير ، أن قد استيقظت على صخبه وضجيجيه مصر ، فانبعثت القومية المصرية ومضت مصر تنفض عن كاهلها غبار القرون على صورة أروع وأقوى مما بدا في ثورتها على نابليون ثم على كليبر ، ومما ظهر من آمالها وروحها ومشيتها يوم ذهب أبناؤها وعلى رأسهم عمر مكرم والشرقاوى يلبسون محمد على البرك والقفطان دون أن يرجعوا في ذلك الى السلطان ...

وتراكمت الديون على مصر حتى أنها لم تك تقل عن تسعين ألف ألف من الجنيهات في عام ١٨٧٥ ، فمن ديون سائرة كانت في ذاتها أبلغ ما نال الخديو من معانى الفبن ، الى ديون ثابتة فيها أوضح معانى الشره وأقبحها من جانب الدائنين ، الى قروض داخلية لجأ اليها «المفتش» ذلك الذى قام على شؤون مصر المالية فكان في ذاته عبئا فوق ما أثقلها من عبء ، ومن تلك القروض الدالة على الارتباك والخلل دينا المقابلة والرزنامة ...

عندئذ تحركت انجلترا نحو هدفها ، وكانت أولى حركاتها في هذا المضمار شراء نصيب مصر من أسهم القناة ، اشتراه دزرائيلى رئيس وزرائها يومئذ بثمن بخس ، ولم يردده عن ذلك عطلة البرلمان في تلك الاثناء ، وكيف يفوت ذلك الداهية أمر كهذا الامر يجعل مقام بلاده في القناة كمقام فرنسا أو أعظم ، ويصحح خطأ وقعت فيه انجلترا ألا وهو استهانتها بالمشروع أول الامر ظنا منها أنه ان يتم ، ثم تراخيها في شراء الاسهم بعد ذلك رغبة في احباطه ؟

ولكن مصر بعد بيع أسهمها لا تزال في حاجة الى المال لتدفع به بعض ما جره عليها المال من وبال ، وأنى لها المال بعد هذا كله؟ وأية دولة تمتد اليها يدها؟ اذا فلتفكر مصر في الاصلاح ، ولتفكر انجلترا في اصطيات الفريسة.

طلب الخديوموظفا انجليزيا يدرس لمصر شؤون مالها، ويصلح ما يراه من أوجه الخلل ، فتلكأت انجلترا أول الأمر لأنها عن دهاء وجشع تحب ان تتدخل ولكنها لا تحب أن تفتح أعين غيرها ...

وجاء الموظف ولكنه كان مزودا من قبل حكومته بأوامر ، فعليه أن يدرس وعليه فوق ذلك أن يحقق ويدقق ثم يرفع الى حكومته تقريراً عما رأى ! وما لهذا أرادته اسماعيل فما كان يريد والى مصر الا أن يكون هذا الموظف معيناً له على اصلاح مالية البلاد .

ورفع « كيف » التقرير الى حكومته ! وجاد دور دزرائيلى فأعلن في البرلمان الانجليزى في غير تردد ولا استحياء انه يرغب عن نشر التقرير لان الخديو رجا منه ألا يفعل ، ولعمر الحق ما رجا الخديو منه شيئاً ولا أشار الى ذلك من قريب ولا من بعيد ...

ذعر الدائنون وهبطت قيمة أسهم مصر كما يقول رجال المال ، وتلقى الخديو الصدمة العنيفة ممن أمل على أيديهم الاصلاح وقال في مرارة وغيظ : « لقد احترقوا لى قبرى » وهى كلمة موجهة جامعة ، فبعد هذا التصريح من جانب دزرائيلى سيكون الطوفان ...

وما كان في تقرير « كيف » الا أن مصر « تشكو مما ينتشر في الشرق من أمراض ، منها الجهل والاسراف والاختلاس والاهمال والتبذير ، وأنها تشكو من كثرة النفقات التى سببتها محاولة ادخال مدنية الغرب والتى تترتب على مشروعات لا تجدى نفعا وعلى مشروعات



نافعة ولكنها تنطوى على الخطأ » بل لقد ذكر « كيف » في عبارة صريحة : « أن مصر تستطيع أن تدفع ما عليها من الديون إذا أحسنت إدارة البلاد » ولكن للسياسة مطامعها وأغراضها ولها من أجل ذلك أساليبها التي كثيرا ما تسخر مما تواضع عليه أفرار الناس من قواعد الخلق والاستقامة .

لم تستطع مصر أن تفلت من دائنيها فكان لابد من اذعانها لمراقبة مندوبيهم وأقيم في مصر « صندوق الدين العام » فكان حكومة صغيرة من الأجانب داخل حكومتها ، ثم وافق الخديو مكرها على تعيين مراقبين أجنيين : أحدهما انجليزى للدخل ، والآخر فرنسى للصرف ، وعين لهما موظفين من الأجانب بأجور ضخمة ، وعنى الخديو حقا باصلاح الحال يومئذ ولكن يد الغدر كانت من ورائه تبعث الارتباك وتنصب الشباك .

وقبل الخديو فيما قبل على رغبته تأليف لجنة من الأجانب سميت « لجنة التحقيق العامة » جعل على رأسها دى لسبس ومنحت سلطة واسعة غير محدودة ، فما كادت تعمل حتى اصطدمت ، وكان اصطدامها في بدء عهدها لسوء حظها ، برجل من رجال مصر كان يتحفظ ويتحين الفرصة ليثب وكان هذا الرجل هو محمد شريف باشا ...

استدعت اللجنة شريفا ليُمثل أمامها لتستفهمه فتعاضمه الامر فأبى ، فأصرت اللجنة وقد خشيت على هيبتها ونفوذها ، ولكنه خشى هو أيضا على كرامته وكرامة منصبه فأصر كما أصرت ... أيُمثل شريف أمام لجنة من الأجانب ؟ ولم لا تنتقل اليه اللجنة وهو العزيز بنزاهته واستقامته ، الكبير بشخصه ومنصبه ، العظيم بوطنيته وكرامته ؟ اذن فليطلق شريف المنصب غير

آسف ، وقد كان ما أراد فاستقال ، وهزت البلاد استقالته بما تنطوى عليه يومئذ من المعاني فلقد كانت وثبة منه في حينها كأنما جاءت على قدر من الايام ، ففي مصر يتوثب مثله رجال وتخفق بالوطنية قلوب وتضيق من تدخل الاجانب صدور ، وقدر لشريف ان يكون في تاريخ وطنه من أولئك الامثال الذين توحى مواقفهم البطولة وتخلق الابطال !

كان في استقالة شريف معنى الغضب ، ولكنه لم يكن غضب فرد لشخصه فحسب والا لما كان له ما كان يومئذ من خطر ، كان غضب رجل لشخصه ولقوميته معا أمام لجنة من الاجانب تريد ان تظهر بمظهر السيادة ، وتحرص أشد الحرص على ذلك المظهر ، ولذلك كان هذا الغضب ثورة ، وما لبثت تلك الثورة ان بعثت في كل نفس من نفوس الاحرار ثورة مثلها ، وبذلك تهيأت البلاد لان تثبت للأجانب وجودها ، واغتدى شريف بما فعل أول رجالها ورأس ابطالها .

ورب قائل يقول : وماذا كان في ذلك الموقف من معاني البطولة ؟ هذا رجل اعتزل منصبه فكيف يكون الاعتزال رجولة ؟ ولكن الذين يعلمون مبلغ نفوذ الاجانب ومبلغ ما منى به المصريون يومئذ من خور وماعرف عنهم اذ ذاك من الحرص على المناصب والالقاب يدركون ما ينطوى عليه موقف شريف من عزة وتضحية ، هذا الى ما سبق استقالته من تحد منه للجنة وسلطانها ، ولو ان الخديو آزر شريفا لما ترك منصبه وكان بذلك يدع اللجنة في اخرج المواقف كلما امعن في عصيانه وترفعه . . . ولكن الخديو على جلال قدره طلب الى اللجنة فيما يشبه الرجاء ان تكتفى من شريف بأن يرد على أسئلتها كتابة ، ولما رفضت اللجنة ذلك لم يرد الخديو عليها بعمل أو قول يكون فيه

معنى التأييد لرجله والاستنكار لفعل الاجانب ، ومعنى ذلك أنه لم يبق أمام شريف الا أن يتخذ من استقالته مظهرا من مظاهر الاحتجاج على تدخل الاجانب في شئون البلاد ، فكان ذلك المظهر أول انذار بالثوره .

أخذت لجنة التحقيق العامة تدرس الحالة ، ولقد جعلت اللجنة هدفها بالضرورة العمل لصالح الدائنين ولذلك لم تأل جهدا في أن ترجع بكل المساويء الى الخديو وحكومة الخديو متناسية ما فعله الدائنون من مخاطراتهم بأموالهم ابتغاء الربح الوفير وما جره جشعهم على البلاد من دمار ، وما انطوى عليه مكرهم من غدر وبهتان وزور واختلاس .

تعامت اللجنة عما كان يقاسيه الفلاحون يومئذ من شقاء ، ولم تراع في تقريرها يؤس أولئك الذين أثقلتهم الضرائب وهدمهم الجوع ، أولئك المساكين الذين كانوا كثيرا ما يفرون من أرضهم لكثرة ما كان يطلب منهم ، أولئك الذين غمرهم في سنة من تلك السنين السبود سيل جارف لم يكن أقل هولا عليهم من طالبي الضرائب ، ألا وهو فيضان النهر على قراهم وأراضيهم ، أولئك الذين أحاط بهم الربويون والأمراض معا ، وباتوا يتمنون الموت من قبل أن يلقوه !

وتغافلت اللجنة عن أولئك الاجانب الذين كانوا يهربون بضائعهم وينجون بها من الجمارك ثم لا يدفعون عنها شيئا داخل البلاد في ظل تلك الامتيازات المشؤومة التي كانت من أكبر المساويء في مصر ، والتي قل أن يجد المؤرخ مثيلا لما كانت تنطوى عليه من جور ، وما كانت تقوم عليه من باطل وبهتان ، وكذلك تغافلت اللجنة عن أولئك الاجانب الذين تزايد عددهم في الحكومة المصرية ، والذين كانوا يتقاضون الاجور العالية جزاء على

ما اتصفوا به من الكسل وقلة المروءة وجمود العاطفة ،  
بينما كانت مرتبات الوطنيين لا تدفع لهم الا في مشقة  
وعناء وهى من القلة بحيث كانت تؤدى بالكثيرين الى  
الاختلاس والتهاون فى العمل ...

واقترحت اللجنة فى قرار تمهيدى أن يتنازل الخديو  
عن سلطته المطلقة الى وزراء يسألون عن أعمالهم ، أى  
أن تكون عليهم تبعة ما يعملون ، وأن ينزل عن أملاكه  
نظير مبلغ معين ، وكذلك ننزل أسرته عن أملاكها ، كل  
ذلك دون أن تفكر اللجنة فى أن يتنازل الدائنون عن شىء  
من ديونهم ، وهى تعلم كيف تراكمت تلك الديون وكيف  
تزايدت أرباحها حتى بلغت ما بلغت .

وقبل الخديو تأليف الوزارة المسئولة فاستدعى نوبار  
من أوربا وعهد اليه تأليف وزارة يتضامن أعضاؤها فى  
التبعة وتقوم بالحكم فى البلاد ، ونظر المصريون فاذا  
وزارة المالية تسند الى رجل انجليزى ، واذا وزارة  
الاشغال تسند الى رجل فرنسى ، وهكذا يسيطر  
الاجانب على مصر سيطرة تامة !

ومن غريب أمر هذه الوزارة أنها كانت لا تعبأ بشىء  
الا بما يرى الاجانب ، فلم يك لمجلس شورى النواب حق  
اسقاطها ، بل لم يك له حق محاسبتها ، ولم يك للخديو  
نفسه فى الواقع سلطان عليها ، فكانت الوزارة بهذه  
الصورة سخرية من سخریات الاجانب هى فى ذاتها من  
أبلغ نكاياتهم يومئذ بالبلاد وأهل البلاد ...

على أنه سرعان ما دب الخلاف بين الخديو ووزرائه ،  
أو على الاصح بينه وبين نوبار والوزيرين الاجنبيين ،  
فلقد كان فى الوزارة رجال غير شريف يدينون بالولاء  
لحاكم البلاد الاعلى ومن هؤلاء على مبارك ورياض ...  
وتزايد هذا الخلاف حتى أصبح اسماعيل ولا هم له الا

أن يتخلص من هذه الوزارة التى لم تدع له من السلطة  
الا أسمها .

وسنحت له الفرصة فى حادث مظاهرة الضباط الذى  
أشرنا اليه ، فأعلن اسماعيل على أثر الحادث أنه غير  
مسؤول عن الأمن فى البلاد ما دام محروما من السلطان ،  
ومن ثم رأى نوبار أن لا قبل له بمواجهة الحال بعد ذلك  
فرفع الى الخديو استقالته ، وبذلك تخلص الخديو  
وتخلصت البلاد من تلك الوزارة التى اعتاد الناس أن  
يسموها الوزارة الاوربية .

وكانت تولد بالبلاد يومئذ حركة وطنية قوية ، كان  
باعثها الاول هذا البلاء الذى كانت تعانيه ، ولسوف  
تلتقى هذه الحركة فيما بعد بالحركة العسكرية التى هى  
فى جوهرها غضبة قومية على اجانب من جنس آخر هم  
الشراكسة ، وتتألف من التيارين تلك الثورة التى كان  
يطلقها أحمد عرابى ، والتى تعمده كثير من المؤرخين  
تشويهها ، والتى أخطأ فهمها عدد منهم ليس بالقليل  
من جراء ما هوش وافترى كتاب الاحتلال . . .

وكان لهذه الحركة الوليدة مركزان : أولهما المركز  
الرسمى وهو مجلس شورى النواب ، وثانيهما المركز  
الاهلى وهو بيت السيد البكرى نقيب الاشراف حيث  
كان يلتقى الاحرار من العلماء والنواب والاعيان وضباط  
الجيش الناقمين .

وكان قد هبط مصر السيد جمال الدين الافغانى يبعث  
فيها مبادئه ويحمل اليها قبسه ، وكان جمال ذلك الرجل  
الذى أطلعه الشرق ليضيفه الى كواكبه الزهر ، يرى  
أن علة العلل فى هذا الشرق المغلوب على أمره أن شعوبه  
سليبة الارادة تحكم على رغبتها وتسخر لحساب  
الحاكمين ، ولا مخرج لها الا أن تعود حرة كما كانت من



قبل حرة ، ولن يكون هذا الا أن تقوم الشورى مكان الاستبداد ، وأن ينسخ نور العلم ما تراكم في الشرق من ظلمات بعضها فوق بعض .

وكانت التربة في مصر صالحة لبذوره فنمت نموا سريعا يحمل على الدهشة ، فما أسرع أن ظهرت في البلاد حركة حرة كأعظم وأجمل ما تكون الحركات الحرة ، وراح تلاميذ جمال الدين يذيعون في البلاد مبادئه ، يقول في ذلك الشيخ محمد عبده أنبغ تلاميذه وأحبهم إليه : « وكان طلبة العلم ، طلبة جمال الدين ، ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف الى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه الى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد وبخاصة في القاهرة » .



وظهرت في تلك الايام الصحافة العربية ، وراح الناس يقرأون فيها نفثات الوطنية وأخذت تهب عليهم من بين سطورها نسمات الحرية ، فانتعشت أرواحهم وهفت الى الانطلاق من الاسر قلوبهم .

وأدى اتصال المصريين بالاجانب ، وقد كثر مجيئهم الى مصر ، الى تتبع الانباء العالمية في الحرب والسياسة فزادت معرفتهم بأحوال العالم وقارنوا بين حال الشعوب الحرة وبين حالهم ، وراحوا يستنبطون أسباب ما باتوا فيه من شقاء وذلة .

وبهذه العوامل مجتمعة قام في مصر رأى عام يعد شيئا جديدا حقا في تاريخها الحديث ، فقد اشتد الوعي القومى ، وكان من أكبر بواعثه ، ذلك العدوان الذى أسرف فيه الاجانب على مصر في غير حياء أو مبالاة .

أخذت تشتد الروح الوطنية وتتغلغل في النفوس ،

وكان شريف باشا يرقب حركة الاحرار الذين كانوا يجتمعون في بيت البكرى، وكان لا يفتأ ينصح لهم ويشير عليهم بما يعملون ، وكان يتمنى أن يتخذ منهم قوة يناوئ بها الاجانب ويحد من سلطان الخديو ، ولن يتم ذلك فيما يرى الا أن يكون الوزراء مسئولين أمام نواب الامة كما هو الحال في المجالس الاوربية التى تسير وفق القواعد الدستورية ...

وسقطت الوزارة الاوربية ، ولكنها ألفت ثانية برئاسة الامير توفيق ، فلقد رفض قنصلا انجلترا وفرنسا أن يرأس اسماعيل نفسه الوزارة كما طلب ، ولقد أرادت الدولتان على لسان قنصليهما أن يدخل نوبار الوزارة الجديدة فرفض الخديو وصمم على الرفض ، ورأت الدولتان مبلغ حرص اسماعيل على ابعاد نوبار ، فاشتريتا لقبول ذلك أن يعطى العضوان الاوربيان في الوزارة حق «الفيتو» على قرارات مجلس الوزراء ورضى اسماعيل بذلك ، فصار للعضوين الاوربيين حق ايقاف أى قرار لمجلس الوزراء لا يوافقان عليه ، ومعنى ذلك أنهما يحكمان البلاد حكما لا يدع للخديو في مصر سلطة أو ظلها ...

وآن لمجلس شورى النواب أن يخطو خطوة ما كان أعظمها من خطوة ، نمت الى المجلس فيما نمت اليه من أنباء الوزارة الاوربية أنها تأتمر بالمجلس وتنوى التخلص منه ، فصمم الاعضاء ألا يتفرقوا وأن يظلوا فى أماكنهم للنظر فى شئون البلاد فى تلك الآونة العصيبة... السنا نرى فى ذلك صورة مما حدث فى فرنسا فى مستهل عهد ملكها لويس السادس عشر، حين اشتدت الضائقة المالية ورأى نواب الشعب وجوب العمل على وضع حد لسوء الحال ؟ ولسوف تؤدي الظروف الى أن يصبح ذلك

المجلس الذى لم يكن له حول ولا قوة ، هيئة تحاسب الوزراء على أعمالهم وتملك اقضاءهم عن مناصبهم اذا تهاونوا فى حقوق البلاد ، ولقد كان لشريف باشا الفضل كل الفضل فيما ناله المجلس من حقوق حتى ليعد شريف بذلك مؤسس الحركة الدستورية فى مصر .

وكان المجلس فى وزارة نوبار قد ارسل الى السير ريفرز وزير المالية يدعوه ليحضر امامه ليسأله عن بعض الامور فسوف وماطل ، ثم لم يحضر او يرسل الى المجلس شيئا مما طلب المجلس ان يطلع عليه من المشروعات ، وضاق المجلس بما فعل وزير المالية ، وفسر عمله بأنه اهانة موجهة الى الامة المصرية فى أشخاص نوابها . . .

وفى وزارة الامير توفيق استصدر وزير الداخلية وهو يومئذ رياض باشا امرا من الخديو الى النواب بأن مدة مجلسهم قد انتهت فعليهم أن ينفضوا ، وذهب رياض يتلو على النواب هذا الامر ، وهنا وقف النواب وقفة جديرة بأن تفخر بها مصر فيما تفخر به من مواقف البطولة ، فلقد رفضوا أن يذعنوا ، وهددوا رياض بما عسى أن يقع من الحوادث فى البلاد بسبب سياسة الوزارة ، وجعلوا تبعة ذلك عليها ، ولكم نرى من أوجه الشبه بين موقف هذا المجلس ومجلس طبقات الامة فى فرنسا ، حين وقف فيه نواب الشعب الفرنسى يتحدثون قرار الملك على اثر صيحة ميرابو المدوية التى نقلت تاريخ فرنسا من فصل الى فصل .

ولكن النواب هنا لم يكونوا فى الحقيقة يتحدثون الخديو ، فقد كانوا يعلمون أنه يعطف على حركتهم ليتخلص بهم من تدخل الاجانب فى شئون مصر ، ذلك التدخل الذى حرمه كل سلطة ، وانما كان النواب

يتحدون الوزارة الاوربية ويريدون ان يأخذوا السبيل عليها ...

وكانت مطالب المجلس يومئذ تنحصر في المسألتين الدستورية والمالية ، أما أولاهما فتتلخص في أن تكون الوزارة مسئولة أمام المجلس بحيث يصبح هيئة لها مكانها الفعلى في حكومة البلاد ، وأما الثانية فمؤداها أن يبحث المجلس المسألة المالية دون الاجانب ، وأن يقرر في أمر الدين والضرائب ما تمليه عليه مصلحة البلاد .

وأصر النواب على ماطلبوا فكانت حركتهم هذه حركة قومية الى أقصى ما يتسع له معنى هذه الكلمة ، وكان يظهر النواب احرار البلاد من العلماء والاعيان والتجار، الذين لم تنقطع اجتماعاتهم في بيت البكرى ، وأخيرا اتفقت كلمتهم جميعا على أن يتوجهوا الى الخديو بما عرف باسم اللائحة الوطنية ، وفيها يعترض النواب على اقتراحات ريفرز ولسن التي كانت ترمى الى اعلان افلاس مصر ويقررون أن ايراد مصر يفى بدفع ديونها ، ويطلبون الى الخديو تقرير مبدا مسئولية الوزارة أمام المجلس ، وتأليف وزارة وطنية تقوم مقام هذه الوزارة. الاوربية التي ضاقت بسياستها البلاد .

ولقد وضعت هذه اللائحة لجنة من النواب تحت اشراف شريف ، وكانت هذه اللائحة الخطيرة كبرى حسناته الى هذه البلاد ، كما كانت أهم خطواته السياسية وأبعدها أثرا في مجرى الحوادث ، ووقع على اللائحة ستون من أعضاء المجلس ، ومثلهم من العلماء وفي مقدمتهم شيخ الازهر كما وقع البطريك والحاخام، وكذلك وقع عليها عدد كبير من الاعيان والتجار والموظفين والضباط ، ودفعت بعد ذلك الى الخديو فرأى أن قد حان الوقت ليوجه الى النفوذ الاجنبى ضربة قوية ،

فالبلاذ من ورائه تشد ازره ولذلك لم يتردد فى الموافقة على اللائحة ، وسرعان ما هزت البلاد فعلته هزة قوية ، هى هزة الفرخ بانتصار الحركة الوطنية والامل فى مستقبل تحطم فيه البلاد اغلالها وتنعم بالراحة والرخاء

واستقالت وزارة توفيق ، فاتجهت الابصار الى شريف واتفقت عليه القلوب والاهواء وما لبث ان تضاعف سرور البلاد بان اسندت اليه رئاسة الوزارة الوطنية واصبح شريف زعيم الحركة الوطنية ورئيس وزارة الامة

وراح الخديو يكيد للأجانب كيذا شديدا ، وظهر كمن يريد ان يثار لنفسه فلم يكتف باجابة الوطنيين الى ما طلبوا ، بل لقد ذهب الى حد مشاركتهم مظاهر ابتهاجهم بالعهد الجديد حتى لقد حضر بنفسه حفلا اقامه فى داره السيد على البكرى ودعا اليه كبار رجال الحركة الوطنية فكان موقف الخديو فى ذلك موقف الزعيم .

وتلقى الاجانب الضربة ولكنهم لم يعطشوا او يذهلوا عما يجب عليهم ان يعملوا ازاء موقف الخديو ومن اجل ذلك لقيت وزارة شريف منهم عنقا بالغا ، فتبددت فى ضوضائهم كل دعوة الى الحكمة وضرب الحق على آذانهم وجعل الفضب على ابصارهم غشاوة ...

ولكن شريفا ظهر يومئذ بمظهر جدير بالاعجاب حقا ، فلا هو خشى جانب الاجانب فتخاذل عما هو بسبيله ، ولا هو مال كل الميل فانقلبت سياسته شططا ، وبذلك جمع شريف بين حمية الوطنى الثائر وكياسة السياسى الماهر وروية المجرب البصير ...

احتج الاجانب على ابعاد الوزيرين الاوربيين واستقال كثير منهم من مناصبهم ، وراحت انجلترا وفرنسا تتهددان الخديو وحكومته وتهددان بهما ، وتوجه الدائنون الى المحاكم المختلطة فرفعوا امامها القضايا ،



وأعلنت لجنة التحقيق أن الحكومة مفلسة منذ أكثر من عامين ، ولما عرض شريف على هؤلاء الأجانب الصاخبين استعداداه لإعادة المراقبة الثنائية وفق ما كانت تقضى به تعهدات الخديو في حالة ما إذا أخرج الوزيران الأجنيان أو أحدهما ، رفضوا ذلك الحل مبالغة منهم في الكيد ، ورغبة في زيادة الأمور حرجا وتعقيدا . . .

ولكن شريفا لم يلوه حرج الموقف عن وجهته ، وما كانت وجهته إلا أن يجعل مرد الأمور إلى الأمة ، ولئن كان يمقت تدخل الأجانب فإنه كان كذلك يكره استبداد الخديو بالأمر أشد الكراهية ، لذلك جعل محور سياسته أن يكون الوزراء مسئولين أمام مجلس شورى النواب ، وتم له ما أراد فجاء في كتاب الخديو إليه بتأليف الوزارة عبارات لا تقبل تأويلا فيها يذكر الخديو أنه يرجع بالأمور إلى الأمة ويوافق على مسئولية الوزارة أمام مجلسها .



بهذا كان شريف كما ذكرنا أبا الدستور في مصر فان ذلك المجلس الذي تعهده برعايته منذ نشأته سنة ١٨٦٦ قد تمت له السلطة على يديه سنة ١٨٧٩ فصار الحكم في مصر دستوريا لا بشوبه شائبة مهما يقل القائلون في طريقة الانتخاب يومئذ وجهل سواد الناس بأصول الحكم أجل أن العهد الدستوري في مصر يرجع إلى سنة ١٨٧٩ ، وهذا الدستور إنما نالته مصر بجهد بنبها ، وما كان دستور سنة ١٩٢٣ إلا الدستور الثاني للبلاد أو بعبارة أخرى ما كان إلا توقدا لتلك الجمرة التي ظلت مظلومة تحت رماد الاحتلال حتى جاء سعد فخلف عرابيا في قيادة الحركة القومية فأزاح ذلك الرماد ونفخ في تلك الجمرة فأوقد نارها .

لم تكد البلاد ، وأأسفاه تفرغ من مظاهر فرحها حتى

جاءت الانباء بعزل عاھلھا اذ ما زالت انجلترا وفرنسا بالسلطان حتى استطاعتا اقناعه بعزل اسماعيل فخلفه على اريكة مصر ابنه توفيق ، وبخروج اسماعيل من مصر فقدت البلاد الرجل الذى كان يمكن الاعتماد عليه فى مناهضة نفوذ الاجانب .

ورفع شريف استقالته الى الخديو الجديد كما تقضى التقاليد الدستورية ، فطلب اليه الخديو اعادة تأليفها وأشعار توفيق صراحة فى أمره وخطابه أمام مجلس الشورى ميله الى العطف على الامانى القومية كما تظهر فى الحركة الدستورية الوطنية ، وسار شريف على نهجه الدستورى يدعم ما بنت يداه ويجتهد فى توطيد أسسه .

ولكن توفيقا ما لبث حين وصل اليه فرمان توليته أن تنكر للحركة الوطنية فما كان فى موقفه الاول الا مدعيا يكتسب الوقت فلما اطمأن الى منصبه بدأ سياسته الجديدة بأن رفض أن يجيب رئيس وزرائه الى ما طلبه بشأن توسيع مجلس الشورى ووضع نظام الحكم على أساس دستورى ثابت ، ورأى شريف فى هذا نية اقصائه عن الحكم فاستقال ، وجاءت استقالته هذه المرة كذلك عاملا قويا من عوامل اذكاء الروح الوطنية واشعال جذوتها

وما كان أحوج الخديو يومئذ الى شريف دون غيره من الرجال ، أجل ما كان أحوجه الى ذلك الرجل الذى كانت تجتمع فيه الرجال ، وتلتقى فى سياسته الآمال .

وما أشبه توفيقا بملك فرنسا لويس السادس عشر ، ذلك الملك المسكين الذى قال عنه بعض المؤرخين انه ورث عن أسلافه الثورة والعرش معا ، فلقد تجمعت عوامل الثورة الفرنسية قبل عهده ، وما زالت تنمو وتتزايد ، وما زالت تلك الاقلام الجبارة أقلام فلتير ، وروسو ، وأضرابهما تحدوها وتمهد الطريق لها حتى جاء عهد

ذلك الملك فانفجر البركان وكانت الراجفة التي زلزلت فرنسا زلزالا شديدا .

وأرى توفيقا قد ورث عن سلفه كذلك العرش والثورة فلقد تجمعت عوامل الثورة العرابية في عهد ذلك الخديو المخلوع ، ثم راحت تحدوها وتمهد لها أقلام جمال الدين وتلاميذه حتى جاء عهد توفيق فرجفت الراجفة .

وما كانت الثورة العرابية حركة عسكرية فحسب كما يحلو لكثير من المؤرخين أن يصوروها عن عمد ، أو عن غفلة ، وأن الذين يفعلون ذلك منهم ليأتون من ضروب الخطأ ما نعجب كيف يحملون على قبوله أنفسهم وعقولهم ، وإنما كانت الثورة العرابية إذا أردنا وصفها في جملة هي التقاء الحركتين الوطنية ، والعسكرية ، واندماجهما ، فلما ذهب عرابي إلى الخديو على رأس جنده في اليوم التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ ذهب يحمل إليه مطالب الجيش ومطالب الأمة معا ، ومن ذلك الوقت صار سلاح الثورة السيف وقد كان سلاحها القلم ، أو بعبارة أخرى حارت قيادتها بين السيف والقلم ما لبث المصريون كما أسلفنا أن فجعوا في آمالهم بتدخل الدولتين تدخلا جريئا في شئونهم أدى إلى عزل الخديو وتركهم ذاهلين تتنازع أفئدتهم عوامل الحق والخوف والتشاؤم من المستقبل .

وتولى قيادة السفينة توفيق ، فما كادت تسير حتى اكتنفتها الرياح الهوج ، وقامت أمامها العقبات من كل جانب ، فها هم أولاء المصريون تتأجج نيران الحق في قلوبهم على الأجانب ، ولن يطيقوا بعد اليوم أي جنوح اليهم ، وها هي ذي إنجلترا تتحفز وتتربص ، ثم ها هي ذي فرنسا تتحين الفرص لتتغلب على منافستها ، وهناك تركيا جاءت آخر الأمر تطلب أن تعيد سلطانها في مصر

سيرته الاولى فتردها الدولتان المتنافستان على عقبها .  
والربان غير عليم بالسياسة وأنوائها ، ولكنه على الرغم  
من ذلك يستغنى عن أعلم رجاله بها ، فتخلص من شريف  
وهو أحوج ما يكون اليه ، وتنكر للحركة الوطنية وكان  
حقيقا أن يعطف عليها عسى أن يحبه الوطنيون وعسى أن  
يحملهم هذا الحب على تناسي ما لحق بمنصب الخديوية  
من هوان صغر به في أعينهم ، ولكن توفيقا غفل عن هذا  
أو تفاؤل عنه لما رآه من اقضاء أبيه عن منصبه على ما  
كان له فيه من جاه وقوة .

وحل رياض محل شريف فآلم ذلك دعاة الحركة  
الوطنية وأزعجهم أن يروا رياضاً يجارى الخديو في  
استكثاره الدستور على المصريين فيقنع بما لا يقنع به  
وطنى مكتفيا بمبدأ مسئولية الوزارة عن أعمالها مستغنيا  
عن مجلس شورى النواب الذى يحرص عليه الوطنيون  
كل الحرص .

وجاء قانون التصفية في عهد رياض فازداد به الوطنيون  
آلما على آلامهم ، ورأوا ما فيه من غبن شديد يتجلى  
في الفاء دين المقابلة ، وقد أخذ من جيوبهم ، كما رأوا  
فيه ما هو أكثر من الغبن إلا وهو عدم تنازل الاجانب عن  
شئ من الدين وهم يعلمون كيف كانت تقترض الاموال  
ومبلغ ما كان يصل مصر منها ، وهم يعلمون كذلك ما  
كان من مجازفة الاجانب بأموالهم مما يلقي عليهم كثيرا  
من التبعة ، هذا الى أنهم رأوا مرتبات الموظفين الاجانب  
في الحكومة المصرية تبقى على حالها من الارتفاع ، فلم  
يدر بخلد من وضعوا تلك التصفية أن يراعوا ذلك في  
قرارهم فينزلوا بها الى الحد اللائق ...

تلك هى الحركة الوطنية ، أو تلك هى نذر الراجفة ،

وما كانت الحركة العسكرية التي بدأت في عهد اسماعيل واستفحل أمرها في عهد توفيق الا بعض هذه الحركة الوطنية العامة ، حتى قدر أن يكون لها القيادة آخر الامر وأن تسمى بالثورة العرابية نسبة الى الجندي الوطني الثائر أحمد عرابي .



## الجندى الثائر

بدأت الثورة العسكرية كما أسلفنا في عهد اسماعيل ، وكان أول مظهر لها ذلك الحادث الذى اعتدى فيه فريق من الضباط على نوبار أمام وزارة المالية ، وكان ما دفع الضباط الى ذلك الحادث فى الواقع أو ما جعل التحريض أيا كان مصدره ، يحدث أثره فيهم ، ما لحقهم من الضيق بسبب الاستغناء عن عدد كبير منهم ومن تأخر مرتباتهم عنهم ، بينما كان لا يلحق بالشراكسة فى الجيش شئ من هذا ...

ويذكر بلنت فى كتابه « التاريخ السرى » حركة لنفر من الضباط المصريين فى شهر مايو سنة ١٨٨٠ ، وكان من بينهم أحمد عرابى . وخلاصة هذه الحركة كما يصفها بلنت ، أن هؤلاء الضباط قدموا شكوى الى وزارة الجهادية من تأخر مرتباتهم ، ونظرت الوزارة فى الامر ، وكان قنصلا انجلترا وفرنسا قد تدخلوا فيه وألفت لجنة لتحقيق المسألة ، وقد أقرت هذه اللجنة مطالب الضباط ، ولكن رياضاً ووزيره رأيا فى ذلك العمل القانونى حركة جريئة ، وخروجا على النظام .

ويقول بلنت : ان قنصل فرنسا البارون دى رنج أبدى كثيراً من العطف على هؤلاء الضباط ، وأصبح محبوباً لديهم ، وكان بين هذا القنصل وبين رياض كثير من الحزازات ...

وكان لعرابي كما يذكر بلنت نشاط ملحوظ في هذه الحركة ، ولكنه كان معتدلاً حتى لقد اكتسب باعتداله ثناء القناصل عليه .

ويتهم بلنت الخديو بأنه وجد في هذه الحركة فرصة للدس والكيد لوزيره رياض ، فاتصل بالضباط وكان رسـؤله اليهم على فهمي رئيس الآلاى الاول لحرس الخديو ، وكان على فهمي صديقاً لعرابي وان لم يكن له ضلع في هذه الحركة ولا وجهة معينة في السياسة . . .

ويذهب بلنت الى القول بأن توفيقاً أخبر الضباط على لسان على فهمي بأن رياضاً ووزير الجهادية يبيتان لهم الكيد، وانهم أن لم يعملوا على اقصائهما عن منصبيهما حاق بهم السوء ، ولن يبخل الخديو بمعاونتهم لانه يعطف على مطالبهم . . .

ولو صح هذا الذى يرويه بلنت لكشف لنا عن جانب من ضعف توفيق ، ذلك الذى يستعين بالضباط على وزيره ، لان يده كانت مغولة عنه بسلطة الاجانب .

ولكن هذا الذى يذكره بلنت لم يرد ذكره فيما كتبه عرابي في مذكراته ، ولا في ذلك الموجز الذى كتبه لبلنت فأثبتته في آخر كتابه ، وما كان عرابي ليسهو عن أمر كهذا لا يخفى ما له من اهمية .

وكذلك لم أقع على ذكر هذا الذى ينسب الى الخديو فيما تناولته من الكتب التى عنيت بتفاصيل الحركة العسكرية ، ولعل بلنت ينفرد بهذه الرواية .

على أن مسلك الخديو لوصحت الواقعة أمر لا يستغرب، فقد استعان اسماعيل نفسه بالضباط على نوبار وزمليه من قبل ، اذ عجز عن مناوأتهم مناوءة علنية خوفاً من الاجانب . . .

استغنى عن عدد كبير من الجند الوطنيين في أوائل

عهد توفيق حتى نزل عدد الجيش المصرى عما اتفق عليه في بداية هذا العهد ، وولى وزارة الجهادية في حكومة رياض عثمان رفقى الشركسى ، وكأنما جعل هذا الوزير أساس سياسته الكيد للمصريين ما وسعه الخيد ، فلقد راح يديقهم من كيده ونكاله بقدر ما راح يفيض على الشراكسة من عطفه واحسانه ، ولم يكن ذلك عجيبا من جانبه ، ففى دمه ما فى دم بنى جنسه من بفض قديم للمصريين الذين كانوا فى رأيهم فلاحين لا يصلحون الا ليكونوا عبيدا ...

وكان طبيعيا أن يجعل هذا الوزير الشركسى اكثر الترقيات فى الجيش للشراكسة ، وأخذ عثمان رفقى يعد مشروع قانون يمنع به ترقية الجند من تحت السلاح لكى يبقى الشراكسة فى الجيش هم العنصر الذى يسود

أما عن كبار الضباط فقد بدأ يعزلهم أو يقصيهم عن مواضعهم ، كما حدث فى أمر أحمد عبد الففار قائم مقام السوارى ، اذ عزله رفقى وعين مكانه أحد الشراكسة وهو شاكر طمازة ، وكما حدث فى نقل عبد العال حلمى الى عمل فى ديوان الوزارة ووضع شركسى مكانه طاعن فى السنن لا كفاءة له وهو خورشيد نعمان .

وأما عن الجند فقد كانت الحكومة تسخرهم فى أعمال لا تمت بصلة الى الجندية كحفر الترع والزراعة فى أرض الخديو وغير ذلك ، ومما هو جدير بالذكر هنا أن عرابيا عارض معارضة شديدة فى أن يعمل جنوده فى حفر الرياح التوفيقى ، وهذا بلا شك موقف من مواقف شجاعته ، تلك الشجاعة التى يأبى خصومه أبدا أن يروها تهورا ، والتى نراها فى أكثر الاحوال على خير ما تكون شجاعة أولى الحمية والاخلاص من الرجال ، وأى مأرب كان لعرابى فى مثل هذا الموقف وفيم تكون معارضته فى أن

يسخر جنده في مثل تلك الاعمال اذا لم يكن مبعثها  
الانصاف والفيرة ؟ وما يكون انصافه وغيرته في موقف  
كهذا الا بسالة واقداما .

وكان رجال الجيش بوجه عام يحسون قلة عناية  
الوزارة بالامور العسكرية بل كانوا يلمسون اهمالها هذه  
الامور في الوقت الذي اولت فيه شيئا من عنايتها غيرها  
من المسائل ...

ولو ان الوزارة شالجت هذه الحال بما يقتضيه العدل  
والانصاف لما قدر للحركتين : الوطنية ، والعسكرية ان  
تمترجا فيكون منهما تلك الثورة التي اقترنت باسم  
عرابي . . . لكن كان دون علاجها عقبات ، فهناك تعصب  
رفقى وغطرسته ، وجهل رياض بالشئون الحربية وترفعه  
عن هؤلاء الفلاحين من الجند ، لانه كان يترفع عن الفلاحين  
جميعا ، ثم هناك دسائس الشراكسة في الجيش وكيدهم  
للمصريين ذلك الكيد الذي لم يكن يفتر ...

علم عرابى بما اراده عثمان رفقى بكل من احمد عبد  
الفقار وعبد العال حلمى قبل ان ينشر ، اذ كان مدعوا  
الى وليمة بدار احد الباشوات ، وقد انبأه هناك احد  
اصدقائه بما اعتزمه رفقى فقال عرابى غاضبا : « ان  
هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها » كما  
جاء في مذكراته ، ويقول عرابى في تلك المذكرات : « وبعد  
تناول الطعام جاءنى ضابط واخبرنى بأن كثيرا من الضباط  
ينتظروننى بمنزلى فتوجهت اليهم فى الحال فوجدت من  
ضمنهم الاميرالاي عبد العال بك حلمى حكمدار الآلاى  
السودانى الكائن مركزه فى طره ، والبكباشى خضرأفندى  
من الآلاى المذكور أيضا ، وعلى بك فهمى أميرالاي الحرس  
الخدوي بقشلاق عابدين والبكباشى محمد أفندى عبيد  
من الآلاى المذكور ، والبكباشى ألفى أفندى يوسف من

الآلاى الرابع البيادة حكمداريتى ، والقائم مقام أحمد بك عبد الغفار من الآلاى السوارى وغيرهم . وكانوا جميعا فى هياج عظيم اذ بلغهم صدور أوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم ، فلما رأونى أفضوا الى بما سمعته من نجيب بك واسماعيل باشا كامل من قبل ، فقلت لهم :

قد سمعت هذا من غيركم فماذا تريدون ؟ قالوا : وليس الامر كذلك فقط ، بل انه قد كثر اجتماع العنصر الشركسى فى منزل خسرو باشا الفريق وهم يتذاكرون فى تاريخ دولة الممالك فى كل ليلة بحضور عثمان باشا رفقى ويلعنون خيرى بك لتسليمه واذعانه للسلطان سليم ، ويقولون انه قد حان الوقت لرد بضاعتهم اليهم ، وأنهم لا يفلحون من قلة ، وظنوا أنهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك الممالك من قبل ، ثم عقب الضباط بأنهم قد تحققوا صدق تلك الأنباء ممن يوثق بخبره ، فقلت : وماذا تريدون اذن ؟ فقالوا : انما جئناك لنرى رأيك ؟ فقلت : رأى أن تطيبوا نفوسكم وتهذبوا روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا اليهم النظر فى مصالحكم ، وهم يتخذون من بينهم رئيسا لهم يثقون به كل الثقة ويسمعون قوله ويطيعون أمره ، ويحفظونه بمعاضدتكم اذا أرادت الحكومة به شرا ، فقالوا كلهم :

انا فوضنا اليك هذا الامر ، فليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك . فقلت : كلا ، بل انظروا غيرى وأنا أسمع له وأطيع وأنصح له جهدى ، فقالوا : انا لا نبغى غيرك ولا نثق الا بك ، فأبنت لهم أن الامر عصيب ولا يسع الحكومة الا قتل من يتصدى له فقالوا : نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا فقلت لهم : أقسموا لى اذن على ذلك فأقسموا ، وفى الحال كتبت عريضة الى رئيس النظر مصطفى رياض باشا مقتضاها الشكوى

من تعصب عثمان رفقى باشا لجنسه واجحافه بحقوق  
الوطنيين وطلبت فيها أولا : عزل ناظر الجهادية المذكور  
وتعيين غيره من أبناء الوطن عملا بالقوانين التى بأيدينا  
ثانيا : تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامة تنفيذا للأمر  
الخديوى الصادر عقب ارتقائه مستند الخديوية ، ثالثا  
ابلاغ الجيش العامل الى ١٨٠٠٠ تطبيقا للفرمان  
السلطاني ، رابعا : تعديل القوانين العسكرية بحيث  
تكون كافلة للعدل والمساواة بين جميع الموظفين بصرف  
النظر عن اختلاف الاجناس والمذاهب .

ثم تلوت العريضة المذكورة على مسامع الحاضرين  
فوافقوا عليها ، وامضيتها بختمى وختم على بك فهمي  
وعبد العال بك حلمي ، وبعد ذلك صار ترتيب ما يلزم  
لحفظ الخديو والعائلة الخديوية والوزراء اذا حدث اي  
حادث من الضباط الشراكسة مع ترتيب ما يلزم لحفظ  
البنوك وبيوت التجار الاجانب والوطنيين من مطام  
الرعاع ، وكذلك ما يلزم لحفظنا من بطش الحكومة اذ  
ارادت الايقاع بنا ، وانتهى الاجتماع على ذلك .

ويتضح من اجتماع الضباط بمنزل عرابي على هذ  
الصورة وفيهم من لم ينلهم في أنفسهم شيء من الاذى ار  
السخط على رفقى كان من كل قلب ، وأن المسألة في  
حقيقتها كانت شعورا قوميا تجاه تعصب هؤلاء الشراكسة  
وعلى رأسهم كبيرهم الذى يمكن لهم على حساب المصريين  
أو الفلاحين كما كانوا يسمونهم ، وفي هذا أبلغ رد على  
الذين تشاء لهم أهواؤهم أو يدفعهم جهلهم الى تشويا  
ما كان يدفع عرابيا الى التمرد من نبيل الشعور، وذلك  
بقولهم : انه كانت تحركه دوافع شخصية .

ويجدر أن نبين هنا لماذا انضم اليهم رجل مثل على  
فهمي وقد كان في حرس الخديو ، والواقع أنه فعل ذلك



نتيجة لسياسة رفقى كذلك ، فقد وشى به رفقى عند الخديو حتى غيره عليه ، وأحس فهمى أن مكانته عند توفيق لم تعد كما كانت ، فانطوت نفسه على الضغن وصمم على أن ينتقم من رفقى متى سنحت الفرصة ، وما لبث أن أحس مثلما كان يحسه عرابى من كراهية هؤلاء الشراكسة جميعا ، والتعصب للقومية المصرية ، وهو بلا ريب نتيجة لتأثره بشخص عرابى بعد مصاحبته وتطفنه الى ميوله وأفكاره .

يذكر عرابى فى مذكراته هذه أنه قد جاء فى الشكوى تشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش ، ويذكر ذلك أيضا فى التاريخ الموجز الذى كتبه عن نفسه وأثبتته بلنت فى آخر كتابه ، ولكنى لم أقع فى مصدر آخر على أن العريضة احتوت المطالبة بتشكيل مجلس نيابى وزيادة عدد الجيش ، ولقد علق بلنت على ذلك قائلا : « أظن أن عرابيا قد وقع هنا فى خطأ فخلط بين ما احتوته العريضة وبين هذين المطلبين اللذين جاءا فيما بعد يوم ٩ سبتمبر ، ولكن عرابيا أصر على أن المطالب الثلاثة جاءت أول ما جاءت فى فبراير وأنها كتبت يومذاك » . وقد عرض بلنت ما كتبه عرابى عن تاريخ حياته على الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٣ فى منزله بعين شمس فأقر أكثره ولكنه وضع ملاحظاته على بعضه ومنه محتويات تلك الشكوى ويؤكد الشيخ محمد عبده أنه لم يكن فى تلك الشكوى أية إشارة الى تشكيل مجلس نواب أو الى زيادة عدد الجيش .

ويقول كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » : « لقد جاء فى العريضة أن وزير الحرب عثمان باشا رفقى عامل الضباط المصريين فى الجيش معاملة غير عادلة فيما يتصل بالترقية ، وقد سلك فى ذلك مسلكا كما لو كان هؤلاء أعداءه أو كما لو أن الله قد أرسله ليصب غضبه على

المصريين ، وقد طرد الضباط من فرقهم بغير تحقيق قانوني وعلى ذلك فقد طلب الشاكون مطلبين : أولهما ، أنه يجب اقضاء وزير الحرب لانه غير كفؤ لهذا المنصب العالي ، وثانيهما ، أنه يجب أن يجرى تحقيق يتناول مبلغ كفاءة الذين ظفروا بالرقى .

هذا ما ذكره كرومر عن محتويات الشكوى ولو أنه كانت بها اشارة الى ذينك المطلبين اللذين أشار اليهما عرابي ما اغفلهما كرومر لما يكون لمثلهما من خطر في ذلك التاريخ الذى يكتبه ...

ويقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « الثورة العرابية » : « ويلوح لنا أن ورود هذه المطالب كلها فى عريضة الضباط أمر مبالغ فيه ومشكوك فى صحته ، فالمستر بلنت - وقد قص له عرابي واقعة قصر النيل - يقول : ان العريضة كانت مقصورة على عزل عثمان باشا رفقى من منصبه ، والشيخ محمد عبده ينفى رواية عرابي ويقول ان العريضة تتضمن الشكوى من الحيف الذى وقع بالضباط من عثمان رفقى وطلب عزله ، وانه لم يرد بها أية اشارة الى الدستور أو الى زيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ جندي ، وقال على باشا فهمى فى استجوابه ان العريضة مقصورة على طلب عزل عثمان رفقى ، وذكر البارون دى رنج قنصل فرنسا العام فى مصر فى رسالته عن واقعة قصر النيل أن العريضة مقصورة على اعادة قائمقام الفرسان » ويرى الاستاذ الرافعى أن عرابيا « حين كتب مذكراته بعد وقوع حوادثها بسنين خلط بين مطالب الضباط فى واقعة قصر النيل ومطالبهم بعد انتصارهم فيها » .

وأنا أميل الى ما ذهب اليه الرافعى ، وأحس أن عرابيا لم يعن بالدقة فى بعض تفاصيل هذا الحادث

ومنها ما احتوته العريضة ، فقد ذكر في ذلك التاريخ الموجز الذى كتبه لبلنت بناء على طلبه أنه علم في بيت نجم الدين باشا أن عثمان رفقى كان ينوى عزله وعزل عبد العال ، وهذا يخالف ما جاء في مذكراته ، وكذلك جاء في ذلك الموجز أن عبد العال اقترح عليه حينما وافاه ومن معه في منزله الذهاب الى بيت عثمان رفقى والقبض عليه أو قتله ، وأنه رد على عبد العال قائلاً : «كلا ، بل نشتكى الى رئيس الوزراء ، فان لم يقبل فالى الخديو» ، وهذا أيضا يخالف ما جاء في المذكرات ، ومنه يحس المرء أن عرابيا كان يكتب من ذاكرته أحيانا ولذلك كان يختلط عليه الامر في بعض المسائل .

ومهما يكن من أمر محتويات العريضة ، فالذى تكاد تتفق عليه الروايات أن الضباط طالبوا بعزل عثمان رفقى من منصبه وليس هذا بالامر الهين ، بل انه لجرأة عظيمة في عهد كذاك العهد . . .

يذكر عرابى في مذكراته أنه بين للضباطين خطورة الحركة ، ولكنهما أصرا عليها فطلب اليهما أن يقسما أمامه أن يخلصا له النية ، ولنا أن نتساءل هنا ، لم اختير عرابى قائدا لهذه الحركة دون غيره ، وقد كان فهمى في حرس السراى وله صلات برجال الحاشية ، ولم يكن عبد العال دون عرابى مرتبة وخبرة ؟ لم عقد الضباط اجتماعهم في داره وأرسلوا يطلبونه وقد نمي اليهم مما يدبر رفقى ما نمي ؟

ان اختيار رجل من الرجال دون غيره لقيادة حركة من الحركات أمر ينطوى لاريب على معنى ، فما ولدت الزعامة في الغالب الا على هذه الصورة ، ففي ذلك الرجل توجد صفات يتميز بها من سواه فتجتمع عليه القلوب والاهواء في لحظة لا يكون للتنافس الشخصى فيها مجال ،

وهذا في رأي من أفضل مقاييس الزعامة وبخاصة اذا كان من يختار معروفا من قبل لمن يختارونه ، فلا يكون اقبالهم عليه اعجابا وقتيا لا يلبث أن يتبين خطأهم فيه . ولن يشد عزابي عن هذه القاعدة ، فانما اختاره الضباط لما عرفوا فيه من صفات الجرأة والحماسة والاخلاص ، ولما عهدوا ما عليه من الصدق وحسن الطوية ، هذا الى أنه كان يفوقهم من ناحية لا غنى عنها لزعيم من الزعماء ألا وهي فصاحة اللسان ، فلقد كان هذا الرجل الذي جعل الجهل في مقدمة عيوبه أفصح الضباط لسانا ، ولقد كانت الخطابة احدى مواهبه حتى ليعد من أخطب رجال ذلك العهد ، لا في الجيش فحسب ، بل بين المواطنين جميعا . . .

وامتاز أحمد عرابي بشيء آخر لعله خير ما امتاز به ، وذلك أنه كان أكثر المصريين في الجيش سخطا على الشراكسة وأشدهم نفورا منهم ، وأعظمهم اعتزازا وشعورا بقوميته ، وهذا لعمرى ما سوف يظل التاريخ يذكره عن هذا الرجل الذى جهله أكثر بنى قومه زمنا طويلا ، وما ستظل الاجيال تزدد منه وثوقا حتى يفدو هذا المصرى الفلاح من أحب زعماء مصر الى قلوب أهل مصر . . .

وما كان اضطغان عرابي على الشراكسة لدافع شخصي ، فهو مصرى قبل كل اعتبار ، وما يلحقه من أذى أو احتقار على أيدي هؤلاء إنما يناله رجلا ويناله مصرى في وقت واحد ، ولم يقف سوء معاملاتهم عنده حتى يقال أنه غضب لما لحقه ، وانما كانت سياسة الشراكسة تعصبا لجنسهم على حساب المصريين ، فكان هذا الضابط المصرى أكثر أقرانه من المصريين نخوة وأعزهم نفسا ، وفضلا عن هذا كله فقد حظى عرابي نفسه في أوائل عهد

توفيق بالرقى إلى مرتبة أميرالاي ، وكان ذلك كفيلا أن يزيل ما عسى أن يكون قد بقى في نفسه مما لحقه من أذى في عهد أسماعيل .

أعد الضباط عريضة بمطالبهم ووقع عليها عرابي وزميلاه ، وذهب ثلاثتهم فرفعوها إلى رياض باشا في منتصف يناير سنة ١٨٨١ وأنهم ليعلمون ما كان ينطوى عليه مثل هذا العمل من جرأة في ذلك الوقت ، وكان عرابي هو الذي يتكلم باسم زميليه وباسم الضباط جميعا ، كما كان سعد يتكلم حينما ذهب مع زميلين له كذلك في مستهل الثورة الثانية إلى مقر المعتمد البريطاني يرفع مطالب مصر عقب الهدنة التي ختمت بها الحرب العالمية الأولى . . .

وكان رياض يكره تقديم العرائض مهما كان من عدالة ما تحتوى من المطالب وكان يلقي في السجن أو يحكم بالنفى على من يخطون مثل هذه الخطوة ، كما حدث للسيد حسن موسى العقاد فقد نفى إلى السودان لأنه انتقد إلغاء قانون المقابلة على الصورة التي جاءت بها لجنة التصفية ، وكما حدث لكثيرين غيره ممن أخرجوا من مصر بسبب آرائهم الحرة .

وقابل رياض الضباط مفتاظا محنقا وخاطبهم في كبرياء وغلظة كما يقول عرابي فقال لهم فيما قال : « ان أمر هذه العريضة مهلك وهو أشد خطرا من عريضة أحمد فنى الذى أرسل إلى السودان » .

وكان هذا الفتى قد نفى كذلك لأنه طلب المساواة في المعاملة بغيره من موظفى الديوان محتجا على ما كان يجرى من صور المحسوبية ، وقد قضى في منفاه نحبه .

يقول عرابي : « فأجبتة بأننا لم نطلب الا حقا وعدلا وليس في طلب الحق من خطر ، وانا لاعتبرك أبا للمصريين

فما هذا التلويح والتخويف ؟ فقال ليس في البلاد من هو أهل لان يكون عضوا في مجلس النواب ، فقلت له : انك مصرى وباقي النظار مصريون والخديو أيضا مصرى ، أتظن أن مصر ولدتكم ثم عقلت ؟ كلا فان فيها العلماء والحكماء والنبهاء ، وعلى فرض أن ليس فيها من يليق لان يكون عضوا في مجلس النواب ، أفلا يمكن انشاء مجلس يستمد من معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية تخرج لنا بعد خمسة أعوام رجالا يخدمون الوطن بضائب فكرهم ، ويعضدون الحكومة في مشروعاتها الوطنية ؟ فانبهر وكأنما كبر لديه ما سمعه منا ، ثم قال : سننظر بدقة في طلباتكم هذه ، فانصرفنا على ذلك .

ويتضمن كلام عرابي هذا أنه طالب بمجلس للنواب ، ولكن بلنت يورد الحادث في كتابه على صورة أخرى قائلا أنه يورده كما علمه من عرابي ، قال عرابي في رواية بلنت ما ترجمته : « ذهبنا بغريضتنا الى وزارة الداخلية وطلبنا أن نقابل رياضاً فأدخلنا حجرة خارجية ودخلنا ننتظر حتى قرأ الوزير العريضة في حجرة داخلية ، ثم ما لبث أن جاء إلينا يقول : ان عريضتكم مهلكة ، ماذا تطلبون ؟ أتطلبون تغيير الوزارة ؟ وماذا تضعون مكانها ، ومن تقترحون ليدبر شئون الحكومة ؟ وأجبتة قائلا : يا سعادة الباشا ، هل مصر امرأة ولدت ثمانية أبناء ثم عقلت ، وقد أردته بهذا والوزراء السبعة تحت أمرته .

وأشتد غضب رياض لمطالبة الثائرين بعزل عثمان رفقى فقد رأى في هذا الطلب نوعا من التمرد الجريء اذ ما دخل الجيش في سياسة الحكومة حتى يطالب بعزل وزير من الوزراء ، وكانت الحكومة لاريب محقة في هذا الغضب ، ولكنها لم تسلك ازاء هذه الحركة ما كانت تقتضيه السياسة الرشيدة ، فكان عليها أن تنظر في



مطالب الجيش فتجيب منها ما يزيل أسباب الشكوى ،  
ثم تقنعهم بعد ذلك بأن ليس من حقهم المطالبة بعزل رفقى  
سكت رياض أسبوعين وهو يحاول اقناع الضباط  
بسحب العريضة ولكنهم يصرون عليها ، وغضب الخديو  
أشد الغضب وأشار عليه بعض المحيطين به بأنباع العنف  
نحو الضباط ، ثم نمت الى رياض أن سكوته قد يفسر  
بأنه ممالة للجيش وعدم موالاة للخديو ، ويقول بلنت في  
كتابه : ان الخديو من ناحيته أراد أن ينتهر هذا الحادث  
لانتقام من رياض فيوقع العداوة والشحناء بينه وبين  
رجال الجيش ، وكان من رأى رياض ألا يجعل من المسألة  
قضية تتجه اليها أذهان الناس ، كما أن رفقى كان  
يخشى أن تظهر المحاكمة سوء سياسته .

ولما فطن رياض الى ما قد يفسر به سكوته وافق على  
محاكمة الضباط ، ووقع الخديو على أمر بمحاكمتهم ،  
ودعى وزيرالجهادية الضباط الثلاثة الى ديوان الجهادية  
بقصر النيل بحجة الاستعداد لحفلات زفاف إحدى  
الاميرات ، فأخذتهم من الدعوة ريبة اذ لم تجر العادة  
بمثل هذا ، وأخذوا للأمر ما يجب من حيلة ، فاتفقوا  
مع فرقهم أن تذهب اليهم اذا تأخرت عودتهم عن ساعتين ،  
ثم ذهبوا الى حيث طلب اليهم ان يحضروا ...

وكان الضباط في الواقع على علم بما دبر لهم ، فلم  
يكن من العسير عليهم في مثل ذلك الموقف أن يدركوا ما  
عسى أن تبيته لهم الحكومة من كيد ، ولقد قيل أن قنصل  
فرنسا كان على اتصال بهم فأخبرهم بما عقدت الحكومة  
النية عليه .

وما كاد ثلاثتهم يدخلون وزارة الجهادية وكان ذلك  
أول فبراير سنة ١٨٨١ حتى ألفوا أنفسهم بين صفوف  
مسلحة من الشراكسة فقبض عليهم وانتزعت منهم

سيوفهم وأودعوا السجن وهم يسمعون عبارات السب  
والشتماتة يقدفهم بها هؤلاء الشراكسة الاجلاف وكانت  
كلمة «فلاح» أكثر ما أطلق به ألسنتهم هؤلاء السفهاء من  
الشراكسة ، وقد ساء وقعها في نفوس الضباط الثلاثة  
وفي نفس كل من علم بها من المصريين . وكان دخولهم  
السجن توطئة لمحاكمتهم فقد انعقد لهم مجلس عسكري  
يحاكمهم برئاسة رفقي نفسه .

وعين رفقي ثلاثة غيرهم على آلياتهم : فأجل محمود  
طاهر محل عرابي ، وخورشيد نعمان محل عبد العال  
حلمي وخورشيد بسمي محل علي فهمي ، وعمل رفقي  
على تنفيذ هذا الامر ساعة صدوره ...



شاع الخبر في الجند الوطنيين فثارت ثائرتهم ، وكان  
أكثرهم جرأة واقداما ووفاء الضابط الباسل محمد عبيد  
بطل التل الكبير فيما بعد ، وكان في آلي علي فهمي  
بقشلاق الحرس بعابدين ، فنادى جنده نداءه العسكري  
فاحتشدوا ، فأمرهم بالسير الى قصر النيل ، فاعترضه  
خورشيد بسمي ذلك الذي حل محل فهمي فلم يستمع  
محمد عبيد اليه ، بل لقد اعتقله في إحدى حجرات  
القشلاق ، وشهد الخديو تأهب الجند للمسير فأرسل  
اليهم الفريق راشد باشا حسنى سير ياوره ليصدهم عن  
سبيلهم فما استمعوا له ، وأرسل توفيق يستدعى  
عبيدا وبعض اخوانه فرفضوا أن يذهبوا اليه ...

وأجكم عبيد الهجوم على قصر النيل ، ولاذ رفقي  
بالهرب من إحدى النوافذ في صورة مخزية وهرب أعضاء  
محكمتهم ، واعتدى الجند على أفلاطون باشا وستون باشا  
وبعض من صادفهم من الضباط الاجانب ، وما زال عبيد  
يبحث عن الضباط الثلاثة هو وجنوده وراحوا يحطمون

الابواب والنوافذ حتى عثروا عليهم ففك عبيد قيودهم وأطلق سراحهم ...

وتحرك آلاى طرة قاصدا قصر النيل ، واستمر رجاله فى سيرهم على الرغم من أنهم علموا أن الضباط الثلاثة قد أخلى سبيلهم ، وعلى الرغم من أن الخديو أرسل لقائدهم خضر أفندى خضر ينهاه عن الحضور ، وتوجه خضر الى عابدين وقد علم أن عرابيا وصاحبيه قد ساروا الى هناك .

ولم يتخلف الا آلاى العباسية وهو آلاى عرابى نفسه ، وقد ندموا بعد ذلك على قعودهم وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، ثم جاءوا عشاء الى عابدين فألقوا معاذيرهم بين يدي عرابى وأكدوا له الولاء .

ويحسن أن نورد هنا ما وصف به عرابى موقفه هو وزميليه بعد أن دخلوا السجن قال : « ولما أقفل علينا باب الغرفة تأوه رفيقى على بك فهمى وقال لا نجاة لنا من الموت وأولادنا صفار ، ثم اشتد جزعه حتى كاد يرمى بنفسه فى النيل من نافذة الغرفة فشجعتة متمثلا بقول الامام الشافعى رضى الله عنه :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى  
ذرعاً وعند الله منها المخرج  
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها  
فرجت وكان يظنها لا تفرج

وتمثل عرابى بأبيات أخرى نسبها الى السيدة زينب رضى الله عنها الى أن قال : « فلا والله ما كانت الا هنيهة حتى جاءت أورطتان من آلاى الحرس الخديوى وأحرق رجالهما بديوان الجهادية وأسرع بعض الضباط والعساكر فأخرجونا من السجن ، ففر ناظر الجهادية ورجال المجلس وغيرهم من المجتمعين وقصدوا جميعا الى

سراى عابدين « ...

وانما نورد هنا ما ذكره عرابى لانه من جهة يصور لنا جانباً من شخصيته وناحية من ثقافته ، ويرينا نزعة اتكاله على الله ، تلك النزعة التى سوف لا تنخلع عنه حتى بعد أن تنخلع عنه عزيمة عند انصراف أنصاره عنه عقب مأساة التل الكبير ، ثم لأن كلامه من جهة أخرى متفق مع ما يقول الرواة فلا ضير أن نورد القصة على لسانه .



ذهب الضباط الثلاثة ومن ورائهم من أخرجوهم من الاسر الى الخديو يسمعون شكاوهم ، وكان بعض أعوان الخديو يشيرون عليه بأخذهم بالشدة ومعاملتهم معاملة الشائرين ولو أدى الامر الى اطلاق النار عليهم وقال البعض انه من العبث أن تلجأ الحكومة الى البطش وليس لديها وسائله ، فالفرق جميعاً تؤيد عرابيا ومن معه . والرأى أن يسلك الخديو معهم جانب اللين فيطفئ بذلك نار الفتنة ، وكان ممن أشاروا بهذا الرأى محمود سامى البارودى الذى سوف يفدو من زعماء العرابيين ...

وتفلبت الحكمة على الطيش ، ووضع اللين فى موضع البطش ، فأوفد الخديو الى الضباط الثلاثة ومن ظاهرهم من الجند تحت نوافذ قصره يخبرهم باجابته مطلبهم الاول فقد عزل رفيقى ، وطلب اليهم أن يختاروا من يحل محله حتى لا يعودوا الى الشكوى فوق اختيارهم على البارودى ، ووعدهم الخديو أن ينظر فى بقية مطالبهم وأن يعمل على انصافهم بعد أن أعادهم الى مناصبهم والتمس الضباط الاذن على الخديو فلما مثلوا بين يديه أعربوا له عن امتنانهم وصادق ولأثم لشخصه وعظيم اخلاصهم لعرشه ، ثم أنصرفوا وأنصرف الجند فرحين مستبشرين .

ولقد كان على الخديو أن يتدبر في الأمر منذ بدايته  
وينظر ما اذا كان لديه قوة يجمع بها الحركة ان كان لأبد  
من وضع العنف موضع العدل ، فان عدم القوة كان أمامه  
ان يلجأ الى اللين غير مكره ولا مغلوب على أمره ، ولكنه  
تصرف على نحو ما رأينا فأفضى به تصرفه الى نتائج  
خطرة وسوف تؤثر أثرها في مجرى الحوادث ، فظفر  
الجند بمطالبهم في عنف . وعجز الحكومة عن مقاومتهم  
وسلوكلها ذلك المسلك الشائن قد وضع الخديو وحكومته  
في موضع الضعف وأحل عرايبا وحزبه محل التوثب  
والتطلع وجعلهم مناط الأمل والرجاء ، هذا الى ما تركه  
هذا الحادث من سخيمة في نفس الخديو يصعب بعدها  
كل تفاهم ، ويسهل أن يلبس فيها كل حق بالباطل ،  
وما بثه من حذر وريبة في نفوس الجند بحيث يرون في  
كل حركة من حركات الحكومة شبح القدر ويلبسان كل  
عمل من أعمالها ثوب الرياء ...

## الفلاح الزعيم

أدى حادث قصر النيل وانتصار عرابي وزميلاه على هذه الصورة التي وصفنا الى ذيوع صيت عرابي على نحو لم يسبق لفلاح قبله في مصر منذ قرون ، فما يذكر تاريخ مصر منذ أن منيت بالفتح والقهر أن قام من بنيتها رجل من أعماق القرى فتمرد على ما يعتقد أنه ظلم يحقق به وببنى جنسه ، كما تمرد واجتراه هذا الفلاح فأبعد من الوزارة شركسيا قوى الشوكة وأملى رغبته على رئيس الحكومة بل وعلى الخديو املاء ونال بفيته غلابا ، ولم يك بالذى يففل عما كان عسيا أن يؤدي اليه صنيعه هذا من هلاك ...

والحق أن هذا العمل يومذاك كان بالغ الجرأة ، فقد كان المصريون يدينون بالطاعة للخديو ويهابون سلطانه وجاهه ، ويرون فيه سيدا وضعه الخليفة حيث كان ليطاع ولتغنوا له الوجوه ، وماكان يتصور أحد أن يذهب الى مقر سلطانه رجل نشأ في قرية ومن ورائه جنود فلاحون مثله فيقولون له : نحن نريد ونحن نطلب ثم يظفرون بما أرادوا وينقلبون لم يمستهم العذاب الاليم وسرعان ما دار اسم ذلك الفلاح الشائر الظافر على كل لسان في القاهرة وسمع بذلك الاسم من لم يسمع به من قبل من الاجانب ومن لم يكن يعرفه من المصريين ...



ولم يقف الامر عند القاهرة ، فقد رن هذا الاسم في القرى وتغلغل في أعماقها فأفاق على رنينه أولئك الاعيان والشيوخ الذين تعودوا منذ القدم أن يخضعوا خضوعا مطلقا للأتراك والشراكسة الذين كانوا ينظرون الى الفلاحين جميعا مهما يكن من ثراء بعضهم نظرتهم الى دوابهم ، والذين كرههم الفلاحون بقدر ما خافوهم ، ولسكنهم لم يجدوا من الاذعان لهم من بد ...

عجب أولئك الفلاحون أن يجرؤ رجل منهم على تحدى الخديو والرؤساء الشراكسة ، فتعلقوا بهذا الرجل ولم يروه ، ورغب الكثيرون منهم في رؤيته ، فقدموا الى القاهرة يحملون اليه الهدايا ويعربون له عن محبتهم اياه واعجابهم بمبادئه التي كان قوامها انصاف الفلاحين في الجيش ، وراح عرابي يخطبهم شاكرا اياهم باثا فيهم روح الحرية والاباء .

وليت شعري ماذا تكون الزعامة اذا لم تكن هذه زعامة ؟ ألسنا نرى الآن في عرابي شخصيتين : شخصية الجندي الذي يسير بمطالب الجنود على رأس الجند ، ثم شخصية الفلاح الزعيم الذي بدأ الفلاحون به يرفعون رؤوسهم وقد خفضوها أجيالا طويلة ؟ الا اني أليس في تلك الصحوة فجر عصر جديد للقومية المصرية ، كان عرابي أول مؤذن به ، أليس ذلك الفجر الذي سوف ينبليج صباحه بعد قليل على صيحة أخرى كانت صدى لهذه الصيحة هتف بها فلاح آخر برز من القرى كما برز عرابي ، وذلك هو سعد ابن مصر العظيم وأحد أبطالها ومفخرة رجالها ...

ولئن كان جمال قد أيقظ الغافين في المدن ، فان عرابيا قد بعث باقدامه أهل القرى من مراقدهم ، فان عمله هذا أوحى اليهم أنه من الممكن أن يخرج من بينهم من

يشمخ بأنفه على أولئك الذين طالما استدلوا في مصر  
الرفاب ...

ولقى عرابى وقد أصبح في رأى الناس حامى الامة  
من المظالم تاييدا من العلماء الذين أعجبوا بجرأته وحميته  
ولم يبلغ عرابى هذه المكانة في نفوس الناس بعلم  
اشتهر به او فلسفة عمل على تمكينها في النفوس ، او  
آراء في الاصلاح والنهوض عمل على اذاعتها في الناس  
كما فعل جمال الدين وكما فعل من بعده تلميذه محمد  
عبده وانما بلغ عرابى ما بلغه من الصيت بحميته وغيrote  
ثم بصلابته عوده وجرأته ، وكانت تلك الخلل هى اخص  
ما يطلب يومذاك ، حيث كان يحيط بالناس البطش  
والتخويف ويقعد بهم الدل والخوف .

وعلى الذين ينكرون اقدار الرجال ان يتدبروا في  
موقف عرابى هذا ، ثم لينظروا بعد ذلك هل كان صنعه  
ضئيلا كما يزعمون ، ولكن لا توجه القول الى هؤلاء  
وامثالهم ممن يكتمون الحق وهم يعلمون ...

وهل ذاع صيت ميرابو واغتدى في قومه زعيما  
بفلسفته وثعافته وهو المفكر الواسع الافق ، أم كان ذلك  
بصيحة منه تحدى بها القوة فملأت أسماع قومه ونفذت  
الى كل قلب في فرنسا يؤمن بالحرية ، يوم كانت فرنسا  
في مفترق الطرق اما الى الحرية ، واما الى العبودية ؟

ولو ان جاندارك كتبت الف كتاب او خطبت الناس  
الف خطبة ، اكان ذلك يساوى لبسها الدرع واعتلاءها  
صهوة جواد وسيرها تقود الرجال مؤمنة اما الى القبر ،  
واما الى النصر ؟

ان الخطوة الاولى في كل حركة تتطلب اقداما وبسالة  
كانت وما تزال هى التى تنقل التاريخ من صفحة الى  
صفحة ، وما يففل عن قيمة الاقدام وخطره وبعد اثره

الا مكابر جحد به واستيقنته نفسه ...  
وما ندعى أن عرابيا قد اتفقت له صفات الزعامة كلها  
أو أكثرها ، ولكننا منه تلقاء صفة لن تقوم بدونها زعامة ،  
تلك هي الشجاعة التي يابى معها الرجل أن يذل ، ويزيد  
في جلال هذه الشجاعة بروزها في وقت كذلك الوقت  
الذي نتحدث عنه ، ذلك الوقت الذي لم يكن يجد فيه  
الشجاع الا قليلا ممن يتاسى بهم أو يسير على نهجهم ،  
والذي ألف فيه الذل حتى نسي الناس أنهم في ذل ،  
والذي لم يكن فيه لذي النخوة عاصم من قانون أو  
دستور أو رأى عام ، أو ما اليها مما يستعصم به الناس  
اليوم من جور الطاغين ومكر المستبدين .



يقول بلنت في كتابه : « كان تاريخ هذه القلائل  
العسكرية في قصر النيل هو أول فبراير سنة ١٨٨١ ،  
وقد حدثت ، وكنت لا أزال في مصر ولكن بعد أن غادرت  
القاهرة ، ولست أتذكر أنى سمعت اسم عرابي يذكر  
قبل حدوثها ، ولكن الدور الذي لعبه في ذلك اليوم قد  
أكسبه شهرة سريعة ، وسرعان ما صار اسمه على كل  
لسان ، اسم رجل نجح في تحدى الحكومة والظهور  
عليها واحداث تغيير في الوزراء ، وأصبح مقامه في بضعة  
أسابيع مقام رجل ذى نفوذ وقوة في مصر أو على الأقل  
أصبح يعزى اليه القوة وصارت تتقاطر عليه كما هي  
العادة في مصر ، الظلامات من أناس عانوا الظلم ويطلبون  
معاونته للوصول الى العدالة ، ولقد أذاع نصيته خارج  
القاهرة ظهوره في ثورته بمظهر الذى يحمى الفلاحين من  
جور الحكام الشراكية ، واتصل به كثيرون من الاعيان  
ومشايع البلاذ ، وكان يرد على كل بما يسعه من رد  
حسن أو بما يدخل في طوقه المحدود من عون ، وكان

يؤثر في الناس تأثيرا حسنا أينما لقوه بحسن محضره  
وبابتسامته الجذابة وفصاحته في الحوار ، ولقد اتفق  
كل الاتفاق لعرايى في مظهره الشخصى من المواهب ما  
يهيئه الى ما ندب له من دور يلعبه في تاريخ مصر ممثلا  
طبقة ، فهو فلاح كادق ما تكون صورة الفلاح ، طويل  
القامة ، ثقل الساقين ، بطيء الحركة الى حد ما ،  
وبهذه الصفات تتمثل لنا فيه قوة البدن الممتلئ التى  
هى من خصائص الفلاح العامل في دلتا النيل ، ولم يكن  
له شيء من خفة الجندي وكان في ملامحه شيء من ذلك  
السكون الذى أكسبه الوقار والذى يلمحه المرء في وجوه  
مشايخ القرى ، وكانت ملامحه مظلمة في حال سكونه ،  
وكانت لعينيه نظرة جامدة كنظرة الحالم ، وليس يفتن  
المرء الا حين يتسم أو يتكلم الى ما بنفسه من ذكاء عظيم  
وعطف ، فعندئذ بشرق وجهه كما يشرق المنظر المظلم  
بنور الشمس . . . ويجب أن نذكر أنه في تاريخ مصر كله  
لم يبرز في مدى ثلاثة قرون على الأقل فلاح بسيط الى  
أن يصبح ذا مكانة سياسية لها خطرها ، أو الى أن  
يصبح داعية اصلاح أو الى أن يهمس بكلمة تدعو حقا  
الى الثورة » .



والحق أن مجرد غضبة مصرى في مثل ذلك الوقت  
لمصريته ودفاعه عن قوميته كان يعد من ضروب الشجاعة  
التي تبلغ ، لما أحاط بها من ملابسات ، حد البطولة ، ولن  
ينكر على عرايى المصرى الفلاح ما في غضبته من معانى  
الزعامة والبطولة الا مفروض أو جاهل ، وهو لم يفضب  
فحسب ولم يعلن غضبه حتى رأى الخوف فنكص وانما  
طالب رئيس الوزراء بما اعتقد أنه الحق غير هيب ولا  
متلثم ، وأخذ يعد العدة بعدها لما عسى أن يدبر له من

كيد ، ولم يرض من الفنيمة بنجاته مما وقع فيه ، وانما ذهب على رأس جنده وحمل الخديو على اجابة مايريده الجيش ، فأبعد من منصبه ذلك الوزير الشركسى الذى كان يبعد المصريين من مناصبهم لا لشيء سوى أنهم مصريون ...

بهذا الذى فعله ذلك الفلاح الثائر حققت له الزعامة على الفلاحين من بنى قومه ولكن الامر لم يقتصر على الفلاحين ، فقد بات يخطب وده رجال الحزب الوطنى كما سنبينه فى موضعه ...



وأصبح بيت عرابى مقصد الكثيرين من الاحرار كما كان موئل رجال الجيش ، ولم يجعل منه الوطنيون اداة لتنفيذ اغراضهم كما زين البقى أو الجهل لبعض المؤرخين ان يقولوا ، فلقد كان مؤمنا بمبدأ الشورى كإيمانهم به كما كان يكره المستبدين من الشراكسة ومن المصريين أكثر مما كان الوطنيون يكرهونهم ، ولقد تجلى من قبل ميله الى كل من يعطف على المصريين فى علاقته بسعيد باشا وشدة ولائه له ...

وهكذا أصبح عرابى الفلاح ملتقى الآمال ، يحرص على الصلة به الوطنيون والجند والفلاحون ، ولقد بلغ من ذبوع صيته ان أصبح توفيق يفار منه حتى ما يستطيع ان يخفى تلك الغيرة .

ومما ذكره بلنت فى هذا الصدد قوله : «وكان توفيق كما رأينا رجلا متقلب الاهواء ، فبينما كان لايزال ينوى ان يعتمد على الجيش للتخلص من رياض ، كانت تساوره نوبات من الحقد على عرابى لما يرى من سرعة ذبوع صيته وكان هذا الصيت جد ملحوظ طيلة اشهر الصيف وقد أدى الى اتصاله بعدد كبير من شيوخ القرى

وأعيانها أولئك الذين كانت دعوة تحرير الفلاح ، تلك الدعوة التى تولى قيادها ، شيئاً تتوق اليه نفوسهم ، واخذ الناس فى الاقاليم يذكرونه بقولهم : « الوحيد » وقد استحق هذه التسمية حقاً فانه كان فى مدى عدة قرون الرجل الوحيد من صميم عنصر الفلاحين الخالص الذى استطاع أن يقاوم بنجاح طفيان رجال الطبقة الحاكمة من الاتراك والشراكسة .



آن لمصر بعد طول المذلة أن تجد الرجل الذى يترجم عن آمالها ويدافع عن حقوقها وينطق باسمها فاتجهت كما اتجه الجيش الى هذا الفلاح الزعيم .

وعندى أن الحركة التى تعد مكملة لثورة عرابى أو بعثاً لها هى ثورة مصر الثانية سنة ١٩١٩ ، وأن الزعيم الذى يلحق جهاده بجهاد أحمد عرابى وتضاف مبادئه الى المبادئ التى دعا اليها أحمد عرابى هو سعد زغلول الفلاح الزعيم الثانى ، ولكن فى صورة غير صورة سابقة ، وفى ظروف غير ظروفه ومجال أوسع من مجاله وان اتفقا فى روح مبادئهما وقومية بواعثهما واغراضهما ، كل من الثورة التى حمل لواءها ...

وما ننسى أن سعدا قد أعطى هذا الزعيم الاول حقه اذ كان يستعرض ذات مرة أطوار الوطنية المصرية فذكر له ما لايمكن أن ينسى له من فضل .



## الوطنيون والعسكريون

بينما مبلغ ما أصيب به الاحرار في آمالهم. منذ أن عزل اسماعيل وعين توفيق ، وراينا ما صدم النفوس من خيبة اذ استكثر توفيق الدستور على مصر، الامر الذي أغضب شريفا فاستقال ، وحل محله رياض ...

لم يكن لرياض مثل ما كان لشريف في قاوب الوطنيين من محبة ، فقد كان على الرغم مما اشتهر به من براعة واستقامة متكبرا محافظا يسيء الظن بالوطنيين وحركااتهم ويوجس خوفا منها ، كما كان في خلقه شيء من الفموض والتحفظ فلم يكن له مثل صراحة شريف ولا مثل شجاعته الادبية واقدامه ونزعتة الدستورية الحرة ...

وقد استطاع رياض أن يجعل من نفسه الحاكم المطلق الفعلي للبلاد ، وذلك بضمانه رضاء توفيق ، بأن جعل له حق رئاسة مجلس الوزراء متى أراد ، وقد حرص في الوقت نفسه على السير في ادارة شئون البلاد وفقا لمبدأ مسئولية الوزارة عن أعمالها ، ذلك المبدأ الذي قرره اسماعيل في أغسطس سنة ١٨٧٨ ، والذي بمقتضاه لا يتنصل وزير من مسئولية عمله برده الى مشيئة الخديو كما كان الحال قبل تقرير هذا المبدأ ...

وكانت تطفئ على الراى العام المصرى روح الاستياء العام ، فكان عهد وزارة رياض كجميع العهود التى تتهيا

فيها الامم للثورات ، فتكون في نفس كل امرئ ثورة  
وان لم تدر على وجه التحديد ما بواعثها .

والحق ان استياء النفوس هو وليد ما بينا من اسباب  
تعصب المصريين وسخطهم اثناء حكم اسماعيل باشا ،  
وجاءت وزارة رياض عقب استقالة شريف من اجل  
تمسكه بالدستور فلم يبق مجال للأمل وخيم اليأس على  
النفوس ، حتى لم يعد هناك بد من متنفس لهذا الشعور  
المكبوت .

ولو أن رياضا فطن الى تلك الحال النفسية الأمكنه  
أن يعمل على تجنب عواقبها ، ولكن رياضا على حد تعبير  
الشيخ محمد عبده كان « لا يخالج فكره ريبة في سكون  
المصريين الى اطاعة كل ما يؤمرون به حملا لهم على  
سوابقهم وسالف عهدهم فكان في غاية الطمأنينة من  
ناحياتهم ولم ير أنه يجب أن ينظر فيما عساه أن يثيرهم  
من جهة المقابلة في تنفيذ السلطة أو من ناحية الساخطين  
عليه من الوطنيين والاجانب » .

أو كما قال عنه انه كان «صادق النية مخلص السريرة  
في خدمة البلاد ، ولكن لايبالي في تأدية ما يراه واجبا  
عليه بما يجرح القلوب ويؤلم النفوس ، ويظن أن من  
الواجب على كل أحد أن يعلم حسن نيته ، وأن لم يبينها  
هو ، وأن يرضى بعمله وأن لم تظهر الغاية الصالحة منه»

وزاد الناس نفورا من العهد كله ، ضعف شخصية  
توفيق في ذاته وما لحق منصب الخديو من مهانة بسبب  
خلع اسماعيل ، فقد ألقى في روع الناس وبخاصة حين  
رفض الدستور قاعدة للحكم أن مثله لايرجى خير على  
يديه وأنه بات صنيعة للأجانب يأتمر بأمرهم من وراء  
ستار بعد ما رآه من عزل أبيه ، وأن رفضه الدستور  
لم يكن الا مشايعة للأجانب في نظرتهم الى المصريين . . .

ولم تكن في مصر طبقة راضية عن وزارة رياض أو عن الحال القائمة يومذاك بوجه عام سواء نسبت الى رياض أم لم تنسب اليه ، فخاصة المصريين ، الذين كانوا يدركون حال بلادهم حق الإدراك ، والذين أثرت فيهم آراء جمال الدين ، كانوا منذ عهد اسماعيل ساخطين على تغفل نفوذ الاجانب في مصر ، وعلى السياسة التي جرت على مصر العسر والدين ، ومن هؤلاء سوف يتكون الحزب الوطنى في عهد رياض كما سنبينه في هذا الفصل وكان اعيان البلاد ينقمون على رياض الفاء دين المقابلة ، ويرون أن هذا اقبح الفبي اذ تلقى وزارة مصرية ديننا اخذ من المصريين ولا تجرؤ على الفاء شىء من اموال الاجانب ، تلك الاموال التي شعر الناس جميعا بمبلغ ما كان فيها من مغالطة وسرقة .

وكان رجال الجيش ينقمون على رفقى تعصبه بجنسه ويشركون رياضاً معه في هذا الاثم بالضرورة لانه اقره ولم يكن يشكو الجند من تعصب رفقى فحسب ، بل كان يؤلمهم سوء ما يعاملون به مما يدل على الرغبة في امتهانهم واذلالهم فكان يكتفى بمجرد التهمة ايفصل الجندى من الخدمة ، أو تنزع منه درجته أو ينفى الى مكان سحيق في السودان ولو لم يثبت شىء عليه ، وكان ذلك خليقاً أن يملأ النفوس بالحفيظة ويدفعها الى الرغبة في الانتقام ، فليس الامر امر ظلم فحسب ، ولكنه بتحيز الحكومة للشراكية الذين يحتقرون المصريين كان ظلماً على ظلم . . .

وزاد السخط في نفوس العسكريين انقاص وزارة رياض عدد الجيش الى اثنى عشر ألفاً الى اقل مما يقضى به فرمان الذى ارسله السلطان الى نوبقى والذى يقضى بجعل الجيش ثمانية عشر ألفاً ، وقد أدى هذا

الى صرف عدد من الضباط والجند الى مواطنهم فأصابهم  
العسر وكانوا من الساخطين ، كل ذلك والشراسة  
لايمسهم شيء بل لا يجدون الا القلب في النعمة والتمتع  
بالرقى .

وكان الناس بوجه عام ، ومنهم الفلاحون ، يشعرون  
ان لا عدالة ولا قانون يحمى المظلومين من تجبر الظالمين ،  
الحكام منهم وذوى الجاه والثراء ، فالكرباج والسخرة  
والنفى الى السودان وامثالها من العقوبات تقع على  
الناس في غير رحمة ، بل في غير حق ، وظل التعذيب  
والسخرة والاذلال امورا شائعة في القرى على ايدى  
المديرين والاغنياء على الرغم من اصدار رياض اوامره  
بالكف عنها ، ولقد كان نهيه عنها مما يحمد له ولكن  
قعوده عن ابطالها كان مما يؤخذ عليه لاريب . ولقد بلغ  
عدد الذين تقدموا الى شريف باشا يلتمسون منه رفع  
الظلم عنهم حين الف وزارته بعد يوم عابدين نيفا  
وتسعمائة كان تقرر ابعادهم الى السودان !

وكان مما يتألم منه الفلاحون اندساس كثيرين من  
المرايين الاجانب بينهم والعمل بكافة الحيل على ايقاعهم  
في الشرك والاستيلاء على اكثر ما يستطيعون الاستيلاء  
عليه من اموالهم .

كانت الحكمة تقضى ان يأخذ رياض الامور بالرفق وله  
يتجنب انبعاث العاصفة ، ولكنه عمل بسياسته على  
ثورانها ، ولعل مرد ذلك الى جهله بحقيقة ماكان يحيط  
به واستبعاده الثورة على المصريين ...

ولعله كذلك خيل اليه انه قادر بالقمع والعنف على  
ان يحكم البلاد ، ولذلك رصد عيونه يتعقب الساخطين  
من الخاصة ، وكان يشتبه في كل حركة ويخاف من اقل  
بادرة ...

وانزل العقاب الشديد بمن يعارض سياسته ، ومن ذلك ما حل بالسيد حسن موسى العقاد ، الذي كان كل ذنبه ان دعا الناس الى التوقيع على مظلمة ترفع لولاية الامر مما وقع على الناس من غبن بالغاء دين المقابلة ، وكان جزاؤه على ذلك النفي الى فازوغلى بالسودان ، ومنه ايضا ما لحق الفريق شاهين باشا كنج الوزير السابق فقد جرد من رتبة والقباه لمجرد اتهامه انه يتصل بالوطنيين الناقمين ...



وتعقب رياض الصحف بالتعطيل الوقتى والانذار والالغاء ، بتهمة اثارة الراى العام ، ومنها جريدتا : «مصر ، والتجارة» ، وقد جاء فى قرار الوزارة بالفائهما قولها : « حيث سبق صدور الانذارات مرارا عديدة وتنبيهات شفهائية من ادارة المطبوعات الى اصحاب الجرائد الاهلية عموما ، والى صاحب امتياز جريدتى « مصر ، والتجارة » خصوصا بعدم خروجهم عن حدود وظائفهم ولا ينشرون ما يوجد تشويش الافكار ، صدر له آخر انذار بانه اذا رجع لمثل ذلك ، فتلقى جريدته بالكلية ، وحيث انه بعد هذا الانذار لم يترك مسلكه الاول لما نشره فى جريدة التجارة نمرة ١٢٣ الصريح فى انه لا يرجع عما هو عليه ، وحيث ما اعتادت على نشره هاتان الجريدتان ضرره أكثر من نفعه ، اقتضى الحال صدور الحكم بالفائهما مؤبدا .

وتناول بطش رياض غير هاتين من الصحف فلم تنج فى عهده صحيفة من التعطيل أو الالغاء أو الانذار ،

ادت هذه السياسة التى جرى عليها رياض ، الى ان ينشط الناقمون فى العمل على مقاومته والتخلص من حكمه ، وكان هؤلاء الناقمون هم قادة الحركة الوطنية

الذين كانوا يجتمعون منذ أواخر عهد اسماعيل أى قبل ذلك بنحو أربعة أعوام فى بيت تقيب الاشراف السيد البكرى ، ونظرا لما بثه رياض من عيون تحصى عليهم حركاتهم فقد تركوا القاهرة وجعلوا اجتماعاتهم سرا فى حلوان ، ومن ثم تألف حزب اطلق عليه اول الامر جمعية حلوان ثم صار يعرف بالحزب الوطنى ... وكان من أشهر رجال هذا الحزب محمد سلطان وسليمان أباطة وحسن الشريعى ومحمد شريف واسماعيل راغب وعمر لطفى ، وقد نشروا فى أواخر سنة ١٨٧٩ أول بيان سياسى لهم وطبعوا منه آلاف النسخ وأذاعوها بين الناس ، ولقد جنق رياض أشد الجنق على ناشرى البيان وبذل جهدا كبيرا ليعرف أسماءهم كى يرسلهم الى السودان ، فلم يهتد الى أحد ...

وأوفد الحزب اديب اسحق الى أوروبا ليدافع عن مبادئ الوطنيين فأنشأ فى باريس جريدة القاهرة ، وكان من أشد الساخطين على رياض لانه عطل له جريدته : « مصر ، والتجارة » ، ثم أن اديبا كان من تلاميذ جمال الدين وكان من المؤمنين بالدستور والمبادئ الحرة ، ولقد حمل حملة شديدة على رياض فى جريدته الجديدة وندد باستبداده وقسوته ونسب اليه الظلم والجهل والحق ، وعاب عليه ما رماه به من الخضوع للأجانب والركون اليهم على حساب أمته ، ولم يدع عيبا يستطيع أن يرميه به الا بالغ فيه وأعاده وكرره ولم يترك غمزة فى خلقه أو فعلة الا أبرزها وراح ينوشه بأوجع الهجاء ، وكان رجال الحزب الوطنى يحصلون سرا على نسخ من هذه الجريدة ويوزعونها فى البلاد ، وكان من بينهم اثنان من المديرين هما : سليمان باشا أباطة مدير الشرقية ، وحسن باشا الشريعى مدير المنيا ...



وكان رجال الحزب الوطنى، يطالبون بالدستور قاعدة للحكم ، ويعملون على منع الاجانب من التدخل فى شئون البلاد لا من ناحية السياسة فحسب ، ولكن من ناحية المال كذلك ، وقد ايقنوا ان الحكم الدستورى الذى يرد فيه كل امر الى الامة هو وحده العلاج الشافى من كل الادواء القائمة ...

ولكن رجال هذا الحزب كانوا لا يزالون فى المرحلة السرية من جهادهم خوفا من بطش رياض ومن ورائه توفيق ، وخوفا من نفوذ الاجانب ودسائسهم ، وحسب المرء ان يذكر ان الحكم كان يومئذ وفق العرف ليدرك مبلغ ما كان يتمتع به رياض من سلطة ومبلغ ما كان يخشاه الوطنيون من نكال ...

وفى نفس ذلك الوقت الذى كان فيه يتشاور الوطنيون فيما يعملون ، كان السخط قد بلغ أشده فى صفوف الجيش ، على رفقى وسياسته ، ومن ثم على رياض ووزارته ، وكان سخط الجند بلا ريب ناحية من ذلك الاستياء العام الذى شمل مصر كلها ، ولذلك فان من ينظر الى الحركة العسكرية يومئذ على انها حركة منفصلة انما يخطئ خطأ كبيرا ، وبخاصة اذا تذكر ان مبعث سخط العسكريين فى جوهره كان تحيز رفقى لبنى جنسه الشراكسة على حساب هؤلاء المصريين الذين كانوا ينعتون بالفلاحين . .

اذن فقد كان عرابى يمثل ناحية من الحركة الوطنية القومية حين ذهب الى رياض يشكو اليه رفقى، وما كان الجند مدفوعين بمصالحهم وحدها وانما كان يفضيهم الجور ويدفعهم الى الشكوى، ولو لم يكن هناك شراكسة يظفرون دونهم بالرقى والنعمة لما كان لحركتهم هذا

الطابع القومى الذى نعجب كيف يمارى فيه الممارون !  
ولن ننسى فى هذا الصدد أن نشير مرة أخرى وقد رأينا  
مبلغ خوف الناس جميعا من سطوة رياض الى ما كان  
فى موقف عرابى من جراءة وشجاعة وعزة لن يجحدها الا  
الظالمون ...



وكان مما يقضى به منطق الحوادث أن يلتقى الوطنيون  
والعسكريون ، فهم أبناء أمة واحدة يجمعهم على كره  
رياض والاستياء من العهد كله ما كان يحقق بهم جميعا  
من المظالم ، وما كانوا يستشعرونه جميعا فى أنفسهم من  
أن مرد ذلك الى الحكم المطلق الذى يسير عليه توفيق  
ووزيره ومن ورائهما تدخل الاجانب .

ولذلك ما كاد عرابى يخطو خطوته حتى حقت له  
الزعامة كما بينا ، فقد اتجهت اليه القلوب ، اذ هزت  
الناس جراته وحميته ، واحس الناس فى دخيلة نفوسهم  
أن الثورة قد هبىء لها الرجل الذى يقودها .

ولئن زين لبعض الناس أن يقولوا انه ماكان ليستطيع  
أن يفعل هذا لو لم يكن يستند الى الجيش فانا نقول لهم  
ولم لم يضطلع بالقضية رجل غيره من رجال الجيش ،  
ولم يكن أعلاهم مرتبة ؟ ولقد كان معه زميلان حين وثب  
وثبته فلم لم تنسب الحركة الا اليه ، ولم لم يجر على  
اللسنة اسم غير اسمه ؟ ومن أدراه أن الجيش لن  
يخذله اذا جد الجدد ؟ وهل قعد به تفكيره فى ذلك وهو  
ما دار بخلده بالضرورة حين أقدم على هذا الامر الخطير  
عن أن يخطو خطوته ؟ وهل كان يغنيه ما أخذه على زملائه  
من الموائيق والايمان اذا خاف الجند جانب الحكومة  
ققعدوا كما قعد آلايه هو عن التحرك من العباسية الا

بعد العشاء ؟ ألا انها الحمية التى تقوم عليها كل زعامة  
من الزعامات ...

وندع للشيخ محمد عبده ان يبين لنا كيف اتجهت  
النفوس الى عرابى ، قال فى مذكراته عن الثورة العرابية  
« شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد فى  
مصر ، وعلم الكثير من الاعيان والعلماء والموظفين باصرار  
الضباط على طلب ماس بالوزارة واحسوا بخلاف بين  
الخدو و رئيس نظاره ، فهب عند ذلك جميع الراغبين  
فى تغيير الحال من علماء واعيان وذوات كرام ومقربين  
من الجناب العالى واتحدت وجهتهم فى الغاية وان اختلفت  
الدواعى والبواعث ، فطلاب مجلس النواب يؤملون فى  
التغيير ان ينالوا تشكيكه ، والمتضجرون من استبداد  
بعض المأمورين ، والخائفون من ان يؤخذوا بالشبه  
يرجون بالتبديل كشفا لكربتهم وامنا على انفسهم ،  
والواجدون على السلطة الاجنبية يرجون شفاء شىء من  
وجدتهم والدوات الكرام الطامعون فى رجوع سلطتهم على  
ابدان الرعية واموالها يطمعون فى ارضاء شرهم ،  
والاجانب الربويون يتطلعون الى انقلاب تزيد به الشدة  
المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية وقنصل  
فرنسا البارون درنج يسعى فى الانتقام من رياض باشا  
ويحب ان يأتى خلف له يمكنه مجاراته فى مطالبه ،  
والجناب الخديو لا يكره ان يتخلى رياض باشا عن رئاسة  
النظار ، بل تلك أمنية من أمانيه .

فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب  
الضباط وتشجيعهم على الالحاح فى الطلب وكل من وصل  
اليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه ان يبعث اليهم من يعبر  
عن أفكاره يؤيد لهم عدالة الطلب ، وموافاته للرغائب  
الوطنية ، وأن ما يأتية ناظر الحربية لا يمكن الصبر عليه

ثم كانت تأتيهم الاخبار بأن الجناب الخديو لا يأبى اجابة طلبهم بل يحب أن يمكن لهم أمنيتهم وانما رياض باشا هو الذى لا يريد ذلك . والله أعلم من أين كانت تأتيهم هذه الاخبار مع أن رياض باشا كان يريد تحقيق الامر حسب ما طلبوا فى تقريرهم كما قدمنا .

راى الوطنيون ما اصاب رجال الجيش من ظفر سريع ، بينما قد لحقهم هم الفشل ، واستطاع توفيق اواستطاع فى واقع الامر رياض أن يأخذعليهم مسالك القول والعمل فسرعان ما اهتمدوا الى الطريق الذى يوصلهم الى اغراضهم فتقربوا من عرابى وتوددوا اليه ، فأخذ شريف يرأسه ويعقد بينه وبينه اواصر المودة ، وحذا حذو شريف زعماء حركة الاصلاح فى الازهر وزعماء النواب مثل سلطان باشا ذلك الذى كان يمثل الاعيان كذلك لانه منهم ، واتضح لهؤلاء أنه يجب عليهم أن يستعينوا بهذه القوة الجديدة لاقضاء رياض عن موضعه ، وبعث الدستور المؤؤود وتحقيق الاصلاح المنشود .

ويقول بلنت عن ذلك فى كتابه : « فضلا عن أن عرابيا قد راى اعيان الفلاحين يسعون اليه ، فانه قد راى المطالبين بالدستور كذلك يجعلون منه حليفا لهم ، وقد كان الكثيرون منهم أعضاء فى الطبقة الحاكمة وكانوا فى قرارة انفسهم يقاومون حرية الفلاح كما يقاومها رياض نفسه . . . وكان شريف رئيس هؤلاء الدستوريين ، وقد ادى به مجرى الحوادث فى الصيف الى أن يجد نفسه ذا صلة وثيقة بعرابى وان لم تكن صلة مباشرة ، وذلك كوسيلة لبعث الدستور الذى هو وسيلته لاستئناف سلطته ، ولما كان عرابى على الدوام ميالا الى مبدأ الدستور منعظا اليه فقد لبي مرحبا بالفكرة ، وزاده اقبالا عليها أن سلطان باشا نفسه أقوى اعيان الفلاحين

يومئذ ، كان من أشد أنصار الدستور وقد اتخذ دور الوسيط في الصلة بينه وبين شريف .

والآن نقول : ان الثورة العرابية في حقيقة أمرها هي التقاء الوطنيين والعسكريين على هذه الصورة التي بيناها ، ولسنا بحاجة بقدر ذلك فيما نعتقد الى كثير ولا الى قليل من القول لنرد على الذين يزعمون ان الثورة العرابية لم تكن الا حركة عسكرية بعثتها دوافع شخصية فأما الذين يزعمون هذا الزعم عن جهل فما نرتاب في أنهم يرجعون عن زعمهم بعد هذا ، وأما الذين ساءت نيتهم فزعموا هذا الزعم مفرضين فما لنا الى اقناعهم وسيلة ...

ان تجريد الثورة العرابية من صفاتها القومية الدستورية هو من صنع كتاب الاحتلال ، ومن ذهب مذهبهم من المخدوعين ومن المبطلين ، وماذا كان يصنع الاحتلال غير هذا ليبرر وجوده ؟ لقد شوه القضية وحصرها في فتنة عسكرية حمقاء هوجاء ، وبذل غاية جهده واستعان بجأهه ليصرف الاذهان عن أى معنى من المعانى السامية في ثورة عرابى الذى القى به وبالإبطال من زملائه في منفى بعيد بدعوى أنهم من العصاة المفسدين فى الارض ، ثم دأب كتاب الاحتلال وصنأته على تضليل أبناء الجيل الذى أعقب الثورة ، وجاراهم فى ذلك من الكتاب المصريين وا أسفاه الجهلاء الذين انخدعوا بما عمل الاحتلال على اقراره فى الاذهان ، والضعفاء الذين راعوا جانب توفيق ثم جانب ابنه من بعده . ذلك الذى ماكان يستطيع أحد أن يجهر بالثناء على عرابى فى عهده ، وملئت كتب المدارس بالأغاليط والباطيل ، حتى ما يذكر الذاكرون اسم عرابى وثورته الا قرنوها بمعانى الطيش والسفه والاحتلال ...

ولكن الحق ان اخفى عن الناس ردحا من الزمن ، لا  
يستطاع اخفاؤه عنهم الى الابد ، والا ما كان حقا ،  
فجوهر الحق في انه لا بد منتصر مهما طال عليه الابد  
ومهما استعدى عليه الباطل من ألوان الخداع والبهتان .

وان مصر اليوم لتعطف على عرابي وثورة عرابي ،  
وقد آن لها ان تنصف هذا المصري الفلاح وان تحدد له  
مكانه بين قواد حركتها القومية ...

وليس بعجيب ان يموه كتاب الاحتلال وصنائعهم وان  
يلبسوا الحق بالباطل ويكتموا الحق وهم يعلمون ، نقول  
ليس ذلك بعجيب ونحن نجد وا اسفاه رجلا من خيرة  
رجالنا ومن مفاخر ابطالنا يكتب عن عرابي صاحبه في  
الجهاد وزميله فيما كان يطمح اليه من آمال ، فينكر عليه  
زعامته ويقدم فيه قدحا كم تألنا لصدوره عنه بالذات ،  
وله في نفوسنا ما له من الاجلال والاكبار ، ذلك هو  
الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ...

وانا اذ نحرك القلم لننقل هنا ما كتبه ذلك الشيخ  
الجليل عن عرابي لنحس بكثير من الخجل والاسف ،  
فما كنا نحب الا ان يتنزه الامام الكبير عما وقع فيه غيره  
وما نريد بنقل ما كتبه الاستاذ الامام عن عرابي وبيان  
ما احاط به من ملايسات ان نسيء الى ذلك الشيخ  
فتوقيرنا اياه واجلالنا له فوق كل شك وانما قصدنا ان  
نبين كيف تبعد احيانا بالمرء على رغبته عوامل وظروف  
عما يجب من انصاف ، ويهمننا بوجه خاص حدوث ذلك  
من الشيخ محمد عبده بالذات ، فقد هان بعده كل اتهام  
يوجه الى عرابي وصغر كل ادعاء من ادعاءات المفرضين ،  
واذا كان الشيخ محمد عبده يكتب عن عرابي هذا الذي  
نورده وهو العليم به بالخبر بأحداث عصره ، وهو فوق



ذلك الامام الزعيم ، فكيف بالظالمين الفاصبين من انصار  
الاحتلال وابواقه ؟

وكأنى بالقارىء يقول فى نفسه : ولم لا يكون حقا ما  
قاله الاستاذ الامام عن عرابى وللقارىء ان يتساءل هذا  
التساؤل ، ولكنه لن يلبث حتى يعلم اليقين . . .

كتب الاستاذ الامام محمد عبده مذكراته عن عرابى  
بطلب من الخديو عباس حلمى ، وهذه دعوى لا تحتاج  
الى دليل فقد جاء فى مقدمتها قوله : « هذا مقام الداكر  
لنعمتك ، العارف بقدر منتك ، العاجز عن الايفاء بحق  
شكرك ، التالى فى سره وجهره لايات حمدك ، طوقتني  
احسانا لم اكن اتأمله ، اذ امرتني امرا ماكنت اتخيله ،  
امرت ان اكتب ما شهدت وما سمعت وما علمت وما  
اعتقدت فى الحوادث العرابية من عهد نشاتها الى نهايتها »  
الى ان يقول : « مولاي : ارفع الى سدتك السنية ما  
وقفت عليه بنفسى غير ناظر فى كتاب ولا راجع الى مقال  
سبقنى به غيرى ، اللهم الا بعض الاوامر الرسمية او  
شئ من المخابرات السياسية التى تضطربى فى بيان  
الواقع الى الاشارة اليها اذ لا غنى للقارىء عن الاطلاع  
عليها » . اذا كان هذا شأن هذه المذكرات فليس مما  
يتوقعه المرء ان يمتدح محمد عبده عرابيا ويظهره على  
حقيقته زعيما وطنيا مجاهدا مطالبيا بالدستور الذى  
انكره توفيق ، فيسئء بذلك الى عباس بن توفيق . . .

ولقد كانت صلة الامام بالخديو اول الامر طيبة فلما  
دب بينهما دبيب الخلاف فيما بعد أمسك الاستاذ عن  
اتمام تاريخ الثورة العرابية ، ولو ان محمدا عبده كتب  
هذا التاريخ بغير طلب الخديو او لو أنه كتبه بعد الخلاف  
بينه وبينه لما ذكر عن عرابى ما ذكره مما سيأتى بيانه ،  
ولقد كان محمد عبده فيما كتبه عن توفيق مترفقا به

كل الترفق يتلمس له المعاذير في كل أمر وفي هذا وحده ما يكفي لبيان ما كان يحيط به من عوامل بعدت به عن الانصاف .

يضاف الى ما تقدم ان الاستاذ الامام ، وان كان من دعاة الشورى والحكم الدستوري كأستاذة جمال الدين الا انه كان يرى أن مصر لم تكن تهيأت يومئذ لهذا الحكم وكان يميل الى حكم رياض ويحسب أنه يجد فيه المستبد العادل الذي ينهض به الشرق ، ولذلك تقم الاستاذ على عرابي ونفرت نفسه من الحركة العسكرية ، نجد الدليل على ذلك في قول الشيخ رشيد رضا تلميذه وكاتب تاريخ حياته : « ان الاستاذ كان مؤيدا لوزارة رياض باشا الأصلحية ويرى أنها صورة حسنة للمستبد العادل الذي يرجى أن ينهض بالامة في مدى خمس عشرة سنة كما بين ذلك في مقالة اجتماعية عامة وجيزة يراها القارئ في الجزء الثاني من هذا التاريخ ، وكان يفضلها على انشاء حكومة نيابية قبل استعداد الامة لها » .

نورد بعد ذلك ما كتبه الاستاذ عن عرابي ، فنقول انه استبعد أن يكون عرابي من طلاب الدستور لذاته فكانه ما طالب بالدستور الا محافظة على نفسه بعدما كان من فعلته التي أدت الى حادث قصر النيل . يقول الاستاذ : « هذه احاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابي تمثلت له جنائته في صور اغوال فاغرة الافواه محددة الانياب ، ولزمه خيالها في يقظته ومنامه ، فهو في فرع دائم يخيل له العزل والموت في كل شيء يراه ، يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى الا سيوفا مسلولة أو حبلا منصوبة ولا يسمع من هواجس نفسه الا صيحة واحدة الخلاص ، الخلاص ، الهرب ، الهرب ، ولم يتمثل في مخيلته مهرب أوفى له من طلب تشكيل مجلس النواب

على الصورة التي قدرها له في نفسه .  
وقال في موضع آخر : « استحثه الحرص على ادراك  
المطلب أن يفضى به . الى ضبط الجيش وأن يثير في أحلامهم  
الضعيفة تماثيل الامانى من العزة والسلطان والصعود  
الى أعلا مراقى الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لا ينال  
الا بمجلس النواب » .

وقال في موضع ثالث : « أما عرابى فلم يكن يخطر  
بباله ولا يهتف به في منامه أن يطلب اصلاح حكومة أو  
تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى  
اليه ، وانما الذى احاط بفكره وملك جميع مقاصده هو  
الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من  
أمرء الشراكية والمنافرة من عثمان باشا » .

هذه آراء أقل ما يقال فيها بعد ما أشرنا اليه من  
ملايسات كتابتها أنه كتبها « غير ناظر في كتاب ولا راجع  
الى مقال سبقه به غيره » كما ذكر في مقدمة مذكراته  
التي كتبها للخديو عباس ، اعنى أنها آراء يعوزها الدليل  
من الحوادث أو الشواهد ، على أننا اذا أخذناها على  
علاتها فماذا نخرج به منها الا أن عرابيا رأى الظلم محيطا  
به فأراد أن يعتصم بالعدل في صورة مجلس نيابى ؟ ولم  
لا تكون مصر كلها ممثلة في شخص عرابى فكانت تحيط  
بها المظالم وتخشى الطغيان ولم يكن لها من عاصم الا حكم  
الدستور ؟ ولقد بينا مبلغ ما كانت تعانيه مصر منذ حكم  
اسماعيل ، واذا دفع الانسان الخوف من الظلم الى  
مقاومة الظلم فهل يكون ذلك دليلا على جبنه ورغبته في  
الهرب أم يكون دليلا على شجاعته وتحديه المخاوف ؟

ان الذى يعينى من هذا الذى ذكره الاستاذ الامام  
هو أن أبين ما لحق عرابيا من الظلم ، حتى من أقرب  
الناس اليه عسى أن يحذر القارىء مما قد يجده من غير

الامام من هذا القبيل وعسى ان يطرح من ذهنه ما قد يكون قد علق به ، وما احسب ان في تاريخ الزعماء من تجمعت عليه المظالم كما تجمعت على عرابي في حياته وبعد موته كذلك لست اذكر حركة جردت من معانيها السامية حتى تركت فارغة شوهاء تنكرها النفوس كهذه الحركة القومية التي بخسها المبتلون حقها هذا البخس الشنيع .

كانت الثورة العرابية ثورة قومية جمعت بين المدنيين والعسكريين من أبناء امة واحدة ايقظتها المظالم واذا كان العسكريون او زعيمهم عرابي قد طالبوا بالدستور خوفا على انفسهم كما يذكر الشيخ محمد عبده ، فلماذا طلبه المدنيون ؟ ان كانوا طلبوه خوفا على انفسهم كذلك من مغبة معارضتهم الخديو ووزيره وكان ذلك معناه عند الشيخ الجبن قانه لا قومية ولا وطنية هناك ، ويكون شأن الوطنيين في هذا ومنهم الشيخ محمد عبده شأن عرابي واعوانه ...

ان الوطنيين والعسكريين قد احاطت بهم المخاوف من كل جانب فطلبوا الدستور وطلبه عرابي فيمن طلبوا وقد استعان به الوطنيون ، ولست افهم لماذا يفرق الشيخ محمد عبده بين الباعث لعرابي على طلبه وبين باعث الوطنيين ؟ لقد كان يجوز ان تعلق بكلامه بعض الوجيهة لو لم يثبت ان الوطنيين اتصلوا بعرابي وطلبوا عونه أى لو ان عرابي وحده قد التجأ الى الاعتصام بطلب الدستور كفكرة طارئة املاها عليه الخوف وليس في البلد حركة دستورية ، أما ان تكون المطالبة بالدستور حركة عامة سابقة لشكوى عرابي وزميليه ويكون هو قدشايعها بوجدانه متضامنا مع زعمائها لايمانه بمبدأ الشورى ولما كان ينصب على الجميع من مظالم بينهاها في

موضعها ، ثم يصور لنا طلبه كما صورہ الامام فذلك ما لا نستطيع أن نحمل عقلنا على قبوله ، ولو أن عرابيا كان من طبعه الخوف والهرب لما أثار تلك الحرب على الشراكسة ولما أقدم على رفع الشكوى الى رياض ولا على تدبير حادث قصر النيل ولا على الذهاب الى عابدين بعد اخراجه من السجن ، أجل ما كان ليفعل شيئا من هذا . جبان خائف فهي أفعال لن ينهض بها الا مفدام ، قال الشيخ محمد عبده فيما علق به سنة ١٩٠٣ على ما كتبه عرابي من تاريخه لبنت حين أطلعه عليه (١) : « كانت الأشهر السبعة بين حادث قصر النيل ومظاهرة ٩ سبتمبر أشهر نشاط سياسى عظيم شمل جميع الطبقات ، وأكسبت عرابيا فعلته كثيرا من ذبوع الصيت ووصلت بينه وبين المدنيين من أعضاء الحزب الوطنى مثل سلطان باشا وسليمان أباطة وحسن الشريعى وشخصى ، وكنا نحن الذين أبرزنا فكرة تجديد المطالبة بالدستور ، وكانت وجهة نظره يومئذ أن ذلك يهيء له ما يعصمه ويعصم زملاءه العسكريين من انتقام الخديو ووزرائه ، وقد أخبرنى بذلك مرارا أثناء الصيف ، وبناء على ذلك أعددنا ملتزمات للمطالبة بالدستور وشفعنا ذلك بحملة فى الصحف ، وقد لقي عرابي سلطانا فى الصيف مرات كثيرة وقد أهتم به سلطان وقد كان عظيم الثراء ، اهتماما شديدا وأرسل اليه كثيرا من الهدايا كالمنتجات الزراعية والخيول وما إليها ، وذلك كى يثير حماسه ، ولكى يظفر بمعاونته فى الحركة الدستورية ولقد دبرت مظاهرة عابدين بالاتفاق مع سلطان » .

وخلاصة ما يستخرج من هذه الفقرة أن الوطنيين

---

(١) The Secret History of The British Occupation of Egypt. P. 490.

والعسكريين اتفقوا على المطالبة بالدستور وأن الوطنيين أرادوا أن يستعينوا بقوة العسكريين ، وأن البساعث للعسكريين كان رغبتهم في ايجاد ما يعصمهم من انتقام الخديو ، وأى عيب فى هذا الباعث ، وهل كان غيره منذ نشأت الحركات الدستورية باعثا للأمم على المطالبة بالحكم الدستورى ؟ ان كل منصف لايسعه الا ان يرى فيما وصف به الشيخ محمد عبده عرابيا من صفات الفرع والخوف والهرب تزيذا لا مبرر له ولا ينهض من الحوادث دليل عليه ، بل ان الحوادث جميعا تنقضه فالامر هين بين ينحصر فى أن عرابيا واخوانه رأوا فى الحكم الدستورى عاصما لهم من الجور كما رأى ذلك الوطنيون ، ومنهم الشيخ محمد عبده ...



التقى الوطنيون والعسكريون فكان من التقائهما واتجاههما وجهة واحدة ، حركة قومية غايتها الدستور والحرية . ولقد نجحت تلك الحركة نجاحا باهرا يدعو الى اكبر الاعجاب وبلغت غايتها دون اقل مكدر يوم عابدين ، ولولا ما كان من موقف توفيق بعد ذلك ومن كانوا يتربصون بالبلاد من الثعالب وبنات آوى لسارت مصر قدما فى طريق الحرية والنهوض ...

وما يشين هذه الحركة مشاركة العسكريين فيها ، فليست فى ذلك بدعا من الحركات ، فما خلت حركة قومية من عنصر الجنود اما متطوعين أو من الجيش القائم ، وهل يعيب حركة استقلال المستعمرات الامريكية مثلا أن وشنطون الجندى كان زعيمها ؟ وهل يشين الثائرين من الاحرار على استبداد الملك شارل الاول فى انجلترا استعانتهم بكرمول وجنوده؟ وهل كان فى انضمام



الجيش في فرنسا الى اكثر الحركات الثورية مما يذهب  
بجلال هذه الثورات ؟ ذلك ما لايقوله منصف ...

حق لمصر أن تفخر بأنها ثارت ثورة قومية حرة في  
القرن التاسع عشر عصر القوميات والثورات وتلك هي  
الثورة العراقية التي مهدت لها عوامل واسباب تجعلها  
اشبه ما تكون بأجل الحركات القومية في أوروبا ...

وسيقنق الاحتلال هذه الحركة القومية ويطفيء  
شعلتها ولكن جمرتها تبقى تحت الرماد الى ان ينفخ  
فيها سعد من روحه فتشتعل وتتوهج حتى ما يستطيع  
مستبد ولا طاغية بعد ذلك ان يخمد نارها أو يطفئ  
نورها ...

## دسائس و مخادع

كانت سياسة توفيق ان كان ثمة له من سياسة عقب  
حادث قصر النيل اهم العوامل في تطور الحوادث على  
النحو الذي سوف نراه ، فلقد اجاب الضباط الى  
مطالبهم وفي نيته ان يفدر بهم متى حانت الفرصة...  
وادرك الضباط لاريب انه اجابهم الى ما طلبوا لانه  
لم يكن له من ذلك بد ، ولذلك احساسوا انه لابد متربص  
بهم فتربصوا هم كذلك به ...

وكان توفيق من ناحية اخرى يكره رياضا ويعمل على  
التخلص منه ، لذلك وضع نفسه في موضع عجيب حقا ،  
فبينما هو يسخط على الضباط ويمقت حركتهم اذا به  
يتخذ منهم كما سنرى أداة للكيد لوزيره بغية اقصائه  
عن منصبه .

وهكذا تشاء الظروف النكدة ان يكون رجل كتوفيق  
هو الذي يحرك دفة الامور في مثل ذلك الزمن العاصف .

لم يكن امام توفيق كما اسلفنا الا ان يتخذ سبيله  
الى قلوب الوطنيين فيجعل من نواب الامة سنداً له كما  
فعل ابوه في اواخر ايامه ...

ولكن توفيقا لم يلجأ الى ذلك الحل ، وما نشك في  
انه كان يفطن اليه ، ولكنه كان يقتضيه ان ينزل عن  
سلطانه الى نواب الامة وهو ما نشك كل الشك في انه

كان يستطيع أن يحمل نفسه عليه ، ومن هنا أحدثت به وبمصر الاخطار ، في وقت نشطت فيه دسائس الاجانب الذين احكموا شباكههم لاقتناص الفريسة الغالية في تلك الايام الكدرة .

وقع حادث قصر النيل في فبراير سنة ١٨٨١ ، وفي أعقاب الحادث مرت على مصر بضعة أشهر ما نظن أنه مر على البلاد فترة مثلها في كثرة ما حيكت فيها من الدسائس على قصر أمدها ...

أمر الخديو فأقيم حفل بعد حادث قصر النيل دعى اليه كبار رجال الجيش ، وخطب الخديو فأعلن عفوهم عما حدث وأنه لا يضمم لأحد سوءا وحث الجند على الطاعة والنظام وأكد لهم أن الحكومة تهتم بأمرهم كل الاهتمام .

وقابل الضباط خطاب الخديو بالابتهاج والشكر ، وهتفوا به معبرين عن ولائهم له معلنين بين يديه أنه لن يرى منهم الا الطاعة والولاء .

ونظر البارودي وزير الجهادية الجديد في مطالب الجيش فأجابهم الى أكثرها وكانت تدور حول زيادة المرتبات واصلاح قانون الترقية وقانون الاجازات والعناية بمأكل الجيش وملبسه ، كما طلب الضباط اعادة أحمد بك عبد الغفار قائم مقام السوارى الى الخدمة وتم لهم ما أرادوا فعاد هذا الضابط الى حيث كان قبل أن يعزله رفقى .

وأقام البارودي حفلا للضباط بعد اصلاح حالهم ، شهدته الوزراء ، وخطب البارودي كما خطب رياض ، وأثنى رياض على الجند وحثهم على النظام وسألهم أن يقابلوا ما لقوا من اصلاح بالطاعة وأداء الواجب ، وخطب عرابى فأثنى على الخديو وأعرب عن ولاء الجيش لسموه

سمع الضباط أول ما سمعوا أن أعوان الخديو يغرون  
بالمال والمناصب بعض رجال الآليات ليكونوا في الوقت  
الموعود الى جانب الخديو ، ونمى اليهم فيما نمى أن  
رياضا يفكر في طرف اجرامية للفتك بهم ومن ذلك ما  
علموه من أنه كان يدبر مشاجرة في أحد الشوارع يندس  
فيها من يقتل عرابيا او من يحضر من زميليه ...

وحدث في آلاى طره وهو الآلاى السودانى الذى كان  
يرأسه عبد العال حلمى ، أن كتب ثمانية من صف  
الضباط السودانين يتصلون من حادث قصر النيل  
ويعلنون ولاءهم للخديو ويبدون اعتذارهم ويتهمون  
رؤسائهم ، وأمر عبد العال باجراء تحقيق ثبت منه أن  
باشجاويشا شركسيا هو الذى حرّضهم على ذلك وأن  
الذى حرّض هذا الباشجاويش هو يوسف كمال باشا  
ناظر دائرة الخديو الذى دفع لكل من هؤلاء الثمانية ،  
جنيهات ثمانية ، وغضب عبد العال واشتكى الى رياض  
ورفع رياض الامر الى الخديو ونصح بعزل يوسف كمال  
باشا تهدئة للخواطر وقتلا للفتنة في مهدها وأجابه الخديو  
الى ما طلب ، وعاقب عبد العال ذلك الشركسى المحرض  
بالحبس ستة اشهر... وكشف عبد العال دسيسه  
أخرى كان يدبرها سودانى فى الاستياداع هو الاميرالاي  
فرج بك الزينى وكان مسكنه على مقربة من مقر آلاى  
طره واثبت التحقيق أنه كان على صلة بيوسف كمال  
باشا ، وقد ضبطه عبد العال بنفسه فى حقل قمح يحرض  
بعض الجند على كتابة المطاعن فى رؤسائهم ، وقد أبعده  
الزينى الى السودان ، ويقول نمرابى فى مذكراته : « ان  
دسيسه فرج بك الزينى كانت أيضا من يوسف كمال  
باشا ، وان الخديو أراد أن يعوضه عما فاتته فى مصر من  
رعايته ، فلما نفى الى السودان ارسل الى رؤوف باشا

حكماء السودان وقتئذ ليحققه بخدمة الحكومة  
السودانية ومنحه رتبة لواء ، فصار يعرف بفرج باشا  
الزيني » .

واتهم تسعة عشر ضابطا أحد رؤسائهم بأمور نسبوها  
إليه أثبت التحقيق بطلانها ، فأبعدتهم الوزارة عن  
مناصبهم ، فبادر الخديو بإعادتهم ، الأمر الذي حنق  
له زعماء الجيش ، إذ رأوا فيه أن الخديو إنما يعضد  
حركة التمرد في صفوف صفار الضباط ويستميلهم إليه  
ضد رؤسائهم .

وكذلك سمع الضباط أن الحكومة تنوى أن ترسل  
الآلای السودانی بقيادة عبد العال بك إلى السودان ،  
بحجة أن القوة الموجودة هناك غير كافية لحفظ النظام ،  
فأحس الضباط من ذلك أن النية متجهة إلى تشتيتهم  
للقضاء عليهم متفرقين . . . .

وترامى اليهم أن الخديو يمرن حرسه في الاسكندرية  
على إطلاق النار ، وأنه يشهد ذلك بنفسه وينشر الذهب  
على الجند متظاهرا بمكافأة المجيدین في أصابة المرمى ،  
ولا يفسر مثل هذا العمل في ظروف كهذه إلا بأنه استعداد  
من جانب الخديو لما كان مقبلا عليه من قمع وبطش . . . .

وارادت الحكومة أن تسخر الجند في حفر الرياح  
التوفيقي ، وكان عليهم أن يسلموا أسلحتهم إلى مخازن  
الجهادية قبل ذهابهم إلى ذلك العمل ، ورفض عرابی  
أن يوافق على ذلك وأيده في رفضه البارودی . . . .

وحدث في الاسكندرية أن دهمت عربة أحد التجار  
وكان سائقها أجنبيا أحد الجنود فنقل إلى المستشفى  
حيث قضى نحبه ، واستشباط تسعة من الجند غضبا ،  
وأملت عليهم سداجتهم أن يحملوا زميلهم القتل إلى  
سرای رأس التين فيقتحموا أبوابها على الرغم من مقاومة

الحرس ويتصايحوا داخل السراى شاكين من الاجانب ، راجين ان يتدخل الخديو بنفسه لمعاينة هذا السائق الاجنبى . وسمع الخديو هذا الصخب فنهر الجند بنفسه وصرفهم من حديقة قصره ، ويدل هذا الحادث فضلا عن سداجة الجند على مبلغ ماكان يتصوره الناس من عظم نفوذ الاجانب ، فما يجرؤ ان ينالهم بالعقاب احد الا الخديو نفسه ، ولهؤلاء الجند بعض العذر فيما تخيلوا وان كان ذلك لا يبرر اقتحامهم القصر على هذه الصورة ...

ولكن العقاب الذى عوقبوا به على فعلتهم كان بالصرامة والقسوة . فقد عوقب الجندى الذى حرضهم على ذلك بالحبس المؤبد مع الاشغال الشاقة ، وعوقب الثمانية الباقون بالحبس فى ليان الخرطوم ثلاث سنوات مع الاشغال الشاقة كذلك ...

ولما ذاع النبأ فى الجيش استاء الضباط والجنود اعظم الاستياء من فداحة الحكم ، وكتب عبد العال تقريرا للبارودى يتظلم منه ويقارن بين هذا الحكم وبين ما عومل به الضباط التسعة عشر المتمردون ، وأظهر البارودى ميلا الى قول عبد العال ، ونمى ذلك الى الخديو فغضب أشد الغضب على البارودى ، وقد كان يكرهه ويظهر السخط منه منذ ان أشار بأخذ الجند بالرفق واجابة ملتمسهم عقب حادث قصر النيل ومنذ ان اختاره الجند وزيرا للجهادية ، فقد داخل توفيقا الشك فيه ، ثم أصبح يعتقد أنه من رؤوس الفتنة وانه هو الذى يثير الجند لأغراض يسعى لتحقيقها ...

واستدعى الخديو وزراءه الى الاسكندرية وصارحهم بأن وجود البارودى فى الوزارة هو سبب ما فى الجيش من فوضى ، ولم يسع البارودى الا الاستقالة وقد كان



الخلاف كذلك شديدا بينه وبين رياض تم ابلغ البارودى  
أن عليه أن يرحل فورا فيقيم بضیعة من ضیاعه كيلا  
يتصل بأحد من الجند أو يتصل به أحد .  
وعین داود یکن باشا صهر الخدیو وزیرا للجهادية ،  
وهو شركسى لا یقل فظاظة وحمقا عن عثمان رفقى ،  
وعزل الخدیو محافظ القاهرة احمد باشا الدرمللى  
لاتهامه بالعطف على الجند وأحل محله عبد القادر  
حلمى باشا . .

ولقد كان البارودى فى الوزارة على صلة برجال الجيش  
فعلا ، وكان ينبئهم بكل ما تريد الحكومة بهم ، وقد اتفق  
معهم أن يكون خروجهم من الوزارة علامة اقتراب الخطر  
وما لبث أن اتبع داود یکن منتهى الصرامة فى معاملة  
رجال الجيش ، فحظر عليهم الاجتماع بالمنازل أو ترك  
مراكزهم ليلا أو نهارا ، أو التحدث فى السياسة ، وألزمهم  
بأشد العقاب أن هم خالفوا أمره ، ومع أن عرابيا وأنصاره  
قد هناؤه بمنصبه وطلبوا اليه أن يعمل على اجابة مطالب  
الجيش التى كان يسعى البارودى فى اجابتها ، فانه  
اكتفى بالوعود ولم يفعل شيئا . . . قال عرابى معلقا  
على أمر وزير الجهادية الجديد : « ولما كانت تلك الاوامر  
مخالفة للقوانين العسكرية ، ومهينة للشرف العسكرى  
فقد ردت اليه من طرف أمراء الآليات » .

ولا یقل رد هذه الاوامر الى الوزير مغزى عن حادث  
قصر النيل ، ان لم یکن أشد منه خطرا فمعنى ذلك ان  
الجند یعصون ما یلقى اليهم من أمر لا یقرونه وفى ذلك  
الثورة أبلغ ما تكون الثورة . . .

وبث حكمدار القاهرة الجديد عیونه وأرصاده على  
الضباط ، وكان داود یکن یطوف بنفسه على مراكزهم  
لیوقع الخوف فى نفوسهم .

وأحيط بيت عرابى وعبد العال بالجواسيس، وجرت  
المشائعات بالنذر فملا القاهرة نبأ عجيب يؤداه أن الخديو  
قد استصدر فتوى سرية من شيخ الاسلام بقتل عرابى،  
وكانت الظروف يومئذ تساعد على تصديق هذا النبأ  
الكاذب اكبر المساعدة .



وطلب مجهول الاذن على عرابى فى منزله فلم يؤذن  
له ، وشوهد أنه عاد عقب ذلك الى أحد مخافر الشرطة،  
وذهب عرابى الى منزل زميله عبد العال فعلم أنه حدث  
هناك مثل ما حدث عنده ، فأيقنا أن حياتهما يتهددهما  
الخطر ، ومما يذكره عرابى فى مذكراته أن أحد الغلمان  
الشراكسة فى منزل عبد العال ، وهو ابن زوج حرمه  
المتوفى قد دس له السم فى اللبن بايعاز غلام آخر شركسى  
من غلمان الخديو ، ولولا أن تنبهت الخادم لذهب عبد  
العال ضحية هذا القدر الاثيم . . .

وكان للخديو فى تلك الظروف مسلك عجيب ، لولا  
أن قام عليه الدليل ما استطاع المرء أن يصدقه ، وذلك  
هو محاولة الاتصال بعرابى وزملائه ليستعين بهم على  
إخراج البارودى من الوزارة ، وكان رسوله الى عرابى  
هو على فهمى ثالث الثلاثة فى حادث قصر النيل ، ولقد  
أظهر له الخديو مودته منذ أن عاد الى آلاى حرسه  
لكى يستعين به اذا لزم الامر فى تحقيق مآربه . . .

أرسل الخديو من الاسكندرية قبل استقالة البارودى  
أو اقالته على الاصح على فهمى بك رئيس الحرس الى  
زميله فى القاهرة ، كما يقول عرابى فى مذكراته ، ليقول  
لهما ان الخديو يرغب فى عزل البارودى لما رأى من ذبذبته  
وسوء سياسته ، وان الخديو يعطف على مطالبهم « فهم  
ثلاثة وهو رابعهم » وان سموه يطلب ألا يعلم أحد بايفاد

على بك اليهم ...

وترجع صصلة الخديو بالضباط الى ما قبل ذلك ،  
فانه كان يريد الاستناد اليهم ليخرج رياضا الذى كان  
يستند الى الاجانب ، وقد ذكر عرابى امر هذه الصلة  
سنة ١٩٠٤ بعد عودته من المنفى لبلنت فى حوار بينهما  
اذ سأل بلنت عن مبدأ صلة الخديو بهم ، فقرر أنها  
بدأت قبل حادث قصر النيل . وقد ظن عرابى يومذاك أن  
على فهمى يتجسس عليه ولم يطمئن الى اخلاصه الا  
حين انضم اليه فى الشكوى الى رياض ، وقد سأل بلنت  
الشيخ محمد عبده عن ذلك فأيده . قال الشيخ محمد  
عبده : « ان ما ذكره عرابى عن رسالة الخديو التى ذكر  
للضباط أنهم ثلاثة وهو رابعهم صحيح وهو يصور أدق  
تصوير الحال بينه وبينهم يومئذ » .

ولا يخفى ما فى مسلك الخديو من خطورة فأقل ما  
يوصف به أنه جعل الضباط يشعرون أن الجو كله جو  
دسائس ومخاوف ، وأنه لا يمكن بأية حال الاطمئنان الى  
موقف الخديو تجاه أحد .



هذه هي الحال فى الأشهر السبعة التى أعقبت حادث  
قصر النيل ، دسائس ومخاوف تحيط برجال الجيش  
وتوقع للانتقام فى كل وقت ...

أما عن الوطنيين فقد أسلفنا القول أن صلتهم بعرابى  
لم تنقطع طول الصيف ، وكان أكثرهم نشاطا فى الاتصال  
به سلطان باشا ، وكذلك كان يعمل شريف على توثيق  
أواصر المودة بينه وبينه ، وأيقن الجميع وطنيون  
وعسكريون أن لا منجاة لمصر من سوء الحال الا بازاحة  
رياض عدو الدستور عن الحكم واجبار توفيق على أن

يسلم بالحكم الدستوري الذي أظهر استعداده لقبوله  
عند توليته ثم ما لبث أن تنكر له ...

ولا سبيل لازاحة رياض واجبار توفيق الا الاستعانة  
بالجيش أو بعبارة أخرى بزعماء الجيش ، وما كان زعماء  
الجيش الا نفر من المصريين يحسون ما يحسه أبناء مصر  
جميعا من مبادئ العهد . يقول عرابي في مذكراته : « ولما  
كثرت دسائس الحكومة وبن ختلها وعزمها على اغتيالنا ،  
أخذنا حذرنا منها وسهرنا على احباط تلك الدسائس  
المنكرة ، وكان السير مالت قنصل انجلترا بمصر كثير  
التردد على الخديو ليلا ونهارا دون غيره من وكلاء الدول  
الإوربية ، فأوجسنا من ذلك خيفة على مصير بلادنا  
وخشينا من مطامع انجلترا التي كانت ترمى الى التهام  
وادي النيل أسوة بما فعلته فرنسا بتونس حتى يتم  
التوازن الذي تدعيه أوربا ، فعرضنا مخاوفنا على جلالة

أمير المؤمنين ليحيط علما بما كان جاريا في مصر ولكيلا  
يتورط في تصديق ما قد يصل اليه من دسائس أعداء  
البلاد ، وذلنا العريضة المذكورة بامضائي وامضاءات  
أخواني على بك فهمي وعبد العال بك حلمي وأحمد بك  
عبد الغفار بالنيابة عن الجيش ، وأحمد بك أبو مصطفى  
وأحمد بك الصباحي وعثمان باشا فوزي وغيرهم من  
وجهاء الأمة بالنيابة عن جميع المصريين » .



ونقل مؤلف كتاب المسألة المصرية عن كتاب بلنت  
العبارة الآتية (١) « ثم ان الأمة بأسرها وبعبارة أدق ان  
طبقاتها المستنيرة الدستورية النزعة قد تبينت فجأة أنها  
ليست من الضعف بحيث ظنت نفسها ، وأن لها في الجيش

---

(١) المسألة المصرية لروستين : تعريب الاستاذين العبادي وبدران .

قلوة كبيرة متجمعة لا يستهان بها ، فاذا ما استطاعت أن تضمه الى جانبها في قضية الاصلاح الدستوري فانه لابد قاض على ماحاق بالامة من شدة وهوان طال عهدهما وسرعان ما أصبح عرابي وأصحابه بجرأتهم وحركتهم الناجحة معقد آمال الامة وموضع اعجابها واستحال في نظر الوطنيين ما كان يقصد به أن يكون مجرد احتجاج عسكري الى فعلة مدنية وطنية وأصبح عرابي رجل مصر المشار اليه بالبنان ولقب بالرجل الوحيد وما هو الا قليل من الزمن حتى توثقت العلاقات بينه وبين أكثر الزعماء السياسيين في ذلك الزمن .

وقال مؤلف ذلك الكتاب أيضا : « كان في وسع كل انسان اذ ذاك ان يخبر بأن الجيش ان سنحت أو عند ما تسنح له فرصة للظهور في ميدان العمل مرة أخرى فان ذلك لن يكون من أجل مصالح أفراده أو وظيفته ، ولكن من أجل مصالح الامة السياسية العامة » .



أعد أحمد عرابي بيانا أرسله الى أعيان البلاد ، يبين فيه أخطاء الحكومة واستبدادها ويدعو الناس الى معاونته لانتشال البلاد مما هي فيه ، وقد جاء في مذكراته وصف استعداداته لهذا العمل قال : « ثم أخذت في نشر افكارى بين علماء الامة وأعيانها وعمد البلاد ومشايخ العربان طالبا منهم مساعدتى في حفظ الامن والراحة العمومية حتى نتفرغ للنظر في مصالح البلاد ونتوفر على انتشالها من وهدة الاضمحلال » . . . الى أن قال : « ونسيلي ذلك اسقاط الوزارة الحاضرة التي لا تريد بالبلاد خيرا ، وتشكيل مجلس نواب يعهد اليه في الوصول بنا الى الحرية المنشودة ، وختمت المنشور بطلب مساعدة أبناء البلاد وتأييدهم ، وبناء على ذلك

وفدت علينا الوفود من جميع أنحاء القطر ، وسلمتنا  
عرائض النيابة عنها ، وفوضت إلينا العمل لما فيه سعادة  
البلاد وخلاصها من براثن رجال الاستبداد معلنة تضامنها  
معنا في كل ما نقوم به من أعمال الإصلاح وما ينتج عنها  
من النتائج .

هذا ما أعده عرابي لو ثبتته الثانية في سبيل حرية وطنه،  
أو هذا ما يعتزمه من اقدام الرجل الذي وصفه خصومه  
فيما وصفوه به بالجبن والخوف والرغبة في الخلاص  
والهرب . . . ألا ليت كل شجاعة تكون كهذا انجبن الذي  
يصفون ، وليت كل شجاع مستطيع أن ينهض لما نهض  
له أحمد عرابي . . .



## يوم عابدين

هذا هو اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١، أعظم يوم في تاريخ القومية المصرية ، ذلك التاريخ الذي افتتح في شهر مايو سنة ١٨٠٥ حين سار السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوي على رأس جمهور المصريين الى منزل محمد علي فالبسوه شارة الحكم دون أن يستأذنوا السلطان ...

وأخلق بهذا اليوم المشهود أن يكون له في نفوس المصريين مثل ما لليوم الرابع عشر من شهر يوليو في نفوس الفرنسيين... وعلى الذين يعنون بتاريخ الحركة القومية في مصر أن يعلموا أبناء هذا الشعب أن اليوم الذي نتحدث عنه هو بدء حياتهم أمة لها كرامة ...

أخذ عرابي للأمر عدته على خير ما يستعد الرجل اليقظ الى عواقب الأمور، فكتب الى وزير الحربية يطلب اليه أن يبلغ الخديو بأن آليات الجيش جميعا ستحضر الى ساحة عابدين في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٩ سبتمبر « لعرض طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وضمن مستقبلها » .

وأرسل عرابي الى قناصل الدول يقطع عليهم سبيل الدس والتقول فأنبأهم أن لاخوف على أحد من الاجانب فانها سوف تكون مظاهرة سلمية تقتصر على احوال البلد الداخلية ...

قال بلنت : « كان للمظاهرة كل ما يرجح أنها كانت سلمية ، فلكى يقلل عرابى من خطر ما قد يكون من سوء الفهم ، كتب الى الخديو ينبئه بما اعتزم هو وزملاؤه من خطة ، ويقولون ان الدليل على أنهم لا يرغبون بها عدا لشخصه أنهم لم يذهبوا اليه في قصره بحى الاسماعيلية وأنهم قصدوا مقره الرسمى في عابدين وتوسلوا اليه أن يلقاهم هناك ليستمع الى شكواهم »

ذعر الخديو وذعر رياض وقد دعاه اليه كما دعا ستون باشا رئيس أركان حرب الجيش وأحمد خيرى باشا رئيس ديوانه ليشاورهم فى الامر .

ورأوا أن يحاولوا اقناع عرابى بالاقلاع عن هذه المظاهرة ، فأوفد الخديو اليه ياوره طه باشا لطفى ، ورفض عرابى أن يعدل عما صمم عليه وأخبره بأنه لا يريد أكثر من « أن يعمل مظاهرة عادلة لأبد منها لضمان حرية الأمة وسعادتها » .

وفى هذا الذى صنع الخديو ومن معه أبلغ دليل على ما وصلوا اليه من ضعف وقلة حيلة .

وكان الخديو فى قصر الاسماعيلية فأرسل يستدعى السير أوكلندكلفن المراقب المالى الانجليزى ، ولما حضر سأله ماذا عسى أن يفعل فى هذا الموقف ؟ قال كلفن يشير الى ذلك : « فنصحت اليه أن يقاوم (١) ؟ فقد أخبرنى رياض باشا أن فى القاهرة فرقتين مواليتين ، لذلك أثرت على الخديو أن يدعوهم الى عابدين مع ما يمكن الاعتماد عليه من الحرس الحربى ، وأن يضع نفسه على رأسهما ، فاذا ما وصل عرابى قبض عليه بشخصه . فأجابنى أن لدى عرابى بك المدفعية والفرسان ، وربما أطلقوا النار

---

(١) يذكر بلنت فى كتابه ان كلفن نصح توفيقا ان يطلق النار على عرابى بيده ..

فأجبت أنهم لن يجرؤوا على ذلك ، ومتى توفرت له  
الشجاعة للمقاومة وعرض نفسه شخصيا ، فإنه يتسنى  
له أن يقضى على المتمردين ، والا فإنه ضائع » (١)

هذا ما أشار به كلفن وما نراه يحمل كما يقول كرومر :  
« قسطا من تلك الروح التى تحيى جنسه الأمبراطورى »  
الا على المعنى الذى نفهمه نحن ، وذلك أنه يلقي الزيت  
والحطب على النار حتى لا تبقى ولا تذر ، وبعدها تقتنص  
الفريسة ، مصر المسكينة ، بدعوى انقاذ البلاد من نار  
الفتنة . وما أظن ذلك القول محتاجا الى دليل ، فهذا  
الذى يدعو اليه كلفن لو وقع لن يكون الا حربا أهلية  
شرها مستطير وهولها خطير ...

نوجه الخديو الى عابدين قبل حضور الفرق بزمان  
ليس بالقصير ، ومعه كلفن ورياض وستون فاستدعى  
على بك فهمى رئيس الحرس ، وأشار عليه بالدخول الى  
القصر بفرقتة والتحصن بالثوافذ العليا وقد نصح للجند  
بقوله : « أنتم أولادى وحرسى الخصوصى فلا تتبعوا  
التعصب الذمى ، ولا تقتدوا بأعمال الآليات الأخرى »

فاطاع الجند وأخذوا يتأهبون ...  
وسار الخديو بعد ذلك الى القلعة يحاول أن يثنى  
آلايها بنفسه عما اعتزم ، ولكنه لم يجد منه شيئا مما  
وجد من حرسه من ولاء ، فسار الى العباسية حيث كان  
آلاى عرابى ، ولكنه علم هناك أن عرابيا سار منذ ساعة  
على رأس جنسده ومعهم المدافع بطريق الحسينية الى  
عابدين فقلل أدراجه اليها ...

وفى عصر ذلك اليوم المشهود التاسع من سبتمبر سنة  
١٨٨١ تحرك الجيش يقصد عابدين ، فخطت الثورة

الوليدة أجراً خطواتها وأبعدها أثراً في تطور حوادث ذلك العهد ...

وتلاقى عرابى في ميدان عابدين بالآليات الأخرى بقيادة أحمد بك عبد الغفار وعبد العال بك حلمى وإبراهيم بك فوزى وفوده أفندى حسن وغيرهم من أنصاره وكان عدد الجند المحتشدين نحو أربعة آلاف ومعهم المدفعية ، وأرسل عرابى يستدعى على بك فهمى من داخل القصر فعاتبه فرد بقوله : «ان السياسة خداع» ثم ذهب فعاد بفرقتة ، وانضم إلى الجيش فأصبح القصر خالياً من كل عناصر المقاومة ، وكان فيما صنع على بك فهمى كثير من الخير لانه الجهة الوحيدة التى كان يخشى منها خطر الحرب الأهلية ...

وتجمع وراء صفوف الجيش آلاف من أهل القاهرة الذين أخذتهم الدهشة لهذا المنظر لاريب ، واشربأت أعناق الشعب التى طالما ألفت الدلة ، وتطلع من فوق أكتاف الجند ، ومن خلال صفوف الفرسان لينظر ماذا يكون فى هذا الموقف الرهيب ، واسم عرابى يجرى على الألسن فى حين تدور الأبصار باحثة عن موضعه وهو على ظهر جواده أمام جنده يتأهب لمقدم الخديو ليسمعه كلمة مصر ، كلمة الشعب الذى البس جده بالامس الكرك والقفطان شارتي الحكم دون رجوع الى السلطان ، وما أعظم كلمة مصر ينطق بها فلاح من أعماق الوادى نبت ونما على ثراه ...

ووصل الخديو الى عابدين بعد أن فشلت سياسة طوافه على الآليات ، تلك السياسة التى تدل فى ذاتها على منتهى الضعف ، والتى لايشفع له فى اتباعها سوى أنها كانت آخر سهم فى جعبته أن كان هذا شفيق . والحق أن الخديو قد لاقى فى ذلك الطواف ما تنخلع منه

أفئدة أقوى من قواده ، وحسبك أن فرقة القلعة ثارت في وجهه حينما أمسك بنفسه بتلابيب قائدها فودة حسن حتى لقد وضع العساكر الاسنة في بنادقهم بأمر من هذا القائد وتجمهروا حول الخديو حتى صاح بالقائد « أفسح لنا الطريق يا بكباشى » .

ودخل الخديو السراى من الباب الخلفى ، باب باريز . ويقول كلفن انه قفز من العربة وأشار على الخديو أن يسير من فوره الى الميدان ففعل توفيق ذلك ، وسار الى حيث اجتمع الجند ، ووراءه ستون باشا وأربعة أو خمسة من الضباط الوطنيين وواحد أو اثنان من الضباط الاوربيين ، ويذكر عرابى أنه كان معه كذلك كوكسن قنصل انجلترا بالاسكندرية والجنرال جولدسميث مراقب الدائرة السنية .

وتقدم الخديو ثابت المخطى ، فأشار عليه كلفن أن يأمر عرابيا بتسليم سيفه متى دنا منه ، وأن يأمره بالانصراف ثم يطوف بعد ذلك على الفرق فيأمرها بمثل هذا الامر .

وسار عرابى على ظهر جواده حتى اذا اقترب من الخديو ، صاح به الخديو قائلا : « انزل » فوثب عرابى من فوق جواده ، ومشى نحو الخديو ومن حوله نحو خمسين ضابطا ، فأدى التحية العسكرية ، وأشار الخديو اشارة ذات معنى الى سيفه فأسرع عرابى باغماده

الموقف رهيب بالغ الرهبة ! ففي هذا الجانب حيث يقف الجند نرى مصر التى ايقظتها المحن والفواجع تتمثل في هذا الجندي الفلاح تجرى على لسانه كلمتها في غير التواء أو تلعثم ، وفي الجانب الآخر صاحب السلطان الموروث تغضبه هذه اليقظة وتذهله ، مع انه رآها منذ بدايتها ، ورأى اباه على جلالة قدره يوسع لها صدره ويخفض لها جناحه فيزداد بذلك رفعة ...

هنا الحرية الوليدة والديموقراطية الجديدة ، وهناك  
الثقاليد العتيقة واللاتوقراطية العنيدة ، ومن وراء ذلك  
الثعالب وبنات آوى تتمسكن لتتمكن ، وتربص لتنفض !  
والتاريخ شاهد يثبت للقومية المصرية موقفا مناروع  
مواقفها ، ومظهرا من اجل مظاهرها ، ويضيف بذلك  
الى صفحات الحرية فى سجل الامم صفحة جديدة لن  
تبقى الايام جدتها ، او تبخس اغراض المبطلين قيمتها .  
همس كلفن فى اذن الخديو : « هذه هى ساعتك »  
فاجاب الخديو : « نحن بين اربع نيران » فقال كلفن :  
« كن شجاعا ، فتهامس الخديو واحد الضباط الوطنيين  
ثم التفت الى كلفن قائلا : « ماذا عسى أن افعل ؟ نحن  
بين اربع نيران ... انهم يقتلوننا » (١) .

ويحسن أن نورد ما حدث بعد ذلك على لسان عرابي  
وهو لا يخرج عن روايات هذا الحادث على كثرتها قال :  
« ثم صاح بمن خلفى من الضباط أن اغمدوا سيوفكم  
وعودوا الى مكانكم . فلم يفعلوا وظلوا وقوا خلفى ودم  
الوطنية يغلى فى امراجل قلوبهم والغضب ملء جوارحهم  
ولما وقفت بين يديه مشيرا بالسلام خاطبني بقوله : « ما  
اسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟ » فأجبتة بقولى :  
« جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والامة كلها  
طلبات عادلة . . . فقال : « وما هى هذه الطلبات ؟ » .  
فقلت : « هى اسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس  
نواب على النسق الاوربى وابلاغ الجيش الى العدد المعين  
فى فرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية  
التي امرتم بوضعها » فقال : « كل هذه الطلبات لا حق  
لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ،

---

Modern Egypt-Cromer. (1)



وما انتم الا عبيد احساناتها » . فقلت : « لقد خلقنا الله احرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعلم اليوم » (١) .

تلفت الخديو بعد ذلك الى كلفن قائلا : « اسمعت ما يقول ؟ » فأشار عليه هذا بالعودة الى القصر اذ لايجمل أن يزيد الامر بينه وبين عرابى عن هذا الحد ، فانصرف الخديو وبقي الجيش فى مكانه لا يتزحزح .

واقبل كوكسن قنصل انجلترا فى الاسكندرية ، وكان ينوب عن القنصل العام السير ادوارد مالت لفيابه ، أقبل هذا ومعه ترجمان يناقش عرابيا فى غلظة مقصودة ، وكان هذا الانجليزى كرجال الاستعمار جميعا من بنى جلدته ممن يحسنون دس انوفهم فى كل شىء ، ومما وجهه الى عرابى قوله : أن لاحق له فى أن يطالب بالمجلس النيابى واسقاط الوزارة فذلك من شأن الامة ، أما عن زيادة الجيش فمالية البلاد لا تساعد على ذلك . . .

وأجاب عرابى بقوله : أن الامة انابت الجيش عنها ، ثم وجه نظر محدثه الى الجموع المتراسة خلف الجند قائلا : هذه هى الامة وما الجيش الا جزء منها ، ويحسن أن نورد عبارته بنصها . قال : « اعلم يا حضرة القنصل ان طلبائى المتعلقة بالاهالى لم اعمد اليها الا لانهم اقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن اخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التى تنفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة ، وانظر الى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر ، فهم الاهالى الذين انابونا عنهم فى طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين اننا لا نتنازل

---

(١) فى رواية عرابى لمستر بلنت ان الخديو قال ايضا « انا خديو البلد وأعمل لى ما انا عاوز » وقد أورد بلنت هذه العبارة كما هى بحروف افرنجية .

عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ » .

قال القنصل : « علمت من كلامك أنك ترغب في تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها » . . . .

قال عرابي : « كيف يكون ذلك؟ ومن ذا الذي يعارضنا في أحوال داخلتنا ؟ فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخراً » . . .

قال القنصل : « وأين هي قوتكم التي ستدافع بها ؟ »

قال عرابي : « عند الاقتضاء يمكن أن نحشد مليوناً من العساكر يدافعون عن بلادهم ويسمعون قولى ويلبون اشارتى » .

وسأل كوكسن عرابيا بعد هذا سؤالاً يتجلى فيه خبثه وقد ظن أنه أحكم الرمية فقال : « وماذا تفعل اذا لم تجب الى ما تطلب ؟ » .

فانظر الى رد هذا الجندى في هذا الموقف الذى تخف في مثله أحلام الرجال ، والذى تزدهى القوة فيه القلوب فتسلب ذوى العقول اتزان عقولهم ، انظر الى عرابي في موقف الثورة يقول له : « أقول كلمة أخرى » فقال القنصل : « وما هي ؟ » قال عرابي « لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط ! ؟ » .

وأخذ كوكسن يروح ويفدو بين عرابي والخديو ، حتى جاءه آخر الأمر ينبئه بقبول الخديو إسقاط الوزارة القائمة وأن سموه سينظر في بقية المطالب فلا بد في بعضها من مشاورة السلطان . وعرض الخديو على الجيش اسم حيدر باشا لرئاسة الوزارة القادمة ولكنهم رفضوه ، وجرى على اللسن اسم شريف بطل الدستور ونصيره ، فعاد كوكسن بعد حين يعلن الى عرابي قبول الخديو تعيين شريف فقبول ذلك بالهتاف بحياة الخديو

والتمس عرابى ونفر من زملائه الاذن على الخديو ،  
فلما مثلوا بين يديه أخذ عرابى يعبر له عن ولائه وولاء  
الجيش . وذكر له الخديو : « أنه وافق على تلك الطلبات  
بنية صافية » ، ثم انصرف الجيش بعد ذلك فى هدوء  
كل فرقة الى مقرها ...



هذا هو يوم عابدين الذى عده خصوم عرابى من اكبر  
سيئاته والذى نعه فى غير مفالة اكبر حسناته ، وكيف  
يستطيع هؤلاء مهما بلغ من اضطغانهم على عرابى ورغبتهم  
فى الاساءة اليه ان ينكروا ما ينطوى عليه هذا الموقف من  
معان ؟ ! الا انهم ليتفافلون ليطعنوا الرجل فى أجمل  
مواقفه وأعظم خطواته ، وهم انما ينالون بذلك من  
انفسهم دون ان ينالوا منه شيئا ...

طالب عرابى بالدستور فكان فى طلبه هذا زعيم ثورة  
تقوم على أجل المبادئ التى شاعت فى أوروبا فى القرن  
التاسع عشر والتى عدها المؤرخون والناس من أعظم  
خطوات البشرية صوب الرقى والكمال ، فكيف يكون مع  
ذلك داعية فوضى واضطراب ؟ ولقد كثرت فى أوروبا  
المواقف التى يشبهها فى معناها ومرماها هذا الموقف  
فسجلتها الشعوب فى ثبت مفاخرها وعدتها من أيامها  
المشهودة التى تمجد كل عام ذكرها .

وتم لعرابى وأنصاره ما أرادوا ، فى غير عنف يشوه  
حركتهم أو ينقص من جلالها كما يحدث فى أشباهها من  
الحركات ...

لقد كان القصر أمام الجيش خلوا من أية قوة ، فروعيت  
حرمته أحسن مراعاة وروعى كذلك مقام الخديو ، فلم  
يخرج أمامه هذا الجندى الشائر عن طوره ، بل لقد  
تمالك نفسه فترجل وأدى التحية العسكرية وأغمد

سيفه ، ثم ذهب بعد ذلك فأعرب له عن ولائه وشكره باسم الأمة اذ أجابها الى ما طلبت على لسانه ...  
الا انا لنعجب بذلك ونفخر به اذ نكتبه ، وما نجد من الادلة التى نسوقها على رجولة عرابى وشهامته وبعده عما يرميه به خصومه اقوى أو أجمل من هذا الذى نشر اليه ...

\*\*\*

فاذا أضفت الى ذلك ما كان يدبر فى خبث من الدسائس فى ذلك الموقف الرهيب ، وذكرت كيف أحبطها عرابى بمزيج من الصبر والبسالة يدعو الى الاعجاب حقاً ، ازددت لاريب اكباراً لموقفه فى ذلك اليوم ، ولقد كانت اية كلمة نابية أو اية اشارة يساء فهمها كقيلة بأن تسيل الدماء فى تلك الساحة ، قال عرابى : « لو حاول الخديو قتلى لاطلقت النار عليه » (١) .

وينبغى الا ننسى ما اتخذته عرابى من الحيطة قبل ذهابه ، وذلك باتصاله بالقناصل وبالخديو ، فقد كان بذلك حكيماً موفقاً ، لا يدع مسلكه محلاً لغميزة أو يهيب سبباً للمامة ...

نجحت حركة عرابى اتم نجاح وأجمله وتهيأت البلاد لان تستقبل عهداً يسود فيه الاصلاح والنظام فلقد كان قبول الخديو مطالب عرابى التى أشرنا اليها ينطوى على معنى عظيم ، الا وهو موافقة حاكم البلاد على التخلص من الحكم الاستبدادى الرجعى ، والعودة الى حكم الحرية الدستورية الذى سبق أن وافق عليه يوم تبوأ عرشه ثم عاد فتنكر له حين اطمأن فى مصر الى كرسيه . وراحت مصر تستقبل فى تاريخها حقبة من أسعد الحقب فلقد نالت أمانها دون أن تراق نقطة دم ، وخرجت سالمة آمنة من ثورة جديرة بأن توضع الى جانب

---

(١) تاريخ عرابى الذى كتبه بقلمه لستر بلنت سنة ١٩٠٣ .

أهم الثورات التى قصد بها الحرية فى تاريخ الانسانية ،  
ثورة جديرة بأن توضع الى جانب ثورة سنة ١٦٨٨ فى  
انجلترا وإلى جانب الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية  
الكبرى ...



ولولا ما كتبه عنها المغرضون المبطلون من الاجانب ،  
وما ضربه الاحتلال على الآذان والقلوب فحال بين  
المصريين وبين تاريخ قوميتهم الحقيقى لكان لتاريخ هذه  
الثورة شأن غير هذا الشأن فى هذا البلد المسكين ...

وصف بلنت تلك الايام السعيدة بقوله (١) : « ان  
ثلاثة الشهور التى أعقبت هذا الحادث لهى من الوجهة  
السياسية أسعد الايام التى شهدتها مصر ، ولقد ساعدنى  
الحظ بمشاهدة ماجرى فيها بعينى رأسى ، فلم أتلق  
معلوماتى عنها بطريق السماع ولو كان ذلك لشككت فى  
حقيقتها . انى لم أر فى حياتى ما يشبه هذه الحوادث  
واخشى الا أرى مثلها فى المستقبل . ان كل الاحزاب  
الوطنية وكل أهالى القاهرة قد اتفقت كلمتهم هنية من  
الزمن على تحقيق هذه الغاية الوطنية الكبرى ، لا فرق  
فى ذلك كما يظهر بين الخديو والامة ، وسرت فى مصر رنة  
فرح لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ قرون ، فكان  
الناس فى شوارع القاهرة حتى الغرباء منهم يستوقف  
بعضهم البعض يتعانقون وهم جدلون مستبشرون بعهد  
الحرية العظيم الذى طلع عليهم على حين غفلة طلوع  
الفجر اثر ليلة مخيفة حالكة الظلام » ...

ولم يقتصر أمر هذه الفرحة الوطنية على القاهرة ،  
وانما حملتها الصحف الى المستنيرين فى الاقاليم تبشر  
الناس بعهد جديد يشرق على البلاد فجره ، تجد ذلك فى

---

(١) العبارة من ترجمة الاستاذين العبادى وبدران .

قول بلنت : « وقد أذاعت الصحف هذه الأنباء في سرعة وقد تحررت من كثير من قيودها تحت رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة تحررا لم تصل الى مثله من قبل ، واستطاع الناس آخر الامر أن يلتقوا ويتحدثوا غير خائفين في كل جهة من جهات الاقاليم لا يخشون من الجواسيس ولا من تدخل الشرطة ، وسرت هذه الروح السعيدة الى كل الطبقات من المسلمين والمسيحيين واليهود وشملت رجالا من كل دين ومن كل جنس ومن هؤلاء عدد غير قليل من الاوربيين الذين اشتدت صلتهم بالحياة المصرية ، حتى القناصل أنفسهم لم يسعهم الا أن يعترفوا أن العهد الجديد كان خيرا من القديم وأن رياضا ارتكب أخطاء وان عرابيا ان لم يكن مصيبا في كل شيء فهو على الاقل لم يكن مخطئا في كل شيء » .



## رجل أمة

اغتنى اسم عرابي على كل لسان في مصر ، فعلى يديه تم الانقلاب المنشود ، واليه نسب كل فضل ، وأصبح الناس في القاهرة وفي القرى يتحدثون في إعجاب عظيم عن الفلاح ابن الفلاح الذي أسمع الخديو كلمة مصر في أباء وعزة وأجبره على أن يجيب الأمة الى ماطلبت . . . ومن السهل على المرء أن يتصور وقع هذه الأنباء في الناس في عصر كذلك العصر فقد تناقل الناس كلمات عرابي للخديو وهم لا يكادون يصدقونها ، ومن السهل كذلك أن يدرك المرء كيف اغتنى بحق عرابي في مصر رجل أمة ، فقد اجتمع فيه رجالها ، وأضحت تتفاخر به لانه من صميم فلاحها ، ولانها باتت تحتوى به وتحس احساسا واضحا أن الرجل الذي كانت تتطلع الى ظهوره كما تتطلع كل أمة في مثل موقفها ، قد تهيأ لها في شخصه آخر الامر . . .

ولقد نبه اسم عرابي وحقت له الزعامة عقب حادث قصر النيل ، فلما كان يوم عابدين ، وثق الناس من بطولته وركنوا الى زعامته ، واستمدوا حميتهم من حميته وباتوا يربطون مصيرهم بما يفعل أو يقول . . . عارض شريف أول الامر في قبول الوزارة ، وكانت حجته في ذلك أنه بقبوله الحكم من غير قيد ولا شرط

انما يضع نفسه تحت سلطة الحزب العسكرى ، الامر الذى لا يطبق أن يحمل نفسه على قبوله ، ولذلك دارت بينه وبين عرابى وزملائه مفاوضات استمرت بضعة أيام تخرجت الامور فيها حتى أوشك شريف أن يتنحى عن قبول الوزارة ...

ولكن بوارق الامل ما لبثت ان لاحت ، وكان جميلا أن تلوح من جانب ذلك الرجل الذى لا يزال نفر من المصريين حتى وقتنا هذا يرمونه بالفوضى ويردون أسباب ما لحق مصر من ويلات اليه ، فيقيمون الدليل بذلك على انفسهم أنهم اما ذوو أغراض أو أولو جهل بحقائق الامور معيب ...

كان جميلا ان يبرق الامل من جانب عرابى فيخفض جناحه لشريف ويدعن لما اشترط من شروط في صدق اخلاص وعن طيب خاطر ...

دعا عرابى رجال الحزب الوطنى وأعضاء مجلس شورى النواب المعطل ، وعرض عليهم الامر ، وكان على رأسهم سلطان باشا ، وذهب وفد من هؤلاء الى شريف يرجون منه قبول الحكم ، فعرفوا أنه يشترط ألا يتدخل الجند فى شىء ، وأن يرحل عرابى وعبد العال بفرقتيهما الى مكانين يختاران لهما ، وأن يترك حرا فى اختيار وزرائه لان عرابيا كان يطلب اليه اعادة البارودى وادخال مصطفى فهمى باشا فى الوزارة ، وكان شريف يرفض ذلك لانهما لم يثبتا على عهدهما فدخلا وزارة رياض عقب اقالة وزارته ...

وتعهد سلطان ووفده أنهم يضمنون لشريف خضوع عرابى والحزب العسكرى وكان بين الوفد نفر من ذوى المنزلة فى البلاد كأبازة والشريعى والمنشاوى والمويلحى والشمسى والوكيل ، وهم أهل نفوذ وجاه يعرف شريف

قيمة انضمامهم اليه ...

نسمع عرابي ما عرضه سلطان ومن معه فذهب بنفسه الى شريف يستحثه على سرعة تأليف الوزارة ويظهر له ما يخشاه من الابطاء ، قال عرابي : « وفي يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ قابلته مرة أخرى وقلت انه لا يمكن ترك البلاد بلا وزارة فأصر على الرفض فقلت له : ان لم تؤلف الوزارة اليوم فسنطلب غيرك ولا تظن أن ليس بالبلاد سواك ففيها بعون الله العلماء والحكماء ولم يكن اختيارك لعدم وجود غيرك لهذا المركز ... فاغرورقت عيناه بالدموع ولم يجر جوابا ، ثم خرجنا من عنده وبعد قليل جاءنا الشيخ بدرأوى عاشور وكيل زراعته وقال ان الباشا قبل ما عرضته عليه » .

وألّف شريف وزارته الثالثة ، وكانت هذه أولى ثمار الثورة ، وقد قبل الوزيرين اللذين أشار بهما عرابي ، كما قبل رجاء الحزب العسكري وهو النظر في القوانين الخاصة بالجيش وذلك في مقابل أن يخضعوا لحكمه ويتعدوا عن كل تدخل في شؤنه .

ودعا وزير الحربية عرابيا ، فأفهمه رغبة الحكومة في أن يسافر بفرقة الى رأس الوادي ، وأن يسافر عبد العال الى دمياط ، فقبل عرابي ذلك ، ولكنه اشترط أن يصدر أمر الخديو بالانتخاب لمجلس شوري النواب قبل السفر ، ولأريب أن هذا الشرط من جانب عرابي خروج منه على ما أخذه على نفسه من عدم التدخل في شئون الحكومة ، وهو أمر لايسعنا إلا أن نحسبه عليه ، بل نلومه عليه مهما كان ما ينطوي عليه طلبه من خير للبلاد ، ومهما كان في هذا الطلب من معاني حرصه على الدستور والحياة النيابية ، وبخاصة لان على رأس الحكومة رجلا مثل شريف ...

أما عن امتثاله لأمر الحكومة بقبول السفر ، فهو في ذاته على الرغم مما أحيط به من اشتراط يعد من محامد عرابي ، اذ يدل على مرونة وكياسة ورغبة في التفاهم شتان بينها وبين ما يعزوه اليه خصومه وجاهلو أمره من حماقة ونزق وعنف في كل ما يطوف بهم من سيرته ، كما انه يقدم بطاعته دليلا على نبل غرضه وحسن طويته فيما سعى اليه ...

وخرج عرابي في اليوم الثامن من شهر أكتوبر بقصد السفر بفرقة الى رأس الوادي ، وذلك بعد مرور أربعة أيام على موافقة الخديو على دعوة مجلس شورى النواب وكان قد سبقه عبد العال في السفر الى دمياط ...

سار عرابي بطريق الحسينية حتى بلغ مسجد الحسين رضوان الله عليه « فوقف الآلاى مقابلا للمسجد تعظيما واجلالا لسبط الرسول عليه الصلاة والسلام » ، ودخل عرابي المقام الحسينى مع الضباط ، « وأمر بirq الآلاى على الضريح الشريف » ...

وسار بعد ذلك الى المحطة فما كاد يتوسط المدينة حتى ألقى الشوارع مكتظة بالناس ، وانهم ليهتفون بأسمه في حماسة ويحيونه تحية الزعيم المنقذ ، ويلقون في طريقه الزهر والرياحين .

وفي المحطة وجد عرابي جميع ضباط الجيش المصرى وجمهورا عظيما من الاعيان وذوى المكانة وعددا هائلا من عامة الناس فاحتفوا بمقدمه ، وكانت توزع الحلوى وتنشر الزهور في فناء المحطة ، وكان يتسابق الخطباء والشعراء في تمجيد ذلك الذى جرى اسمه على كل لسان في مصر ، ووقف عرابي في هذا الجمع خطيبا فقال : « ساداتى واخوانى : بكم ولكم قمنا وطلبنا خرية البلاد وقطعنا غرس الاستبداد ولا ننشئ عن عزمنا حتى تحيا البلاد وأهلها ،

وما قصدنا بشعبنا افسادا ولا تدميرا ولكن لما رأينا أننا  
بتنا في اذلال واستعباد ولا يتمتع في بلادنا الا الغرباء حركتنا  
الفيرة الوطنية والحمية العربية الى حفظ البلاد وتحريرها  
والمطالبة بحقوق الامة ، وقد ساعدتنا العناية الالهية  
ومنحننا مولانا وأميرنا الخديو ما طلبناه من سقوط وزارة  
المستبد علينا السائر بنا في غير طريق الوطنية ، وتمتعنا  
بمجلس الشورى لتنظر الامة في شئوننا وتعرف حقوقها  
كباقي الامم المتقدمة في العالم ، ومن قرا التاريخ يعلم أن  
الدول الاوربية ما نالت الحرية الا بالثورة واراقة الدماء  
وهتك الاعراض وتدمير البلاد ، ونحن اكتسبناها في ساعة  
واحدة من غير أن نريق قطرة دم أو نخيف قلبا ، أونضيع  
حقا أو نخدش شرفا ، وما وصلنا الى هذه الدرجة  
القصوى الا بالاتحاد والتضافر على حفظ شرف البلاد .  
وهتف عرابي بحياة الخديو واهب الحربة وحياة الجيش ،  
وحياة الحرية ، ثم امتدح الوزارة ورئيسها ووصف  
البارودي بقوله : « رئيسنا الوطني الحر القائم بخدمة  
الوطن وأهله » . وحذر اخوانه في الجهادية من الوشاة  
والحساد ، وحثهم على الاتحاد قائلا : « البلاد محتاجة  
الىنا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات والا  
فساعت مبادئنا ووقعنا في شرك الاستبداد بعد التخلص  
منه » .

ولنا الى هذه الفقرة من خطبته عودة كما أن لنا عودة  
الى فقرة غيرها نكتفي الآن بالإشارة اليها وهي قوله :  
« وقد فتحنا باب الحرية في الشرق ليقتردي بنا من يطلبها  
من اخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة  
ويجانب حدوث ما يكدر الراحة »

واختتم خطابه بعبارات ذات مغزى مثل قوله : « ان  
الطمأنينة عادت كما كانت وعدنا الى ما نشأنا عليه مر

طاعة مولانا الخديو وخضوعنا له ولوزرائه الفخام ، فلا  
تأخذكم الأراجيف واشاعات أعداء الوطن وثقوا بسعى  
أميرنا ورجاله « ومثل قوله : « ان قيامنا كان لطلب الحقوق  
لا للعقوق » وقوله : « وبيننا من الأعداء من يسعى في  
تفريق كلمتنا واضرام نار الفتنة بيننا » .



واستقبل عرابي بحفاوة كبيرة في المحطات التي وقف  
بها القطار وكان يخطب الناس مرافقه في الرحلة السيد  
عبد الله نديم كما حدث في الزقازيق حيث كان على رأس  
مستقبله فيها أمين بك الشمسي ووقف عرابي يخطب  
الناس هناك فكان مما قاله : « أنا أخوكم في الوطنية واسمى  
أحمد عرابي ، ولدت في بلدة هرية رزنة من بلاد الشرقية  
هذه فمن عرفني منكم فقد عرفني ومن لم يعرفني عرفته  
بنفسي ، وها أنذا واقف بين الأهل والخلان ، وقد بلغكم  
ما طلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها ،  
وبعناية الله سبحانه منحنا مولانا الخديو هذه الأمنية فنحن  
لم نخرج من العاصمة عصيانا ولا تظاهرا بعدوان ، وإنما  
سرت بالجيش ووقفت بين يدي الخديو وقفة الطالب  
الراجي كرم مولاه ، فلا تعولوا على الأراجيف واشاعات  
أهل الفساد ، واعلموا أن البلاد محتاجة الى الخدمة  
بالقوة والفكر والعمل ، فأما القوة فنحن رجالها ، ولانثنى  
عن عزمنا وفي الجسم نفس ، وأما الفكر فهو منوط بأميرنا  
العظيم ووزرائه الكرام ، وأما العمل فهو منوط بكم فان  
القوة والفكر يعطلان بفقد ثروة تربتنا الطيبة المباركة ،  
وقد طلبنا لكم مجلس الشورى لتكون الأمور منوطة بأهلها ،  
والحقوق محفوظة لذويها » .

وقال عرابي في خطبة أخرى بالزقازيق ألقاها في وليمة  
أعدها له أمين بك الشمسي رئيس تجار الزقازيق :  
« سادتي وأخواني الاعزاء ، أحلى أسماعكم باسم مولانا



وأمرنا الخديو السامى فى عمنار الوطن وقطع عروق  
الاستبداد منه ، وأذكركم بمدة حجبت عنا فيها أنوار  
الحرية واستعبدتنا فيها الظلمة حتى صرنا نتألم ولا يرحمنا  
أحد ، وأصبحت أموالنا وأرزاقنا معرضة للنهب والسلب  
تتخطفها أيدي المستبدين قد تمكنت القسوة من قلوبهم ،  
وألفوا الظلم وكرهوا العدل والانصاف حتى كانت عاقبة  
أمرهم أن أصبح الناس قيد الفقر وذلل الفاقة ، والقطر  
معرضا للأخطار مهيا لامتداد أيدي الطامعين اليه فعز على  
أخوانكم وأولادكم الجهادية حماة البلاد ، وتحركت فينا  
الحمية العربية الوطنية فتعاهدنا على حفظ البلاد ووقاية  
أمرنا من كل سوء ، وسرت بهذا الجيش ووقفت بساحة  
عابدين أمام مولانا الخديو ، حفظه الله ، وقد اشتدت شوكة  
جيش البغى وقويت معارضته . . . وأنقذناكم من يد من  
لم يعرف لكم حرمة ولا يعترف بحق ، ولا يرى أنكم مثله  
من نوع الإنسان ، وشكرنا مولانا وأمرنا الخديو على حسن  
عنايته بنا وبالامة وعلى ما تفضل به من مجلس الشورى ،  
وأنتم الآن مهيشون للانتخاب فلا تميلكم الأهواء والأغراض  
لانتخاب ذوى الغايات ، بل عولوا على الأذكاء والنبيهاء  
الذين يعرفون حقوقكم ويدفعون المظالم عنكم ويفتحون  
باب العدل والانصاف فى بلادنا .



وفى الزقازيق دعى عرابى لوضع أساس المدرسة  
الاميرية فذهب ووضع الحجر الاساسى باسم الخديو قال  
« وتلوت على الحاضرين خطبة ذكرت لهم فيها فوائد  
التعليم ومنافعه وفضل العالم على الجاهل والبصير على  
الاعمى ، وحرضتهم على الاهتمام بأمر تعليم أولادهم  
ليكونوا مستعدين لخدمة بلادهم فى المستقبل » .

وأولت لعرابى عدة ولائم فى دور بعض وجهاء مديرية

الشرقية ، سافر بعدها الى رأس الوادى . وليس يخفى ما  
ينطوى عليه من معان تكريم هذا الفلاح الذى نشأ فى بيت  
متواضع ، على أيدي هؤلاء السادة والكبراء ففى ذلك أول  
مظاهر الديموقراطية الوليدة فى هذا الوادى الذى خضع  
قبل ذلك زمنا طويلا لمظاهر السيادة والارستوقراطية .

## توقيف الثورة

لندع عرابيا في رأس الوادى ولننظر ماذا كان من أمر شريف ووزارة شريف . وهنا نبادر الى القول بأن هذه المرحلة من تاريخ مصر الحديث كانت أهم المراحل جميعا منذ الحملة الفرنسية ، وأدقها وأبعدها أثرا فيما هي مقبلة عليه بعد من مراحل ...

ظن الناس أن قد انجلت الفاشية على نحو ما صور بلنت ولكنهم لم يكونوا يعلمون ، أو لم يكن يعلم إلا القليلون منهم أن وراء هذا الصفو كدرا ، وأن سماء السياسة كانت يومئذ كسماء الطبيعة تصفو هنيهة لتتلبد بعدها بالسحب المركومة ، ولتتلاقى في جوانبها أبابيل سود من الغربان الناعبة فتكون حلكتها بعد الصفو أقبح ما تكون منظرا ، وأشد ما تكون إيلاما للنفوس وازعاجا للخواطر وكيف كان يرجى دوام الصفاء وقد كانت الشباك منصوبة ، وقد أخذ الصائدون يدفعون الفريسة اليها دفعا بعد أن أعياهم الأمر فلم يستطيعوا أن يأخذوها بالحيلة ، أو أن يعصبوا عينيها كما كانوا من قبل يفعلون كيف كان يرجى الصفاء ، وقد كان الخديو يضمم عكس ما يظهر كأن لم يكفه ما أصاب البلاد من جراء سياسته وتنكره للحركة الوطنية وإيجاده بما فعل الثفرة التي كانت تنفذ منها الثعالب وبنات آوى الى صميم حركتها وقلب نهضتها ...

وما أشبه توفيقا في ذلك الموقف بل في أكثر مواقفه  
كما أسلفنا بملك فرنسا لويس السادس عشر ، ذلك  
الملك الذى كان يدفع الثورة في بلاده دفعا ، والذى يعزى  
الى سياسته اللتوية المذبذبة أن تنكبت تلك الثورة  
منهاجها السلمى العاقل واندفعت في سبيل جرت فيها  
الدماء وتجمعت على جانبيها الاشلاء

ظهر ذلك الملك للنواب اول الامر في جلد الاسد ، ثم  
ما لبث أن استخزى بعد وثبة ميرابو ، ولكن الشائعات  
طافت بأهل باريس أن الملك أخذ يستعد ويجمع حوله  
الجند ، فما لبث أن جرت الدماء في باريس ودك الناس  
الباستيل رمز العبودية والجبروت ، ثم رأى أهل باريس  
بين الدهشة من الملك والزداية عليه والتهزؤ به أنه يركب  
في جماعة من النواب كان في مقدماتهم ميرابو فيزور  
باريس ويطوف بأنحاءها ، ويمر بخرائب الباستيل مظهرا  
عطفه على الثورة والثوار ، ولكنه يعود بعد ذلك فيأتى  
من معانى التحدى والنزق ما يجعل الشعب يذهب  
فيقتحم عليه غرف قصره في فرساي ويعود به الى باريس  
ليكون رهينة فيها ، ويتم الدستور فيرفع اليه فيوافق  
عليه . ولكن ريثما يعد العدة للهرب ، تم يضبط المسكين  
وقد أوشك أن يجتاز الحدود فيقضى عليه هذا العمل ،  
وتمضى الثورة في طريقها مجنونة لا تلوى على شيء حتى  
تأكل آخر الامر نفسها .

ولقد كان توفيق يسلك تجاه الثورة العرابية مسلك  
لويس . تجاه الثورة الفرنسية مع فارق واحد وهو أن  
الخديو ، كان من ورائه الانجليز فلما لجأ اليهم توفيق  
كما هرب لويس لم يقض هذا العمل عليه وانما قضى  
على مصر . . . .

تخلص توفيق من رياض وقد كان يسعى الى التخلص

منه . فكيف كان يريد أن يسلك مع شريف مسنكه مع رياض ولقد كان الفرق بين الرجلين هو الفرق بين الديمقراطية والاستبداد ؟

عادت الظروف من جديد تبين للخديو بأجلى وضوح أن الطريق الوحيد هو الانضمام الى الحركة الوطنية ومشايعتها في صدق واخلاص ، ففي ذلك منجاة من تطرف هذه الحركة وجموحها ، وفي ذلك منجاة البلاد من تدخل الاجانب باسم المحافظة على عرش الخديو ، ثم من احتلال البلاد باسم القضاء على الفتن والقلاقل . . . ولكن الخديو تنكب هذا الطريق فدفع تيار الثورة بمسلكه هذا ليعج عجاجه ، وليس في نفسه الآن الا أن يتخلص من هذه الحركة الوطنية التي وضعت السلطة موضعها الطبيعي في يد الامة . . .

ومن أعجب الامور ، بل من أقبح المظالم أنه لما انتهت الثورة الى ما انتهت اليه فيما بعد من عنف وجموح حمل زعماءها كل اوزارها وخرج عرابي المسكين بالنصيب الاوفى من هذه الاوزار ، وهي لو عرضت على حقيقتها وردت فيها الامور الى اصولها لرد ما يعزى الى عرابي أو أكثره الى الخديو دون أن يكون في ذلك أقل تجن على هذا ولا أدنى تحيز لذلك . . .

لقد ألقى الخديو بنفسه في أحضان الانجليز منذ استعان بكلفن يوم عابدين ومنذ أن جعل كوكسن رسوله الى عرابي وهو على رأس جنده أمام القصر ، فلقد ظهر هذان بمظهر من يعطف على توفيق ومن يستنكر على عرابي ما فعل ، وقر في نفس توفيق أنهما ولياه وأن بنى مصر أعداؤه . . .

منذ ذلك الحين صار الانجليز في ظاهر الامر أسناد الخديو وفي حقيقته ثعالب تحتال على اصطياد الفريسة

وسيظل هذا شأن توفيق حتى يدخل عاصمة مصر بعد هزيمة الجيش المصري ، في حراسة الانجليز وحمائهم ، فيصطف عساكرهم من المحطة الى قصره وتحيط بعربته كتيبة منهم وتستقبله على ابواب القصر كتيبة بالنشيد الملكي البريطاني . . . بل اننا نستطيع أن نقول ان ركون توفيق الى الانجليز يرجع الى يوم خلع أبيه ، فقد رأى أباه يخلع بنفوذ هؤلاء الانجليز لدى السلطان ، فأثر أن يركن الى الاقوياء عليهم يرضون عنه ! ونكرر القول ان منجائه ومنجاة مصر كانت في ركونه الى الحركة الوطنية ولكن كيف كان يركن الى من ينتزعون منه السلطة ليردوها الى الامة صاحبها الحقيقية ولا يركن الى من يتظاهرون لديه أنهم يظاهرونه ليزيدوا سلطانه ويقضوا على مناوئيه !

سار شريف على نهج حكيم فأرضى الاجانب او عمل على ارضائهم بقبوله المراقبة الثنائية ، وأرضى الوطنيين بتحقيق الآمال الوطنية ، ولكنه ما لبث أن رأى هؤلاء الاجانب لا يدعون وسيلة لضم الخديو اليهم الا اتباعوها ، حتى لقد ترك شريف بعد أمد قصير يعمل وحده ، وكأنما وضع الخديو نفسه بنفسه في عزلة . . .

ولو أنها كانت عزلة عن الوطنيين دون اتصال الاجانب وبخاصة الانجليز لهان أمرها ، ولكن توفيقا سوف يخلق أول الأمر بعزلته ريبة ومخاوف في قلوب المصريين ، ثم تنقلب الحال الى كراهة وتؤدي الكراهة الى المقاومة من جديد ، ولقد كان أمام توفيق في الواقع هيئتان : الوطنيون بزعامة شريف ، والعسكريون بزعامة عرابي ، وكان يستطيع بشيء من حسن السياسة ألا يدع مجالا لتدخل العسكريين من جديد ، ولقد رأى بنفسه ما كان من أمر هذا التدخل بالأمس القريب . . .



افتتح مجلس شورى النواب فى اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ ، وقد جاء فى خطاب توفيق فى حفلة الافتتاح ما يأتى : « أبدى لحضرات النواب مسروريتى من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالى فى الامور العائدة عليهم بالنفع ، وفى علم الجميع انى من وقتما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تأخر الآن بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة ، فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما يسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الأهالى على قدر الامكان ، فلم يبق مانع من المبادرة الى ما أنا متشوق لحصوله ، وهو مجلس النواب الذى أنا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم » .



هذا هو كلام الخديو فهل كانت هذه نياته ؟ تلك هى المسألة . . . ونرى أن خير ما نجيب به هو أن ننظر فى الحوادث التى تلت ذلك ومنها يستبين الى أى حد كان الخديو ينوى أن يعمل كما يقول .

دأب الذين كانوا يعملون من وراء ستار ، أو دأبت الثعالب وبنات آوى على تخويف الخديو من ناحيتين : ناحية الحركة الوطنية ، وناحية تركيا ، موحين اليه فى الاولى أن حكم الدستور معناه ضياع سلطة الخديو ، وفى الثانية أن تركيا لا ترتاح الى توفيق وأنها تبنت له ما لا يحب ، وغرض هؤلاء الذين يعملون فى الظلام واضح ، وهو أن يركن الخديو اليهم ليخلص من هذا كله .

أما عن حكم الدستور فكان ذلك يقتضى حقا أن يتنازل الخديو عن جانب كبير من السلطان المطلق الى نواب الأمة ، وتلك هى المشكلة ، وما كانت مشكلة مصر وحدها ،

بل لقد كان لها مثيلات في جميع ما شهد العالم من حركات دستورية ، فما نجم الخلاف بين الملكية والشعب في فرنسا ابان ثورتها الكبرى الا من هذه الناحية ، وما استمرت القلاقل قرونا بين الملكية والشعب في انجلترا الا بسبب ذلك ، وما استقرت الامور في الدولتين الا حينما اثبت الشعبان قوتهما .

واذن فكان لابد ان يتفاقم الخلاف بين الشعب والخديو في مصر حتى يثبت الشعب قوته او يتنازل الخديو عن مبدأ الحكم المطلق ، ومن هذا الخلاف اتاحت الفرصة للشعالب ...



واما عن تركيا فقد كان توفيق يستريب ويخاف من سياستها ... فكر السلطان أولا ان يرسل جيشا احتلال الى مصر ليعيد فيها نفوذ الخلافة سيرته الاولى قبل عهد محمد علي ، ولكن انجلترا وفرنسا ما زالتا به حتى استطاعتا بالسياسة حينما وبالتهديد بعد ذلك حينما حتى اقلع عن هذه الفكرة ، ولقد افادت من ذلك فائدتين : بقاء الوضع في مصر على ما هو عليه بحيث يسمح لهما بالتدخل في شئونهما ، والتأثير على الخديو ، انهما هما الملاذ والسند ...

ولقد كان الامير عبد الحليم بن محمد علي في الاستانة يدس الدسائس ويسعى سعيا متصلا لخلع توفيق وتولي حكم مصر بدلا منه ، وكانت سيرة ذلك النشاط نزعج توفيقا وتقلق مضجعه ...

واخيرا اوفد السلطان وفدا الى مصر برئاسة علي نظامي باشا وقد فعل السلطان ذلك دون علم الدول الاوربية ولم تعلم بذلك الحكومة المصرية الا عند قيام الوفد ...

وكان عرابى قد كتب الى السلطان قبل يوم عابدين ،  
ولعل السلطان أوجس خيفة من الحركة القائمة في مصر  
وظن انها حركة تنطوى فيما تنطوى عليه على فكرة  
انفصالية ترمى الى خلع سيادة الاتراك ...

وكان عبد الحميد يومئذ يقاوم الحرية في بلاده ويبطش  
بالداعين اليها ، ومكث الوفد أياما بمصر ، ثم رحل فقرر  
عند السلطان نياية عن الخديو أن البلاد هادئة ليس فيها  
ما يخيف ، وجاء على لسان رئيس الوفد أن رجال  
العسكرية والزعماء جميعا يؤكدون ولاءهم للسلطان ،  
وانه لذلك يثنى عليهم ولا يخالجه شك في حركتهم ...



وقامت انجلترا وفرنسا بمظاهرة بحرية في مياه  
الاسكندرية اذ احضرت كل منهما بارجة الى الميناء ،  
فلما سألتها الحكومة المصرية عن سبب ذلك أجابتا ان  
سفينتيهما تغادرا الاسكندرية في اليوم الذى يسافر  
فيه الوفد العثماني عائدا الى الاستانة ، وقد تم ذلك فعلا  
حينما غادر الوفد البلاد ، ومعنى ذلك ان الدولتين لن  
تسمحا للسلطان حتى بمجرد النظر في احوال مصر ،  
ومعنى ذلك ايضا ان يلقيا في روع الخديو أن يلجأ اليهما  
اذا لزم الحال حتى ضد السلطان نفسه ...

ورب قائل يقول : ان في مسلك تركيا ودسائس عبد  
الحليم ما يدع للخديو العذر في الاعتماد على الدولتين ،  
ولكن هذا زعم باطل ، فرجال مصر جميعا وان لم يكونوا  
في تلك الايام يفكرون في الخروج على السلطان ، الا أنهم  
كانوا لا يسمحون له أن يتعدى الفرمانات المقررة ، وهب  
أن للخديو العذر في أن يخاف جانب السلطان فهل كانت  
الدولتان تحميانه الا لفرض ؟ وهل كان هذا الغرض الا  
رغبة كل منهما أن تحل محل السلطان ؟

ان الحوادث جميعا كانت تشير للخديو الى الطريق  
الوحيد الذى كان عليه أن يسلكه ، ولكنه اختار الانحياز  
الى انجلترا منذ حادث عابدين كما أسلفنا القول مع  
تظاهره بأنه يعطف على أمانى البلاد ، وفى ذلك الخطر  
كل الخطر وفيه مسئولية الخديو عن اتجاه الحوادث  
بعد ذلك الى تلك السبيل التى أفضت بالبلاد الى كارثة  
الاحتلال ، ومع هذا فان بعض المصريين كانوا الى عهد  
قريب ولعل منهم من لا يزال حتى اليوم يقرن الاحتلال  
باسم عرابى كلما ذكر هذا الاسم ، فاذا قلت لهم : ان  
عرابيا هو الذى جرد سيفه وقاد جيشا من المصريين  
ليصد الاحتلال ، وبذل من الجهود وحمل من الاعباء ما  
لا يبذل أو يحمل مثله الا أولو العزم من الرجال ، وأنه  
لولا ما أحاط به من خيانة لم يحط مثلها بقائد قبله لكان  
النصر حليفه لا محالة ، حملوا كلامك هذا على المبالغة  
وصعب عليهم أن يصدقوه وقد أضلهم كتاب الاحتلال  
وصنائع الاحتلال ...

## بيت عراج ديلنت

نعود الى عرابي ، فنقول ان الحكومة استدعته من مقره في رأس الوادي وأسندت اليه منصب وكيل وزارة الحربية وصدر الامر العالي بذلك في اليوم الرابع من شهر يناير سنة ١٨٨٢ وهو يعزو ذلك الى ما بلغ الحكومة على السنة جواسيسها أنه يجول في بلاد مديرية الشرقية فيتصل بالوجهاء وشيوخ العرب محرضا داعيا الى مبادئه وأغراضه ...

ويذكر عرابي انه فوتح في أن ينعم عليه يومئذ برتبة اللواء فيصبح أحمد عرابي باشا ، ولكنه رفضها مخافة أن يتهم أنه يعمل لشخصه ، ولئن صح هذا وهو ما لا نستبعده ، لكان لنا فيه حسنة نضيفها الى كبريات حسنات هذا الرجل ، فان التهافت على الرتب والالقاب لم يزل حتى اليوم في بلادنا المسكينة داء عياء يتغلغل في نفوس ساداتنا وكبرائنا ...

ونقول لئن صح ذلك لان الخبر من جانب عرابي فهو في مرتبة الدغوى ... ونقول انا لا نستبعده مستندينا في ذلك الى شاهد قوى فهذا الرجل كان بطل الانقلاب ، وعلى يده وصلت الى ما وصلت اليه ، ولكنه لم يصب مفعما ما ، ولو كانت في نفسه أطماع وقتئذ لرايناها يصل الى مرتبة الوزير ، فقد كان في موقف تحكم فيه في

الخديو وفرض عليه الشخص الذى يؤلف الوزارة وهو موقف يوحى الى النفس بالغرور، فلو خالج نفس عرابى يومئذ طمع فى جاه أو منصب لما وقف دونه الى ما يستغنى حائل ...

واقام عرابى بالقاهرة فى منصبه الجديد ، وكانت داره تمتلئ كل يوم بالناس من كل نمط : الوطنيين ، والاوربيين ، ورجال الصحافة من الاجانب والمصريين ، ورجال السياسة الذين كانوا يسألونه عن مرمى حركته ، وعما يطمح اليه ، ويستكتبونه البيانات عن آماله ، فازدادت شخصيته بذلك خطرا وذاع فى الاوربيين صيته ، وكانت زعامته تزداد رسوخا فى قلوب مواطنيه حتى لقبوا بيته باسم « بيت الامة » (١) وبات يقصده كل متظلم يطلب معونته حتى فى آتفه الامور ...

وكان ممن اتصلوا بعرابى يومئذ مستر بلنت فتعارفا ، وجرى بينهما حديث اتبته كل منهما فى مذكراته وفيه اشار عرابى الى ارتياحه لتخلص مصر من مساوىء حكم اسماعيل ومن دسائس الشراكسة ، ولكنه ابدى مخاوفه من سياسة انجلترا وفرنسا نحو مصر ، وعبر فى كياسة عن امله فى أن تعطف انجلترا على حركة الحرية فى مصر وهى الدولة التى تعلن دائما أنها نصيرة الحرية والديمقراطية وذكر عرابى أنه يتوقع العطف من انجلترا أكثر مما يتوقعه من فرنسا ولا سيما من جانب جلادستون الذى اشتهر بعطفه على الحرية فى كل مكان ...

وليت شعرى ماذا يطلب الذين يرمون عرابيا بالطمع والجهل والنزق أكثر من هذه البراهين التى نسوقها

---

(١) كان فى مكان عمارة تجسده وزارة الاوقاف ، وكان الفضلاء حوله متسعين من كل ناحية بحيث يطل من الشرق على قصر عابدين ومن الغرب على قصر النيل



على انه كان بريثا من هذا كله ؟ ألم يأن لهؤلاء أن يقرءوا سيرة هذا الرجل في غير تحامل عليه حتى يعرفوا لهذا المصرى المجاهد قدره وأثره في نهضتهم القومية ؟ وهل يوجد في المعايير القومية عيب أشد قبحا من جهل قوم برجالهم في الوقت الذى يرون فيه غيرهم من الأمم يمجّدون ذكرى الرجال فيوحون الى الاجيال القادمة معانى البطولة بما يقدمون لهم من الامثلة ؟..

لقد أعجب بلنت بعرايى ووقعت عباراته من نفسه موقعا حسنا ، قال بلنت يصف كيف تعرف الى عرايى وكيف كان وقع لقائه في نفسه « كان عرايى يومذاك في قمة صيته ، يتحدث عنه الناس في طول مصر وعرضها بقولهم « الوحيد » اعنى انه الرجل الوحيد ، وكان القوم من جميع انحاء القاهرة يتزاحمون على داره حيث يدعون ظلاماتهم بين يديه ، وكانت حجرته الخارجية تمتلئ كل يوم بالمتوسلين وكذلك كان مدخل داره من الشارع ...

وكان قد سمع عنى انى ممن يعطفون على قضية عنصر الفلاحين وانى من اصدقائهم ، ولقينى بكل ما في وسعه من حفاوة ، وبخاصة ، كما قال لى : لما نمت الى علمه من صلة أسرتى ببيرون ذلك الذى كانت له في نفسه مكانة عالية وان لم يعرف شيئا عن شعره ، لما كان من عمله من اجل حرية اليونان ... وهذا امر جدير بالملاحظة لما فيه من دلالة خاصة على منحى عرايى بالنسبة للانسانية كلها بغير تفرقة من جنس أو عقيدة . فلم يكن فيه شيء من التعصب اذا كان التعصب معناه الكراهية الدينية ، وكان على اهبة ابدان لان يتعاون من اجل قضية الحرية مع اليهود والنصارى او مع الكفرة على الرغم من تقواه التى لا التواء فيها بأية حال ...

ولقد كلمته طويلا وفي غير تحفظ ودار الحديث حول المسائل التى كانت تشغل الازهان يومئذ ، ووجدته يصارحنى كما أصارحه ويتكلم فى سر ، وقد عبر عن ولائه التام للخديو طالما انه يحافظ على وعوده ولا تظهر أية محاولة من جانبه ليسلب المصريين حريتهم الموعودة ، ولكن كان من الامور البينة انه كان لا يثق فيه كل الثقة ، وعد من واجبه أن يراقبه فى حذر مخافة أن يتنكب الطريق ...

وفى كتاب أرسلته الى جلادستون بعد ذلك بقليل أى فى ٢٠ ديسمبر بعد أن تمت مقابلات ومناقشات أخرى بينى وبين عرابى ، قلت عن عرابى : ان الآراء التى يفصح عنها ليست تكرارا للعبارات المتداولة فى أوربا الحديثة ، ولكنها تقوم على أساس من معرفته بالتاريخ والتقاليد الحرة للفكر العربى تلك التقاليد الموروثة من عهد حرية الاسلام وهو ينكر كما أعتقد كل مطمع شخصى ، وليس هناك شك فى اخلاص الجيش والامة له ... وقد تحدث عن مكانه فى تواضع قائلا : انى أمثل الجيش لان الظروف جعلت الجيش يثق بى ، ولكن الجيش نفسه ان هو الا ممثل الشعب وحامييه حتى يأتى الوقت الذى لا يحتاج فيه اليه ، ونحن فى الوقت الحاضر القوة القومية الوحيدة التى تقوم بين مصر وبين حكامها الاتراك ، الذين لا يتورعون فى أبة لحظة اذا أخلى سبيلهم أن يجددوا مساوىء عهد أسماعيل .

وتحول المراقبة الاوربية دون ذلك ولكن فى صورة جزئية فحسب ، ولا تتخذ شيئا من الحيطة بتعليم الشعب حكم نفسه ارتقابا لليوم الذى تتخلى فيه عن مهمتها المالية ، وهذا أمر علينا أن ننظر فيه ، لقد كسبنا للشعب حق التكلم فى مجلس يضم الاعيان وانا لنعمل على

الا يطردوا أو يخوفوا فيخرجوا منه ، وانا في هذا لانعمل  
لانفسنا بل لاعقابنا وللذين وضعوا ثقتهم فينا... ونحن  
الجند الآن في وضع كالذى كان فيه اولئك الغرب الذين  
اجابوا الخليفة عمر حين سألهم في شيخوخته عما اذا  
كانوا راضين عن حكمه وعما اذا كان فيه قد استقام على  
طريق العدالة ، قالوا : يا ابن الخطاب انك استقمت على  
الطريق حقا ولهذا احببناك ، ولكنك لست تعلم اننا كنا  
قريبين منك وكنا على أهبة لو انك سالكت سبيلا معوجة  
لشردك الى الطريق السوى بسيوفنا... وانى على ثقة  
من انه لن تكون بنا حاجة الى العنف ، فنحن معشر  
المصريين لا نحب الدماء ونأمل الا نسفك شيئا منها ومتى  
تعلم برلماننا الكلام فسينتهى واجبنا ، ولكننا نعتزم الى ان  
نصل الى ذلك الوقت ان ندافع عن حقوق الشعب مهما  
كلفنا ذلك من ثمن ولن نخاف بمعونة الله ان نشبت اهليتنا  
لرعاية تلك الحقوق اذا لزم الامر ضد كل من يعمل على  
اسكاتها ...

وقد اثر في تأثيرا جد عميق هذا النمط من الكلام  
الذى يختلف كثيرا عما يستعمله السياسيون الشرقيون  
في احاديثهم مع الاوربيين ، وقد كشفت لى عن فارق  
عقلى كبير بين عرابى وبين زعيم آخر من زعماء الحرية  
قابلته في دمشق وحادثته وهو مدحت باشا ، فلم يكن  
في حديث عرابى شيء من ذلك اللغو حول السكك الحديدية  
والترع والترام كمشروعات للاصلاح يعمر بها الشرق ،  
ولكن كان فيه كلمات تنفذ الى اعماق الاشياء ، وتحدد  
تبعة الحكومة الصالحة بحيث تلقى على الكواهل التى  
تستطيع وحدها ان تحملها ، واحسست ان مثل هذه  
الكلمات خليقة بأن يصفى اليها في مجلس العموم اذا قدر  
لها ان تسمع هناك ...

وأما عن السلطان وعلاقة مصر بتركيا ، فقد كان كلام عرابي كذلك مبينا ، لقد أخبرني أنه لا يجب الاتراك الذين أساءوا حكم مصر عدة قرون ، ولا يجب أن يسمع عن تدخل من القسطنطينية في شئون مصر الداخلية ، ولكنه يجعل فرقا بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية للسلطان ، وذلك أنه كأمر للمؤمنين تحت طائفة والاحلال له اذا عدل ، وكذلك يوحى اليه عمل فرنسا في تونس بعد أن انتزعتها من الامبراطورية واستولت عليها ، ضرورة المحافظة على الصلة برأس العالم الاسلامي ، قال عرابي : نحن جميعا أبناء السلطان ونعيش معا كما تعيش أسرة في بيت ، ولكن كما هو الحال في الاسر لكل منا نحن اهالي الاقطار الاسلامية ، حجرة مستقلة يترك لنا امر تنظيمها حسب ارادتنا ولا يسمح حتى للسلطان نفسه بالتدخل في ذلك ولقد اكتسبت مصر هذا الوضع بمقتضى ما منحته الفرمانات ، وسنحرص على أن نحفظ به ، ونحن اذا طالبنا بأكثر من ذلك فانا نركب متن الشطط وربما فقدنا حريتنا فقدانا تاما ...

وسألته في شيء من الثقل عما اذا كان ذا صلة شخصية بالقسطنطينية كما تؤكد الاشاعات ، ولاحظت عليه شيئا من التحفظ في الاجابة ، فمما لاشك فيه ان حديثه مع احمد راتب ذلك الحديث الذي لم يكن لي به علم وقتذاك ، كان يجول بخاطرهم وسبب هذا التردد ولكنه لم يشر اليه ...

واخيرا تكلمنا عن علاقة مصر بالمراقبة الثنائية ، مراقبة انجلترا وفرنسا ، فأقر عرابي ما تم من خير في عهدهما كتحرير البلاد من اسماعيل ، وتنظيم الشئون المالية ، ولكنهما بجدر بهما ألا بقفا في سبيل الحركة القومية بتعصيدهما سلطة الخديو المطلقة ومن حوله من

الباشوات الشراكسة ، وقال انه ينظر الى انجلترا اكثر مما ينظر الى فرنسا لنصرة الحرية الوليدة في مصر ، وبخاصة جلادستون الذي هو من انصار الحرية ، وشكا من مالت وتصرفاته ، وعملت على ان ادخل الطمأنينة عليه من هذه الناحية بقدر ما استطعت ، ثم افترقنا

وقد اثر في نفسي اثرا حسنا هذا اللقاء الاول مع هذا القائم مقام الفلاح ، حتى لقد ذهبت من فوري الى صديقي الشيخ محمد عبده لأعبر له عن تأثري ، واقترحت عليه ان يكتب برنامج الحركة الوطنية بالمعنى الذي ذكره عرابي كي ارسله الى جلادستون ، فاني اعتقد ان برنامجا كهذا لو ابلغ اليه من جهة يثق فيها جدير بأن يحدث في نفسه اثرا طيبا لصالحهم ، وحدثت مالت كذلك بهذا الاقتراح فذكر انه يعتقد انه يحدث ذلك الاثر الطيب ، وعلى ذلك وضعت بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده وبعض زعماء الوطنيين ، وكان بعاوننا صابونجي ، برنامجا يتضمن آراء الحزب الوطني ، وعرضنا ذلك على البارودي فأقره ، وعرضناه كذلك على عرابي ، وبعد ان تم ذلك ارسلته الى جلادستون قائلا انه وضع على علم من مالت وباقرار منه لما جاء فيه وشرحت له الموقف كله ورجوت منه ان يعطف على حرنة هي قريبة من المبادئ التي يعتنقها .

هذا هو كلام بلنت عن عرابي نقلناه عن كتابه ، فماذا يرى فيه خصوم عرابي ممن جهلوا حقيقة أمره ، ومن المتقولين عليه ؟

ايبقون على اصرارهم فلا يرون فيه الا جاهلا غرا لا دراية له بالسياسة وشؤونها ؟ الا يزال ينكر هؤلاء انه كان مؤمنا برسالة يطمع ان يؤديها الى بني وطنه ، رسالة الحرية والكرامة القومية ؟

حسب المرء أن يذكر مبلغ ذلك العصر من العلم ومن اليقظة القومية ، ومبلغ ما كان فيه من الرجال اذا قورن بالعصر الذى نحن فيه ، ليرى كيف بلغ عرابى بحميته واخلاصه وصادق حبه لوطنه مبلغا من الزعامة خليقا بأن يسلكه فى عداد الافذاذ من رجالنا فى تاريخنا كله

وان الذى يخطو الخطوة الاولى فى كل ما يتطلب جراحة ليعظم فضله ويعلو اسمه على كل من يخلفه حتى ولو كان فى هؤلاء الخلف من هو اكثر جراحة وأجل اثرا وأعظم خطرا وأكبر عقلا ، وذلك لان الفضل للبادىء . ولن يوجد فى الخلف من يكون أعظم فضلا ولا أخلد مجدا .

وان الرجل الذى يقتدى بمن سبقه من الابطال من بنى قومه ، أو الذى يلقى معانى البطولة فى نفسه كثرة الابطال من حوله ايحمد على بطولته ، فكيف بمن ينشأ على غير سابقة وينهض مدفوعا بما فى فطرته من معانى الاباء والانفة كهذا الفلاح الذى كبر عليه اول الامر ان يستدله ويستدل اخوانه المصريين رفقى وأصحاب رفقى فما تعاظمه ان يعمل على عزل رفقى وما زال به حتى عزله ، والذى تفتحت نفسه للدستور فوضع يده فى ايدى الوطنيين وما استبعد الشقة أو قعد به ملل حتى ظفر لوطنه بالدستور وأبعد رياضا وأحل محله شريفا ، والذى يحرص بعد ذلك على القومية المصرية ويخشى أن يعصف بها كيد الكائدين فيتربص كما يتربصون ، ويتأهب كما يتأهبون ...

لقد أعجب بشخصه وبآماله بلنت وحق له أن يعجب به ، ولقد قارن بينه وبين مدحت باشا فرجحت كفته على كفة مدحت ، وذهب من فوره يعلن للشيخ محمد عبده مبلغ تأثيره بهذا الجندى الفلاح أو فى الواقع بهذا الزعيم المصرى الذى أنجبته مصر ...



## التعاليب وبنات آدك

قدر على شريف أن يلقى عننا شديدا من مسلك الخديو من أول الامر... وأخذت وزارته تشق طريقها في حذر شديد بين تلك الصعاب القائمة ، وكان أعظمها دسائس الأجانب وتوثبهم في ذلك الوقت ، ولقد هال هؤلاء الأجانب انبعاث الروح الوطنية اذ رأوا فيها بوادر القضاء على ما كانوا يمنون به أنفسهم في مصر...

وسارت سفينة الحكم بين هذه التيارات المختلفة ، تنكر الخديو القضية الدستور ، ونشاط المدافعين عن هذه القضية ، وتربص الدولتين بالحركة جميعا...

كان طبيعيا أن تفيق البلاد على صيحة عرابي ، وأن تنطلق النفوس من عقالها ، فلقد أتيح للناس قدر من الحرية وهم إليها عطاش تتحرق نفوسهم ، فبدأ الوطنيون يعبرون عما احتبس في صدورهم منذ عزل اسماعيل ، وعادت الصحف تعبر عن مساوئ التدخل الاوربي ، وتندد بأساليب الدخلاء في مصر ، أولئك الذين سلبوها أقواتها بالحيلة ، وحالوا بينها وبين أمانيتها زمننا بالارهاب والبطش ، والذين كان يحتل الكثيرون منهم المناصب المصرية الخطيرة ويؤجرون عن أعمالهم فيها ان كان ثمة اهم فيها من أعمال أجورا غالية من خزانة مصر الفقيرة...

وأخذت جريدة « الطيف » وكان يصدرها عبد الله نديم تقاوم البهرج الزائف الذى أخذ يلتمع فى مصر ، فيخطف سرا به أبصار الجاهلين ، والذى سماه الاوربيون مدينة ليكون لهم منه سلاح من طراز خاص يضيفونه الى أسلحة الدس والكيد التى سلطوها على البلاد ، وحمل الكرام الكاتبون على المراقص وحانات الخمر ودور المجون ومواخير الدعارة وغيرها من مباءات الفسوق التى كان يذيعها فى مصر أولئك الذين جعلوا من مبررات تدخلهم فى شئون البلاد رغبتهم فى هداية أهلها الى المدنية !..

وأخذ صيت عرابى يطفى على صيت جميع الرجال من حوله حتى البارودى وشريف وكان لهما الحكم والجاه ، والحق أن القلوب قد تعلقت بعرابى تعلقا يستحيل معه أن يعتزل السياسة أو تعتزله السياسة ، بعد أن خطا فى تاريخ قومه تلك الخطوة الجريئة التى كان النجاح حليفها ...

أخذنا على عرابى أنه حينما طلب اليه أن يخرج من القاهرة بفرقة اشترط أن يكون ذلك بعد صدور أمر الخديو بدعوة مجلس شورى النواب ، فهل تأخذ عليه أنه تدخل فى الأساس الذى يجتمع عليه المجلس ؟ فقد كان يرى شريف أن يكون ذلك وفق لائحة سنة ١٨٦٦ ، أى أول لائحة للمجلس وقد وضعت فى السنة التى انشئ فيها ، على أن يضع بالتعاون مع مجلس الوزراء لائحة جديدة تجعل منه مجلسا نيابيا يلائم حال البلاد ، وبعد معارضة شديدة وافق عرابى على ذلك ...

وتدخل عرابى فى مسألة أخرى وهى الميزانية المخصصة لابلاغ الجيش ثمانية عشر ألفا من الجند ، ولقد أبدت المراقبة المالية عدم موافقتها على المبلغ اللازم كله ، وبعد

خذ ورد وافق عرابي على ما تيسر دفعه من هذا المبلغ  
على أن يوفر الباقي من وجود أخرى

لقد قطع عرابي على نفسه عهدا كما أسلفنا ألا يتدخل  
في شئون الحكومة القائمة ، وعلى هذا الأساس قبل  
شريف رئاسة الوزارة ، لذلك نرى أن تدخل عرابي في  
الأمور التي ذكرناها يوجب ملامته ، ولن يشفع له أنه  
كان يطلب الخير ، وأن يخفف من اللوم عليه أنه رضى  
آخر الأمر ولم يسبب للحكومة عنتا ، فهذه الأمور من  
اختصاص الحكومة وهي لا تمس جوهر قضية البلاد

ووجه اللوم على عرابي انه هيا لاعداء الحركة القومية  
في مصر أن يمعنوا في تصويرها صورة عسكرية بحتة  
سببها تدخل الجند في شئون الدولة

لم ين اعداء هذه الحركة الوليدة عن مناواتها في مصر  
وفي خارج مصر وإلى هذه المناواة يرجع سبب جموح  
هذه الحركة والتوائها على شريف ثم خروجها آخر الأمر  
من يده ، ولو انه قدر لمصر في تلك الأيام العصيبة أن  
سلك الخديو غير ما اختار لنفسه من مسلك فأزر كبير  
وزرائه ضد ما كان يحاك للبلاد من دسائس لا يمكن أن  
يسير شريف بالسفينة الى شاطئ السلامة ، لكن  
الخديو وأأسفاه لم يكتف بعدم الوزارة ، بل لقد التجأ  
الى الأجانب ، فكان عمله هذا أقوى مساعد على نجاح  
سياستهم ...

وكان كلفن العضو الانجليزى في لجنة المراقبة المالية  
وادوارد مالت قنصل انجلترا في مصر هما اللذان يحكمان  
الشباك حول الخديو ، وكانت لهما سياسة ماهرة غادرة  
تقوم على أسس أحكم وضعها أولهما وفق ما تعلم في  
الهند ، فهما يظهران الولاء للخديو فيدسنان له بذلك  
السم في الملق ، ثم هما يخوفانه أبدا من تركيا والعراقيين

جميعا فيذران قلبه هواء ، وهما بعد ذلك يضللان الراى العام فى بلادهما ويرسلان التقارير السرية عما يجب أن يتبع الى وزير الخارجية الانجليزية ...

وكانت وسيلتهما فى تضليل ذلك الراى العام ، السيطرة على الصحف بالسيطرة على مراسليها ، وكان كلفن نفسه مراسلا لأحدى الصحف وكان مراسل التيمس يستقى منه المعلومات ، أما شركتا روتروها فاس فقد كان يعطى لكل منهما ألف جنيه فى العام من خزانة مصر ! وقل أن نصادف فى تاريخ السياسة عملا أشد فجورا من أن تحارب قضية شعب بنقود من خزانته .

وكانت الحركة الوطنية تلاقى أشنع الكيد خارج مصر من جانب الصحافة أول الامر ، الى أن منيت بعد هذه المقدمة بالتدخل الرسمى الفاجر الذى لم يدع فى تاريخ العالم عرفا الا خرج عليه ولا قاعدة الا سخر منها وحطمها تحطيمًا ...

أخذ محررو الصحف فى انجلترا وفرنسا ينددون بثورة مصر ويسخرون من نهضة مصر ، ولو أنهم كانوا يحترمون المبادئ التى نادى بها بلادهم حقاً لمنعهم ذلك مما فعلوه ...

وماذا جنت مصر يومئذ حتى تستقبل أوروبا حركتها بأسوأ ما تستقبل به الحركات ؟ ألم تجر فى أوروبا الدماء أنهارا فى سبيل أمثال تلك المبادئ التى كان ينادى بها المصريون ؟ وكيف تكون نعماتها عذبة مشتهاة اذا تغنت بها أوروبا ثم تكون ممجوجة مملولة اذا هتف بها الشرقيون ؟ هذا شعب ينفذ عنه غبار القرون ، ويخطو نحو الحرية كما خطت أوروبا ، ثم هو يذب الاجانب عن قوميته ، وقد ثقلوا عليها بامتيازاتهم الاثيمة الظالمة ثقل الحشرات والهوام ، فماذا كانت ترى أوروبا فى هذا من معانى

الفوضى والهمجية ولم يصحب حركة المصريين عدوان على أولئك الأجانب على ما كانوا يلاقونه منهم من عنت وافساد ؟ ألا أنها السياسة والاطماع الاستعمارية تقلب عرف الناس نكرا وتجعل المبادئ التي ينادى بها دعاة الانسانية في نظر الساسة احلاما لا تجد لها مستقرا الا في رؤوس الحمقى من الفلاسفة ورؤوس الاغرار من مصدقيهم ... أما السياسة فقد كانوا لايتوانون عن الكيد ، ولا يفتر لهم سعى في تلمس السبيل التي يستولون بها على الفريسة ، وكان موقف انجلترا وفرنسا من مصر ينطوى على كثير مما يبعث الالم والضحك معا ! وكم من المآسى ما تضحك منه النفوس ضحكات لن يبلغ الدمع مبلغها !

كان موقف الدولتين كموقف رجلين يطمعان في استلاب شيء ، وكلاهما يريد لنفسه دون الآخر ولكنه يموه على صاحبه ، ويفهم كلاهما حق الفهم ان الآخر يدرك حقيقة موقفه منه ، ولكنهما على الرغم من ذلك يتغابيان ويضللان !

هذا هو موقف الدولتين على مسرح السياسة في تلك الايام ، ولكم شهد المتفرجون يومئذ من الاساليب الميكيفيلية وأوضاعها ، ولكم شهدوا من أساليب غيرها لو قورنت هذه بها لكانت منها كالحسنات ، ثم يسدل الستار والمتفرجون من أهل مصر لايمسكون أن ينطقوا بكلمة استهجان لما رأوا ، بل لقد فرض الاحتلال عليهم أن ينظموا أناشيد المدح والاعاد سكوتهم جحودا وعنادا . وأى شيء أنكى وأوجع من أن يرغم شعب على تقبيل الأيدي التي استلبته حقوقه والأغلال التي دارت حول عنقه ؟

ويظهر أول شاهد على السياسة الانجليزية في تقرير

كتبه كلفن بعد يوم عابدين بعشرة أيام جاء فيه : « أرى أن ليست الحال الحاضرة بطبيعتها إلا هدنة ، وإن ما وصلنا إليه من التسوية ليعطينا مهلة نستجم فيها ونلم فيها بالقوى التى تعمل حولنا ونسعى فى الاستفادة منها أو القضاء عليها » (١) .

وليس فى هذه العبارة أول شاهد على السياسة الانجليزية فحسب ، بل ان فيها خلاصة هذه السياسة ، فستربص انجلترا بالحركة حتى يحين الوقت وحتى تستطيع أن تعمل بمفردها دون فرنسا ...

وكان شريف يقظا يفتن الى دقة الموقف ، ويدرك مرامى السياسة الانجليزية وأساليبها ، ولذلك كان لا يفتأ يحض أنصار الحركة الوطنية على اتباع الحكمة ومجانبة الشطط حتى لا يكون من أعمالهم وأقوالهم ما تسيء أوروبا تأويله فتسوء بذلك العاقبة ...

وأخذ فريق من رجال الحركة الوطنية يعاونون شريفا على تثبيت قواعد سياسته وكان من أثر ذلك أن تنازل عرابى عن رأيه فى الموقفين السالف ذكرهما ، وكان من اثر ذلك أن خففت الصحف من اهبتها وكفكت من غلوائها ، ولقد كان للشيخ محمد عبده فضل كبير فى توجيه العناصر الوطنية نحو هذا المسلك فأثرت مصر أن تركز الى الحكمة وإن نفوس بنيتها لتضطرم بالثورة ...

ولكن الافق ما لبث أن تجمعت فى حواشيه الغيوم ، وأحسست السفينة بوادر عاصفة قوية ما عتمت أن هبت شديدة عاتية نفذ لها صبر الربان أو كاد ، وتلك هى أزمة الميزانية الشهيرة ، وهل كانت الثعالب تعجز عن خلق ما تشتهى من أزومات ؟

فرغ شريف من أعداد لائحة المجلس ثم عرضها على

---

(١) المسألة المصرية لروثستين : تعريب الاستاذين العبادى وبدران .



النواب ، وشد ما كانت دهشتهم أن رأوا شريفا يقرر فيها ألا يكون من اختصاص المجلس عند النظر في الميزانية البحث في جزية الباب العالي والدين العام وكل ما فرضه قانون التصفية على الخزانة من نفقات ...

وهال النواب واغضبهم أن يكون ذلك باتفاق شريف مع المراقبين ، فرفضوا ذلك وأصروا على أن ينظروا الميزانية كاملة ، وعدوا ذلك من الحقوق التي لا تقبل مساومة مهما يكن الأمر ...

واخذ شريف المسألة من الناحية العملية ، فلم يشايع النواب في نظرياتهم ، واخذ يطلب اليهم الاناة والحدر ، ويريهم عواقب التطرف والتعجل ، ولكنهم لم يلتفتوا اليه ، وظهرت في الوزارة نفسها بوادر التفكك ، فلقد كان البارودي يطمع في الحكم بعد شريف فكان لذلك يؤيد الوطنيين في موقفهم سرا .

وكان سلطان باشا رئيس المجلس ينقم على شريف أن لم يسلكه في سلك وزارته فوجد في الخلاف القائم فرصة بذال بها من شريف فسرعان ما اتهم شريف بالاعتدال ، ثم حمل اعتداله على الجبن والضعف . ثم بلغ الأمر حد اتهامه بالخيانة ...

ووقف شريف يواجه العاصفة في صبر وجلد ، وهو يؤمل أن يجنح النواب الى السلام والاعتدال واقترح عليهم تأجيل النظر في هذه المسألة حيناً ، ونشط الشيخ محمد عبده في معاونة شريف ، وكان مما ذكره في هذا الصدد قوله : « لقد ظللنا ننتظر حريتنا مئات السنين أفيصعب علينا أن ننتظرها بضعة شهور أخرى ؟ » .

ثم بدأ على الافق بعد حين ما يبشر بقرب انكشاف الغمة ، فلقد أخذ النواب يتدبرون في عاقبة هذا التشدد وبدأ العقل يتغلب شيئاً فشيئاً على العاطفة .

وخيل لشريف أن الازمة بسبيل أن تحل ، ولو أنه  
اطلع على الغيب لعلم أنها كانت تتضاعف ويشتد خطرها  
لتتخذ في النهاية الوضع الذي سوف يغير تاريخ هذه  
البلاد !

لمح الصائدون في هذه العاصفة الفرصة المرتقبة !..  
وهيهات أن يضيع هؤلاء فرصة طال بهم انتظارها ، أن  
الخلاف قائم بين الوزارة والمجلس فليعملوا على زيادة  
هذا الخلاف وليدفعوا بالخديو ليخطو أول خطوة بعد  
يوم عابدين ضد الحركة الوطنية فيخسر بذلك الوطنيين  
والعسكريين جميعا ، ويفقدوا هم الثقة فيه كل فقد  
فيقرب بذلك من الاجانب أو على الاصح يزداد قربا منهم  
ولأن يعدم الانجليز وحلفاؤهم أن يخلقوا ألف مبرر لما  
يفعلون ، ومن أيسر الامور عليهم أن يعلنوا أن البلاد  
تشيع فيها الفوضى ، وأن الاجانب ومصالحهم تكتنفهم  
الاخطار من كل صوب ، وأن الخديو بات يخشى على  
عرشه ولا مخرج له مما هو فيه ، بل ولا مخرج لمصر  
مما هي فيه من خلل وارتباك الا أن يضرب على أيدي  
الثائرين المفسدين في الارض ...

ومن غريب أمر هؤلاء الانجليز أنهم بينهم وبين انفسهم  
غيرهم بينهم وبين الشعوب الشرقية ، فهم لايقبلون من  
هذه الشعوب ما يعدونه عندهم من مفاخر الانسانية ،  
وانهم ليرمون أهل هذه الشعوب بأشنع التهم وأقساها ،  
فالتألم من المظالم التي تنصب على رؤوسهم تمرد ، والسعى  
الى الحرية فوضى وهمجية ، والدفاع عن البلاد وذب  
الدخيل عنها وحشية وأجرام !.. على أن هذه سنة  
الحياة بين القوى والضعيف منذ كان الانسان يتخذ  
سلاحه من الحجر وينحت مأواه في الجبل ...

ولقد كانت الدولتان تعملان على الكيد للحركة الوطنية

في مصر قبل انعقاد المجلس ، وكانت بينهما مراسلات في هذا الصدد ، وكانت فرنسا هي المحرصة هذه المرة ! فرنسا التي كانت سياستها منذ فشل الحملة الفرنسية تدور على مناوأة النفوذ الانجليزي في مصر !..

ولى المسيوليون جمبتا أمر وزارة الخارجية في فرنسا في شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ فسرعان ما اتصل بوزير خارجية إنجلترا اللورد جرانفل محدثا إياه في شأن مصر مبينا له وجوب تضامن الدولتين في العمل ازاء ما يجري هناك من أمور .

وحار جرانفل أول الامر ماذا يجيب به على هذه الدعوة ؟ فهو ان قبلها أصبح مقيدا بالعمل مع فرنسا ، وان هو رفضها قطع على دولته الطريق وجعل لفرنسا المكان الاول في شؤون مصر ...

وتلقى جرانفل من مصر انبياء فاجرة مالت به الى الطريق التي اختارها ...

كانت مشكلة ميزانية الجيش لا تزال قائمة بين عرابي والمراقبين ، فأرجف المرجفون أن عرابيا يعتزم أن يأتي بثورة جديدة لاسقاط وزارة شريف وتنصيب البارودي مكانه ...

وكتب السير ادوارد مالت وهو رجل مسؤول ، الى اللورد جرانفل يشكو من تدخل عرابي ويتساءل في لهجة ساخطة برمة : كيف يستطيع شريف أن يقوم على رأس الحكومة مع وجود عرابي صاحب النفوذ الفعلى في البلاد؟ وهكذا يسمح هذا الرجل لنفسه أن يكذب فيرمي عرابيا بما هو برىء منه اذ يصوره في صورة المتعسف الذي تدفعه المآرب الشخصية ، ولايستحي بعد ذلك أن يكتب الى رئيسه ينبئه بخضوع عرابي لرأى المراقبين !..

ولكن جرانفل كان قد خطا نحو فرنسا خطوة لا يمكنه  
النكوص بعدها ...

وكتب كلفن كذلك الى جرانفل يقول : « والحقيقة ان  
الادارة المصرية شركة ثلاثية ، فاذا لم تكن الدول على  
استعداد لتعديل نصيبها فعليها أن تحافظ عليه وتقويه  
في هذا الوقت الذي أصبح فيه المصريون في حال تطور  
وانتقال » (١) هذا عدا ما ذكره في تقريره عما يتوقعه من  
خطر اذا زيدت سلطة المجلس وثبتت قواعد الدستور  
المصرى ...

وكان مستر بلنت قد أرسل برنامج الحركة الى  
جريدة التيمس ، وفيه أقوى حجة على براءة هذه  
الحركة من عناصر الثورة أو المساس بحقوق الاجانب  
المالية ، وكان يأمل بلنت وأصدقائه من الوطنيين أن  
يكون لنشر هذا البرنامج أثره الحسن في نفس جرانفل ،  
ولكنه نشر في أول يناير سنة ١٨٨٢ بعد أن قضى الامر ،  
فلقد وافقت انجلترا على وجهة نظر فرنسا في يوم ٣١  
ديسمبر أي عقب اجتماع المجلس بخمسة أيام ...

وخطا شريف باشا في تلك الاثناء خطوة حكيمة فأعلن  
بيانا (٢) يشير فيه الى منهاج حكومته ، فذكر أنها تقوم  
على أساس الاعتراف بحقوق السلطان والامتيازات التي  
حصلت عليها مصر والاعتراف بالخديو حاكما دستوريا  
والتسليم بقاعدة المراقبة الثنائية ، ثم انكار كل اتجاه  
ثورى ، وفتح الحرية الدينية والسياسية لجميع سكان  
البلاد والسير على قاعدة الحكومة المسؤولة أمام مجلس  
نيابى ...

---

(١) المسألة المصرية لبروشتين .

The Trenchit of Egypt by P.G. Elgood

(٢)

ولم يكن في الامكان يومئذ السير على منهاج أفضل من هذا المنهاج الحكيم ، الذي كان خليقا ان يبعث الطمأنينة في نفوس الساسه من الدولتين ، وكذلك لم يكن هناك برهان على حسن نيات الوطنيين اقوى مما نشرته التيمس لستر بلنت وهو شاهد عدل من الانجليز للمصريين . . .

ولكن المسألة لم تكن مسألة اقتناع ، وانما كانت نية مبيتة ، وهيهات ان تجرى الامور في السياسة على الاقناع والاقتناع ، فدوافع الاقوياء الى العمل في ذلك المضمار اطماعهم ، وبرهانهم اسلحتهم ، وما يكون الكلام الا تعلقة الضعيف ، وما أشبه كلام الضعفاء في مثل هذه المواقف بصراخ الفريسة قبل تمزيقها . . .

ويذكر بلنت سببا لانحياز انجلترا الى فرنسا فيقول ان انجلترا كانت تسعى الى عقد معاهدة تجارية مع فرنسا فيها فائدة كبيرة للتجارة الانجليزية ، ومن اجل ذلك هاودت انجلترا فرنسا وطاوعتها فيما تقترح في شؤون مصر فباعت انجلترا بذلك مصر الى فرنسا . . .

وما نطن ان انجلترا كانت من الففلة بحيث تتنازل عن اغراضها في مصر من اجل مثل هاتيك المعاهدة التجارية ، وانما الذي نفهمه ان انجلترا كانت تراوغ فرنسا لتفوز بهذه المعاهدة ثم تقف من فرنسا بعد ذلك فيما يتعلق بمصر موقف الاتفاق في الظاهر ، بينما تعمل في الباطن وفق ما تمليه عليه اطماعها ، ومما يؤيد ما نقول التحفظ الذي أبدته انجلترا وأقرته فرنسا ومؤداه « ان الحكومة الانجليزية يجب ألا تعد مقيدة بسبب هذه المذكرة بسلوك خطة خاصة اذا ما بدا لها ان العمل ضروري » ولسوف نرى من سياسة انجلترا في مصر ما يؤيد ما نقول

تم الاتفاق بين الدولتين ، وكان المجلس في مصر كما تقدم يخالف الوزارة في مسألة الميزانية ، وكان بعض

الوطنيين يعملون على الخروج من المأزق بالحسنى ،  
ولاحث في أفق السياسة بوادر انكشاف الغمة ...

وما أشد ما نحسه من ألم ومن غيظ أن نذكر أن  
البلاد ما لبثت أن تلقت من الدولتين في اليوم الثامن من  
شهر يناير سنة ١٨٨٢ تلك الصيحة المشؤومة التي  
سميت بالذكر المشتركة ، والتي قل أن نجد في التاريخ  
السياسي ولا فيما يحكى للأطفال من خرافات مثالا أوضح  
منها لتحكم القوى في الضعيف واستهتاره به في غير حياء  
أو تخرج . . وحسبك أن تقرا هذا الكلام الذي بعثت به  
انجلترا وفرنسا زعيمتا الحرية والديموقراطية ! جاء في  
المذكرة (١) « ان الحكومتين الانجليزية والفرنسية تريان  
أن بقاء سمو الخديو على العرش بالشروط التي قررتها  
الفرمانات السلطانية واعترفت بها الحكومتان رسميا هو  
الضمانة الوحيدة في الحاضر والمستقبل لاستتباب النظام  
في مصر واطراد رخائها ، وهما الامران اللذان تهتم بهما  
فرنسا وبريطانيا العظمى ، وان الحكومتين اللتين اتفقتا  
اتفاقا تاما في عزمهما على أن تمنعا كل أسباب الارتباك  
الداخلية والخارجية التي يمكن أن تهدد النظام القائم  
بمصر ، لا يداخلهما ريب في أن جهرهما بما عزمتا عليه  
رسميا في هذا الامر سيحول دون الاخطار التي قد تتعرض  
لها حكومة الخديو والتي لا بد أن تقاومها فرنسا وانجلترا  
معا ، وان الحكومتين لتثقان بأن سموه سيستمد من  
هذا التأكيد ما يحتاج اليه من الثقة والقوة لتدبير شؤون  
بلده وشعبه » .

واى كلام يمكن أن يعبر عما تنطوى عليه هذه المذكرة  
من لؤم وفجور ؟ ما معنى الإشارة الى بقاء سمو الخديو

---

(١) المسألة المصرية لروثستين .



على العرش ؟ وما شأن الدولتين حتى تهتمان بهذا الامر؟  
وبأى حق تضطلعان بمنع أسباب الارتباكات الداخلية  
والخارجية ؟ وعلى أى أساس يقوم ادعاؤهما وجود هذه  
الارتباكات ؟ وكيف يجوز أن يعتمد الخديو عليهما ،  
ويستمد الثقة منهما مع وجود السلطان ؟

هذه هي المذكرة المشتركة التى أشار اليها بلنت  
بقوله : «هذه المذكرة المشؤومة التى اليها يرد كل ما وقع  
من المصاعب اثناء ذلك العام والتى أفقدت مصر حريتها  
كما أفقدت جلادستون شرفه وكما أفقدت فرنسا نفوذها  
فى وادى النيل » .

ولا تسئل عما أحدثته هذه المذكرة الحمقاء من سوء  
الاثـر فى مصر ، لقد بلغ من اثارها الشعور واحراجها  
الصدور أن نغم عليها مالت وكلفن وتمنيا لو لم تكن !  
وقد كانا يريدان ألا تكون بمثل هذه الصراحة الطائشة .

وكانت النتيجة الطبيعية أن انضم المعتدلون من رجال  
الحركة الوطنية الى العسكريين ، وهو على خلاف ما  
كانت تنتظره الدولتان فى غياب مضحك أو فى غفلة لاندرى  
كيف وقعا فيها ، الا أن تكونا أرادتـا إيقاف الفتنة وهو  
خير ما يفسر هذا الذى نحار فيه .

رأى عنصرا الأمة ، الرجعية المسلحة . . بل رأوا القدر  
الاثيم يتهدد قضيتهم ، وأنبعثت الصيحات من كل مكان  
أن انجلترا ألقت بنفسها فى أحضان فرنسا ، وأن فرنسا  
تريد أن تصنع بمصر ما صنعتـه بتونس ، ولذلك يجب  
الاتجاه الى السلطان والمناداة بمبدأ الجامعة الاسلامية  
لمقاومة هذه الحركة الاثيمة . . .

وعظم سخط المصريين جميعا حين علموا أن الخديو  
قد قبل هذه المذكرة ، ولم يكتف بهذا القبول المشين ،  
فكتب الى القنصلين يشكر حكومتيهما على ما تبديان

من عطف نحوه ، وفي هذا دليل صريح على أن الخديو  
آثر الانحياز الى جانب الدولتين وصى موضعه من  
السلطان ولم يعبا بما يجد في مصر من الفضب على  
مسلكه ...

وضماع كل أمل في تهدئة الخواطر ، فأصر مجلس  
شورى النواب على موقفه في وجوب نظر الميزانية ، ورأى  
شريف في المجلس اجماعا ضده وحماسة ما رأى مثلها  
من قبل ، ولقد رغب جرانفل في ملاينة الاعضاء في هذه  
المسألة كأنما يريد أن يعالج بعض خطئه ، ولكن جمبنا  
رفض ذلك بحجة أنه يسقط هيبة الحكومتين أمام  
الوطنيين ! وما أعجب أمر هذا الرجل الذي يرى أن  
الهيبة تكتسب بالحماقة !

على أن جرانفل ما لبث أن شايح جمبنا في حماقته  
فلقد كتب اليه مالت يقول (١) ان المجلس باق وسيظل  
باقيا ما لم يحل بالقوة ، وهذا أمر لا يكون الا بالتدخل  
الذي هو آخر سهم في كنانتنا ، والذي لايسوغه أبدا ما  
قد يكون من خرق قانون التصفية ... انى اعترف انى  
افضل أن يعطى المجلس ما يطلبه من الحق والا نتدخل  
حتى يسىء استعمال هذا الحق ... ويجب ألا ننسى أن  
الامة المصرية قد أخذت تسلك طريق الحكم النيابى خيرا  
كان ذلك أو شرا ، وإن قانون المجلس الاساسى هو صك  
حريتها « ...

هذا ما ذكره مالت نفسه ولكن جرانفل لم يعبا به  
وأرسل الى جمبنا يشبه بموافقة الحكومة الانجليزية  
على آرائه ، ونسى جرانفل أو تناسى أنه كتب الى مالت  
قبل ذلك بنحو شهرين يقول له مشيرا الى حرية المصريين

---

(١) المسألة المصرية لرونستين .

الوليدة : « ان الحكومة الانجليزية اذا ما رغبت في نقص تلك الحرية او العبث بتلك النظم التى يرجع وجودها اليها فانها تتبع سنة تخالف تقاليد تاريخها الوطنى... ليس من شيء يحملنا على سلوك خطة أخرى غير قيام حالة فوضوية في مصر »

فليت شعري ما الذى حدث في مصر حتى تخالف انجلترا على هذه الصورة أجمل تقاليد تاريخها الوطنى؟ إلا انها السياسة التى لا تتورع عن شيء ولا تستحي من شيء ، وليتدبر في هذا الموقف من لا يزالون في هذا الشرق يتحدثون عن الضمير البريطانى والشرف البريطانى...

حاول شريف أن يحصل على مذكرة تفسيرية يستعين بها على تسكين الخواطر ، فرفض جمبتا حتى هذه المذكرة وعاد جرانفل فشايعه في هذا مشايعة عمياء على الرغم من نصيح الناصحين من الانجليز والوطنيين...

ولست أدري كيف كانت ضمائر هؤلاء الساسة تطاوعهم مع هذا على أن ينعتوا رجال مصر بالفوضى وأن يصوروهم أطفالا في السياسة لا يدرون ما يأخذون وما يدعون ؟ ولكن ما لى أعود الى حديث الضمائر والامر أمر السياسة وجشع السياسة ؟

وضاقت بشريف السبل فلم يدر ماذا يفعل ، ووقفت السفينة لا تستطيع حراكا ، والرياح من حولها عاصفة وليس في الجو بارقة أمل ، والنواب لا يفتروا صرارهم ولا تنقطع زمجرتهم...

وعاد مالت يحذر جرانفل فقال في صراحة : « ان التدخل المسلح سيصبح أمرا محتوما اذا تشبثنا بمنع المجلس من التصويت عن الميزانية ، ومع ذلك فجميع الحكومات تهتم بمنع ما يوجب هذا التدخل الذى اذا

أقدمت عليه الدولتان وحدهما أدى الى سوء المقلب في هذا البلد .

ولينظر في كلام مالت أولئك الذين يعودون باللوم على عرابي اذا ذكر الاحتلال والتدخل المسلح في شؤون مصر ، ومتى يعلم هؤلاء انه لو لم يوجد عرابي لعمل الانجليز على خلقه ؟

على الرغم من تحذير مالت أبلغت الحكومة المصرية رسميا في اليوم العشرين من شهر يناير سنة ١٨٨٢ ، أن المجلس لن ينظر في الميزانية الا اذا اخل بالاوامر العالية التي انشئت بمقتضاها المراقبة الثنائية ...

وكان المجلس قد جنح الى الاعتدال على الرغم من أنه يرى تدخل الدولتين عملا لاموجب له فتساهل تساهلا لا يدع مجالا لاتهامه بالشطط أو التورط ، فقبل أن يقتصر نظره في الميزانية على القدر الباقي منها بعد الجزية وقانون تصفية الديون والالتزامات الدولية ...

ولكن الدولتين ابتا عليه حتى هذا واكدتا لشريف أنهما لن يقبلاه بحال ، وهذا في الحق هو الشطط ، بل هذه هي الفتنة ، والمسألة لا تحتاج الى بيان فما كانت مسألة الميزانية الا ذريعة للتدخل الفاجر ردا على نجاح الثورة القومية بعد يوم عابدين ، فقد كان هذا النجاح مؤذنا كما يبدو لاول وهلة بانقضاء عهد سيطرة الاجانب على البلاد ... ولئن تظاهر مالت وأمثاله من الانجليز بأنهم لا يريدون التدخل فذلك كلام يسبق كل رغبة في التدخل تأتي من جانب المستعمرين ... والذي يفتن اليه المرء في غير طول نظر أن مالت كان ينصح بعدم التدخل لانه كان يريد أن يبعد فرنسا فلا يحب أن يكون التدخل مشتركاً ، وانما يحب كل الحب أن تكون الفريسة من نصيب انجلترا وحدها

قال بلنت يصف لقاءه كلفن وقت اشتداد الازمة بين شريف والنواب : « كان الخصام بين النواب وشريف في اشد حالاته ، فسأله عن رأيه في الموقف فقال انه يراه خطيرا جدا . وكان من الامور الواضحة ان زعماء الحركة القومية قد صمموا على اسقاط شريف ، فاذا نجحوا في ذلك فانه كما قال يقطع صلته بهم ، ثم أخبرني بأنه غير آراءه تغيرا تاما فيما يتصل بهؤلاء فانه ظنهم ينجحون الى التعقل ولكنه يرى ألا سبيل الى تعقلهم ولذلك سيبدل قصارى جهده للقضاء عليهم اذا وصلوا الى الحكم ، فسألته : كيف يتسنى له ان يقترح ذلك ، وكيف يعترض حركة أقرها أخيرا ، وقد خرجت عن طوقه وطوق كل شخص غيره ؟ كيف يتسنى ذلك الا بنفس التدخل الذي كنا نحاول جميعا أن نتجنبه ؟

فقال : انه غير رأيه حول التدخل كذلك وانه يراه الآن ضروريا ويرى انه لا مناص منه وسوف لا يألو جهدا في العمل عليه ، فاعترضته مبينا أن التدخل معناه الحرب والحرب معناها ضم مصر ، فقال : انه يدرك هذا المعنى كل الادراك ... ان ما يحدث في مصر قد شوهد مثله مرات في الهند ، وان انجلترا لن تتخلى عما تم لها من النفوذ في مصر ومن العبث الكلام في حقوق المصريين وأخطائهم ، فذلك ما لا يصح اعتباره ، ثم كرر ماسلف أن قاله عن تحطيم الحركة القومية والحزب الوطني مضيفا الى ذلك انه لم يعد يجعل آراءه هذه سرا من الاسرار »

وذكر بلنت كذلك كتابين جاءاه من صديقين له في انجلترا أحدهما من الاحرار ، وهو جون مورلي ، والآخر من المحافظين ، وهو ليتون وكان قد كتب اليهما يسألهما عطفهما على الحركة القومية في مصر ، فأما أولهما فيقول :

« انى أشك فى أن مشروعاتك تصادف نجاحا فى هذا الوقت ، ان مصر لسوء حظ أهلها ميدان للتنافس الاوربى ، وستمنع تسوية شريفة فيما يهم مصالح أهلها لكى يتمشى ذلك مع ما يلائم فرنسا ، وليست لى حيلة فى ذلك ، فانها تلك النعمة التى نزلت بالدنيا ألا وهى : السياسة العليا التى ستفسد كل شىء » .

وأما ثانيهما فيقول : « ان هذه الفئة القليلة من الشعب الانجليزى التى تفكر فى الامور الخارجية ، قد امتلأت أذهانها من قبل واضطربت أفكارها بسبب ذلك الوضع الخاطيء الذى ننساق اليه فى مصر ، ويكادون يخافون اكبر الخوف من الجهر بأرائهم عن الموضوع ، ويظهر لى أن أراءهم واهية ، وفى رأى أن هذه أولى تمار تلك السياسة الخاطئة من أساسها التى أدت بنا الى أن نفقد التعاون مع المانيا والنمسا ووضعتنا فى الواقع تحت رحمة فرنسا ، تلك الدولة التى لايمكننا أن نعقد معها تحالفا على أساس متين يدعو الى الاطمئنان »

وما نظننا بحاجة بعد هذا الذى يذكره بلنت الى الرد على الذين يرون أن تمسك النواب بنظر الميزانية هو سبب ما منيت به البلاد من التدخل الاجنبى ...

ولما وجد النواب شريفا يميل الى موافقة الدولتين ، سار وقد منهم الى الخديو فطلبوا عزله ، وتعيين رئيس للوزارة يستطيع أن يسير مع نواب البلاد فى سياستهم .

وسقطت وزارة شريف فى اليوم الثانى من فبراير سنة ١٨٨٢ ويرى بلنت أن من عوامل سقوطها كذلك تهديد كلفن بالتدخل العاجل ، وحلت محلها وزارة البارودى بعد ثلاثة أيام وهى الوزارة التى سوف تعرف باسم وزارة الثورة ...



## غضبة جريّة

ذكرنا أنه كان من نتائج تلك المذكرة المشؤومة اتحاد الوطنيين والعسكريين ، ونذكر الآن أن عرابيا ما لبث أن اتجهت إليه أنظار الجميع على نحو ما حدث قبل يوم عابدين ، ورأى الوطنيون أنه الرجل الذى يجب أن يحرصوا على معونته لا لأن الجيش من ورائه ، بل لأن الأمة المصرية لا تذكر غيره ولا تتجه عند الخوف الى سواه ...

وتأهب عرابى ليخطو في تاريخ هذا البلد خطوة جديدة ، وقد تأمرت الثعالب وبنات آوى على اقتناصه هذا التآمر الوضع ...

ولقد أحس مالت بما كان للمذكرة من أثر فى عودة عرابى الى طليعة الصفوف فأوفد اليه فى مكتبه بوزارة الحربية صديقه بلنت ، وكان يطمع فى أن يكسب عرابيا الى جانبه أو على الأقل كان يتمنى أن يهدى خاطره لتفطنه الى ما يكون لصنيعه هذا من عظيم الاثر فى ذلك الموقف العصيب الذى سببته رعونة جمبتا وصاحبه .

يقول بلنت : « ذهبت بناء على ذلك الى قصر النيل ظهر يوم ٩ ، وكان نص المذكرة قد وصل يوم ٨ ، ووجدت عرابيا وحده فى مكتبه ، وكان غاضبا وهذه هى المرة الاولى والمرة الوحيدة التى رايته فيها كذلك .

وكان وجهه كالسحابة الراجعة وتألفت عيناه ببريق خاص ، وكان قد اطلع على نص المذكرة وأن لم تكن قد نشرت بعد ، فانها حتى ذلك الوقت كانت أرسلت بالبرق فحسب ، وسأله كيف فهمها ؟ فأجابني قائلا ، بل أخبرني كيف فهمتها أنت ؟ « وعندئذ أفضيت اليه برسالتى فقال : « لابد أن السير ادوارد مالت يظن أننا أطفال لا ندرك معنى الكلمات ... انها قبل كل شيء لغة تهديد فليس في هذه الإدارة كاتب يستعمل هذه العبارات لمثل هذا المعنى » والمخ الى تلك الإشارة للأعيان التى جاءت في الفقرة الاولى من المذكرة قائلا : ان هذا تهديد لحريتنا ومضى يقول : ان اعلان اتحاد انجلترا وفرنسا في السياسة معناه أن انجلترا سوف نفزو مصر كما غزت فرنسا تونس ... الا فلتدعهم يحضرون ، ان كل رجل وكل طفل في مصر سوف يحاربهم ... انه مما يتنافى مع مبادئنا أن نبدا بالعدوان فنضرب الضربة الاولى ولكننا نعرف كيف نردها ... ثم قال عما جاء بصدد الدفاع عن العرش : « ان العرش اذا كان ثمة من عرش هو عرش السلطان ، وليس الخديو بحاجة الى حماية اجنبية ... انك تستطيع أن تخبرني بما تشاء ولكنى أفهم معنى الكلمات خيرا مما يفهم السير ادوارد مالت ... »

وفي الخلق ان كلام مالت كان هراء ، وقد أحسست انى احمق بين يدي عرابى وشعرت بالخجل ان سمحت لنفسى أن اكون حامل هذا اللغو اليه ، ولكنى أكدت له انى أدبت الرسالة كما حملنيها اليه السير ادوارد وقلت له : انه يطلب اليك ان تصدقها وأنا أطلب اليك ان تصدقه .

وعند انصرافى عاد اليه شيء من الهدوء ، وأمسك بدراعى وهو يشيعنى الى أسفل البناء ، وقد دعانى الى

أن اظل على مودته فأزوره في منزله كما كنت أفعل ،  
فقلت : انى سوف أحضر حين تكون لدى أنباء طيبة لك  
فحسب ، وكنت أقصد بذلك القول أن الملح له الى ما  
كنا نرجوه من تفسير للمذكرة ، أبرق مالت يستأذن في  
أن يتقدم به ...

ولما عدت الى مالت وسألنى عما صنعت قلت له انه  
لا يرجئ الصلح الآن فان المذكرة قد ألفت بهم بين ذراعى  
السلطان » .

هذا كلام بلنت ومنه نتبين مبلغ غضب عرابى من هذه  
المذكرة ، كما أننا نفهم جانباً مما كان يجيش في نفس هذا  
الزعيم الشائر ، فهو لن يجبن ولكنه لن يبدأ بالعدوان ،  
وهو يلمح نيات انجلترا في هذه المذكرة ، وما كان عرابى  
مسرفاً في تصوير نيات الانجليز فلسوف نرى أن جرانفل  
كان في ذلك الوقت قد وطد العزم على التدخل بالقوة ...

عاد عرابى الى الميدان ، وفي الناس من تبلغ بهم الففلة  
الى حد أن يأخذوا عليه هذه العودة ، وفيهم من يذهبون  
في اتباع أهوائهم الى أن يجعلوا ذلك من أكبر خطيئاته  
قائلين في مثل منطق البلهاء ، ان كان ثمة للبلهاء منطق  
انه بعودته هذه قد ساق البلاد الى ما سيقنت اليه من  
دمار ، كأن على كل رجل اذا رأى كرامته تداس وشرفه  
يهان أن يقف مكتوف اليدين والا ساق نفسه اذا غضب  
الى الدمار . الا أن الرجولة خلاف ذلك ، فالرجل الذى  
يجد نفسه في موطن الاهانة لاسبيل له يمسك بها رجولته  
ألا أن يدافع عن نفسه انفة وحفاظاً ولو أيقن أنه هالك .

ومن المأولم المثيرحقاً أن يقول هؤلاء الناس هذا الكلام ،  
دون أن ينظروا في موقف الخديو وموقف الانجليز على  
نحو ما بينا ، وهم لا يدركون من المسألة كلها الا أن  
عرايبا كان رجلاً ذا أطماع شخصية لا يدري ماذا يفعل ،

وكلما هدأت البلاد لا يفتأ يعمل بنزقه على اثارها ليصل الى تحقيق اطماعه. الى آخر هذه النغمة الباردة المرذولة التي القى بها الاحتلال في اذهان الاطفال ...

وأحسب الآن بعد الذي رأينا من موقف أعداء البلاد أن هذا الكلام قد أصبح خليقاً بأن يخجل منه قائلوه ، وانا لنكاد نقطع منذ الآن أنهم بعد أن نفرغ من سيرة هذا الزعيم المفترى عليه على نحو ما نبين من أوجه الحق لن يعودوا الى مثل هذا الكلام ، فسبيلنا كما يرون في اقناعهم الحجة نستخلصها من الحوادث في عدالة يفرضها الحق ، وفي عطف يوجبه الانصاف ...



تعهد عرابي ألا يتدخل في شؤون الحكومة ، فكان ادعائه لهذا أمراً لا بد منه . ولو أنه رفضه لكان في ذلك مخطئاً أشد الخطأ ، ولكن عرابياً لم يتعهد أن يدع وطنه وشأنه ، لا تهزه بعد يوم عابدين نحوه عاطفة أو يحركه لتجدته ما عسى أن يلم بقضيته من الاحداث ، ولم يكن ليستطيع عرابي أن يتعهد بمثل هذا ، ولن يستطيع ذلك غير عرابي من الناس ، ولو أنه فعل ذلك لأجرم في حق هذا الوطن جريمة ما كان ليفرغها له التاريخ ...

وكيف يفعل ذلك عرابي أو أي رجل غيره ولا يكون بذلك مجرماً مفرطاً في حق وطنه ؟ وأي فرق بين مثل هذا التعهد وبين المروق والخيانة والجمود في أوضح صورها وأقبحها ؟..

ألا انه للحق كل الحق أن يطلب الى بنى الوطن ألا يتدخلوا في أعمال الحكومة ، ولكن على شرط ألا يكون من تلك الاعمال نفسها ما يحفز الناس الى التدخل أو يوجبه عليهم ... أما أن تفرط الحكومة في حق الوطن، وأما أن توضع العقبات في سبيل قضيته ، ثم يطلب الى

الناس بعد ذلك أن يدعوا الحكومة وشأنها فهذا هو  
الباطل في أرذل صورته وأشدّها فجورا ، ومن أطاع ذلك  
من الناس فقد ضل في حق بلاده ضلالا بعيدا . . .

لن يكون لقيام الحكومات من مبرر إلا العمل لخير  
المحكومين وصالح أمرهم ، على هذا الأساس ولدت  
الديمقراطية ، وبهذا المبدأ اقترنت الحرية ، ولكم نادى  
بذلك القادة ودعاة الانسانية في الغرب منذ هدموا صروح  
الظلم وحطموا أغلال الماضي وفصموا سلاسل الرجعية  
والعبودية . . .



وما لنا نستشهد بالغرب وهذه الحكومة الاسلامية  
الاولى التى ولدت في الصحراء قد جعلت تلك المبادئ  
أساس قيامها ، وما أروع وأجمل أن يقول الخليفة الاول  
للناس : « أيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم  
فان احسنت فأعينوني وان صدفتم فقوموني » وأن يقول  
لهم الخليفة الثانى : « من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه »  
فيرد عليه اعرابى من أوزاع الناس بقوله : « لو رأينا  
فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » وأبلغ وأروع من قول  
أبى بكر وعمر قول الرسول الكريم : « ان الناس اذا  
رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله  
بعقاب من عنده » .

قبل عرابى أن يدع الحكومة وشأنها على أن تجرى  
الامور وفق ما أقرته الثورة من مبادئ ، فكيف لعمر  
الحق كان يستطيع أن يحمل على السكوت نفسه وقد  
رأى من الدسائس الاثيمة التى كانت تحاك حول تلك  
الحرية الوليدة ما أغضب أكثر الناس اعتدالا وأقلهم  
علاقة بالسياسة وشؤونها ؟ . . .

اذن فالفرق كبير بين أن يتدخل عرابى في شؤون

الحكومة وبين أن يفضب لما حل بقضية وطنه ، وفي هذا  
الفضب دليل وطنيته ووطنية كل غاضب معه ...

لقد كان من أصعب الأمور على هذا الرجل أن يدع  
هذه القضية وشأنها ، بل لقد كان ذلك عليه مستحيلا  
وانى لارجو من الذين خاصموا هذا الرجل في غير حق  
والذين خاصموه مظللين أن يستمعوا الى هذا الراى  
الذى أسوقه عنه الا وهو ان الحرية كانت من طبعه ،  
فطر عليها ولم يتكلفها يوما أو توجهه اليها الاحداث وهو  
يجهل كنهها ، كما يقول الذين يريدون الا يدعوا له  
محمدة الا جعلوها بالباطل مذمة ...



كانت الحرية من طبع ذلك الجاويش الذى نقم على  
الشراكسة في الجيش استبدادهم فأكثر من الشغب  
عليهم وكانت الحرية هى التى دفعت هذا الرجل الى أن  
يقف موقفه المشهود في ساحة عابدين عصر اليوم التاسع  
من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ ، ولسوف تكون الحرية  
هى حافزه الى ما يشب بعد المذكرة المشؤومة من وثبات  
ولقد استوثق بلمت من ذلك كما أسلفنا حينما اتصلت  
اسباب المودة بينه وبين عرابى ، وبين كيف ازداد عرابى  
محبة له اذ علم بالصلة بين أسرته واسرة اللورد بيرون .

وكيف يمجّد هذا الفلاح اللورد بيرون بصير الحرية  
الا أن يكون هذا تجاوبا بين نفس حرة واختها ؟ ولقد  
كان بيرون يدافع عن اليونانيين لا عن المصريين ، فلم يكن  
حب عرابى اياه اذن مشوبا بعاطفة غير عاطفة حب الحرية  
اينما كانت وكيفما كانت جنسية الداعين اليها وكيفما  
كان دينهم ...

ولنعد الى خطبته التى ألقاها في محطة مصر ، لقد  
أفصح فيها وهو يرتجلها عن كثير مما كانت تنطوى عليه



نفسه . والخطيب في مثل ذلك الموقف الحماسي ينسى نفسه فلا يملك التكلف والتصنع ، بل لقد يكشف الخطيب عما يريد أن يفطيه اذا نسي نفسه في رهبة الموقف وحماسه دون أن يملك لذلك دفعا . قال عرابي : « البلاد محتاجة اليها وامامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات والا ضاعنا مبادئنا ووقعنا في شرك الاستبداد بعد التخلص منه » . . . وقال : « وقد فتحنا باب الحرية في الشرق ليقتردي بنا من يطلبها من اخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة » .



وقد مر بنا رأى بلنت عن حبه للحرية ، ونورد هنا رأى جون نينييه (١) وهو رجل سويسري حر عاشره وعرفه معرفة خبرة ووثوق كما عرفه بلنت ، قال : « كان أحمد عرابي رجلا مستقيما وخادما لوطنه ، وشغوفاً بالحرية ومؤمنا بالحق ، وخطيبا فصيحاً ، وكانت شهرته تبلغ شأو غارibaldi » .

وانا لنرى في هذه الأدلة على حبه للحرية من القوة ما لا تجدى معه مكابرة ، وعلى ذلك نتساءل : ألم يأن للناس أن ينصفوا هذا الرجل وقد قضى عليه أعداؤه ، ثم قضاوا بعد ذلك على تاريخه الحق ؟

اننا بلد لا يعد غنيا الفنى المنشود في الرجال ، وهذه حقيقة نثبتها والالم يرمض جوانحنا ، فكيف نرضى مع ذلك أن نشايع أعداءنا فلا نثبت في سجل رجالنا هذا الرجل الذى يحق لنا أن نفخر به ؟

ألم يأن لابناء هذا الوطن أن ينظروا وهم بصدد قضية استقلاله الى هذا الرجل نظرتهم الى زعيم جاهد في

---

(١) المبار من ترجمة الاستاذ محمد لطفي جمعة

الوطن حق جهاده ، وأن يكفوا عن تلك النظرة الظالمة  
التي تصوره رئيس عصابة من الاوزاع والهمج لايسرون  
على نهج ولا يبتغون من وراء سيرهم غاية ؟  
ألم يأن لابناء هذا الوطن أن يفتنوا الى أن الاحتلال  
هو الذى صور عرابيا هذه الصورة المنكرة ليبرر بذلك  
وجوده ؟ وأنهم بمجاراتهم الاحتلال وصنأئعه الى يومنا  
هذا فيما ادعى انما يثبتون على انفسهم الفعلة ويسيتون  
الى رجل ما فكر يوما فى الاساءة الى وطنه ؟ رجل أن  
كثرت أخطاؤه فقد حسنت نياته ، وأن فاته النجاح فقد  
عظم فى سبيل النجاح بلاؤه ، فى حين قد قل فى المحنة  
نصراؤه ، وتعدد غداة الروع أعداؤه ...



لا جناح على عرابي أن يعود الى ميدان النضال فى  
سبيل المبادئ التي اعتنقها المصريون ووطدوا العزم على  
تحقيقها ، بل أن ذلك لا غيره ما كان ينتظر منه ، وما  
كان ليقبل منه قعود ، ولو أنه وقف فى جهاده عند وثبته  
الجريئة يوم عابدين لحق عليه ما نسبته اليه خصومه من  
النزق والسير على غير هدى ...

ومن أعجب ما يسمعه المرء من أقوال هؤلاء الخصوم  
قولهم : لقد أجيبت مطالب الجند على نحو ماكان عرابي  
نفسه يحب فما عودته الى التدخل فيما ليس من شأنه ؟  
وأى فعلة أشد من هذه الفعلة ؟ وإذا كان مثل هؤلاء  
يجهلون حقيقة الثورة العرابية هذا الجهل المعيب فكيف  
السبيل الى اقناعهم ؟

وها هم أولاء الوطنيون يسقطون شريفا ويتمسكون  
بحق مجلس الشورى بالنظر فى الميزانية وقد رأوا من  
أعداء البلاد غدرهم الاثيم فهل نرمى هؤلاء بالفوضى  
والشطط ؟ وإذا كنا نسمى عملهم تحمسا وغيره وطنية

فلم نستكثر ذلك على عرابى وقد غضب كما غضبوا  
وتحمس كما تحمسوا ؟

سيعود عرابى الى الجهاد فيقف في وجه الدولتين  
الطامعتين ، وسيسير زعيم الثورة على رأس جيش من  
أبناء هذا الوادى ليدود عنه في بسالة جريئة وحفاظ  
مر وفق ما توجبه الوطنية والرجولة ، وهذا لعمر الحق  
ما كان يطلب منه فى مثل هاتيك الظروف ، أما الفوز  
فأمر قد يخرج عن تصريفه ، وسبيله اليه محدود بحدود  
طبيعته ومقدرته ، ولقد يتوفر للقائد من أسباب الفوز  
ما يكاد معه يعتقد أنه قبل وقوعه حقيقة لا سبيل الى  
الريبة فيها ، ثم ينظر فاذا تلك الحقيقة خيال أو دون  
الخيال ، ولئن أخطأ قائد أبلى مثلما أبلى عرابى فلن  
تحمل أخطاؤه على معنى آخر كما حملت أخطاء عرابى  
ظلما وعدوانا على معانى الخيانة والمطامع الشخصية ..  
حسب عرابى أن يجاهد وأن يقاتل وأن يثبت للدنيا  
أن فى مصر من يدود عنها وعن الحق بالسيف ...

## غرائب الوزير

اختير عرابي وزيرا للجهادية في وزارة البارودي ،  
وجلس هذا الفلاح على الكرسي الذي كان يجلس عليه  
بالأمس القريب رفقي الشركسي ، وكان صيت عرابي في  
البلاد قد بلغ غايته ، وكان بيته كما أشرنا وكما ذكر  
بلنت مفرع المظلومين ومتجه المعجبين المؤمنين بحرية هذا  
الوطن . . . .

وكانت سياسة جمبتا قد صبغت بالصبغة الدينية  
عند المصريين ، وقر في أذهان الناس أنه كان مدفوعا في  
سياسيته بكراهيته للمسلمين ، وخوفه أن ينهضوا  
وتقوى بينهم أواصر الاخاء فيكونوا بذلك حائلا بين فرنسا  
وبين اطماعها في الشرق ، ويفسر بلنت نفسه مسلك  
جمبتا هذا التفسير ، ويقول أن من نتائج المذكرة أن بات  
الناس يتجهون نحو السلطان كمنقذ لهم ، وأصبحوا  
ينظرون الى عرابي أنه عضد السلطان في مصر والحصن  
الذي تحتمى فيه الآمال بعد أن يثسوا كل اليأس من  
توفيق . . .

ويظهر أن عرابيا كان يميل من زمن الى أن يجعل  
من خطته الاعتماد على السلطان ، ولعل بلنت فهم ذلك  
من أحاديثه معه ، نجد اشارة الى ذلك في قول بلنت عن  
اثر المذكرة المشتركة « وجد المصريون أنفسهم لأول مرة

مرتبطين كل الارتباط فان الشيخ محمد عبده ومن معه من المعتدلين من أنصار الإصلاح الازهرين ألقوا بأنفسهم في زمرة الحزب الذى سبقهم بخطوات ، وشعر الناس جميعا حتى الشراكسة شعور الاشمئزاز من التدخل الأجنبى ، ومن ناحية أخرى فان أشد الناس نفورا من الاتراك من عنصر القوميين ومنهم صديقى الازهرى الشيخ الهجرسى ، أصبحوا يرون أن عرابيا كان على حق فى اعتماده سرا على السلطان . . . وبهذا كسب عرابى كسبا عظيما فى ذهاب الصيت والتوقير ، ولم أسمع لعدة ايام بعد ذلك من اصدقائى المصريين الا الكلام عن الجامعة الإسلامية .

وانعم على عرابى برتبة الباشوية ، وهو يقول انه قبلها هذه المرة كارها ، فلولا أن المنصب كان يقتضى قبولها ما قبلها ، وأما عن قبوله المنصب ، فما نظن أنه كان يستطيع أن يبقى بمعزل عن الوزارة وقد صار له فى سياسة البلاد هذا الشأن بعد حادث عابدين ، وأنا لنعجب أشد العجب للذين يعيرون رجلا لقبوله منصبا من المناصب ، ويتخذون ذلك القبول دليلا على أنه يبتغى الخير لنفسه فحسب ، فهل كانت المناصب عند الناس جميفا وسيلة الى اشباع المطامع وجلب المنافع ؟ وأى شيء يجعل هذا لازمة حتمية للمنصب ؟ وأى شيء يمنع من أن تكون المناصب عند بعض الناس وسيلة لتحقيق غاية جليلة شريفة هى العمل للمصالح العام ؟ وأى قرينة تمنع أن نسلك عرابيا فى سلك هؤلاء الداعين الى الخير العام ، الذين يتخذون من المنصب أداة لخدمة المجتمع ؟ ان أبسط قواعد العدالة تضع المتهم على قدم المساواة مع البرئ حتى تثبت ادانته ، فاية ادانة يلصقها بعرابى أولئك الذين عابوا عليه دخول الوزارة ؟

انهم اذ يتهمونه بالسعى لصالحه هو لا يعدون بذلك حد التهمة ، فله على أسوأ الفروض موضع البريء من العدالة حتى تثبت ادانته ، وما أيسر أن تكال التهم لاي فرد من الناس في غير حساب ، وما أصعب البيئة على الذين يفترون الكذب وهم يعلمون ...

ان الذين يرون في الحكم مغنما لهم ، انما هم أولئك المفرطون في حقوق اوطانهم الموالون للدخلاء فيها ، والمستضعفون من الرجال ، والذين في قلوبهم مرض ، والمفترون بأوهام الحياة والمآلثون بطونهم كما تأكل الانعام ، أما أولو النخوة والعزة من الرجال فلن تلهيهم عن دوافع أنفسهم الحياة الدنيا وزينتها ، ولن تطفئ الحمية في قلوبهم ما يحل به الاغرار صدورهم من أوسمة ، أو تزدهى نفوسهم الكبيرة الالقاب والرتب ، أو يزيغ بريق الذهب ابصارهم عن الحق ، لان هذه جميعا عندهم مظاهر وهم يحتقرون كل مظهر اذ يطلبون الجوهر . ومن كان في هذه الدنيا كبيرا بنفسه فما به حاجة الى أن يتكبر ، ومن تكبر وهو بنفسه صغير ، فلم يعد أن أضاف الى حقارة نفسه ما هو أحقر .

ولو كان عرابي من ذوى الاطماع الشخصية لرأيناه يتنكب طريق الجهاد ، ولرأينا الضعف يتسرب الى نفسه فتفتر حميته وتبوخ وطنيته . وما ضعف عرابي وما استكان حتى بما منى به من محنة يوم التل الكبير لا بأيدي الأثمين الطامعين من الاجانب فحسب بل بأيدي الخوانين المارقين من بنى الوطن ، وظل حتى هزيمته الرجل الذي يخشى جانبه وتتقى غضبته ، ولقد رأينا كيف أرسل اليه مالت يحاول أن يهديء خاطره عقب المذكرة المشتركة ، ولو أنه كان ممن يشترون بالمال لأمكن شراؤه كما اشترى بعد ذلك سلطان مثلا الذي



كان يتظاهر بأنه من أكبر أنصار الحركة القومية ، ولكن عرابيا كان مؤمنا بجهاده مخلصا لقضيته فارتضى أن يخوض غمار الموت وأن ينفى بعد ذلك من الوطن وأن يسلب جميع ما ملك .

ورفض عرابي أن يكون وليا لذوى الغايات والاطماع، جاء في مذكراته عن نوبار باشا قوله : « أرسل إلينا أحمد قبودان البكرى من موظفى بوغاز الاسكندرية ليشكرنا على انقاذ الوطن من ظلم الظالمين وجور المستبدين ويعرض علينا أنه مستعد لأن يقود حركتنا الوطنية بصائب رأيه اذا دعوناه الى رئاسة الحكومة واعتمدنا عليه وسلمنا أمورنا اليه ، فعجبنا لذلك ، وأجبناه بأن مبدأنا هو أن تكون مصر للمصريين ، وللنزلاء عندنا حسن الضيافة ومزيد الاكرام . وانا لا نجهل الادوار التى لعبها نوبار باشا فى مسألة تغيير قواعد فرمان الوراثة الخديوية ، وفى مسألة تشكيل المجالس المختلطة فى مصر ، تلك المجالس التى صرف عليها ١٢ مليوناً من الجنيهات من أموال المصريين المساكين على يده ويسعيه ، وكان هو أكبر مساعد للمستبدين وله الحظ الاوفر من تلك الفنائم » .

ويذكر كذلك عن البارودى أمرا خطيرا قال : « وفى أوائل شهر يناير سنة ١٨٨١ خلوت بالمغفور له محمود باشا سامى ناظر الجهادية فأطنب فى الثناء على لقيامى بنشر راية الحرية فى مصر وملحقاتها من بعد مضى خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون فى قيود الاستبداد والاستعباد ، ثم أقسم انه مستعد لأن يضحي بحياته ويجود بآخر نقطة من دمه فى تنفيذ رغبتى ، ويجرد حسامه وينادى باسمى خديويا لمصر اذا رغبت فى ذلك ، فقلت له : مه يا محمود باشا فانى لأريد الا تحرير بلادى

ولا أرى سبيلا لنوالنا ذلك إلا بالمحافظة على الخديو  
كما صرحت بذلك مرارا وتكرارا ، وليس لى مطمع أصلا  
فى الاستئثار بالمنافع الشخصية ، ولا أريد انتقال الأريكة  
الخديوية الى عائلة أخرى لما فى ذلك من الضرر .

ولقد كان عرابى كبير النفس كبير الآمال ، فكان  
المنصب عنده وسيلة من وسائل الجهاد ، وبابا من  
أبوابه ، فما يعيبه أن يقبل الحكم ، وإنما يعيبه أن يعرض  
عن الحكم وبخاصة فى مثل تلك الشدة التى ساق فيها  
الطامعون البلاد على غير إرادتها ، والذى يصعد قبول  
الحكم فيها تأهبا للذود عن ثورة الحق على الباطل . . .



على أن الناس ما كانوا ينظرون الى عرابى نظرتهم الى  
وزير من الوزراء فحسب ، بل لقد كانوا ينظرون اليه  
نظرتهم الى الرجل الذى تعلق عليه الآمال فيما كانت  
البلاد مقبلة عليه ، وكانت تقوم نظرتهم اليه على ما بلوا  
بأنفسهم من اخلاصه ، وما شهدوا من بسالته وحميته  
وبخاصة فى يوم عابدين المشهود ، وعلى ذلك فما زاده  
المنصب فى أعين الناس ما يطلبه غيره ليزداد به من مظاهر  
الجاه ، وأى شرف يطمع فيه الرجل أعظم من أن يكون  
فى بنى قومه معقد الرجاء وموضع الثقة . ؟

ولقد كان عرابى فى الوزارة اذا أردنا الحق أكثر من  
وزير ، فكانت الكلمة كلمته وكان الراى زاىه أراد ذلك  
أو لم يردده ، ونقول أرادده أو لم يردده لأنه بات فى الزعماء  
رجلا ليس لاحدهم مثل ما له فى قلوب الناس من مكانة  
وسحر . . . وهل كان سعد فى كرسى الرئاسة كغيره من  
رؤساء الوزارات ، ليس لشخصه من تأثير فى قلوب  
الناس إلا ما تبعثه هيبة المنصب ورهبتة ؟ أم كان سعد  
فى الناس رجلا غير ما ألفوا ، تحف به هالة من أمجاده

فتخلق له شخصية وسطا بين الملائكة والناس ؟ وهل  
ازداد سعد بالمنصب شيئا في أعين الناس أم أن المنصب  
هو الذي ازداد به علوا ومهابة ؟

على هذا القياس صور لنفسك شخصية عرابي بين  
قومه يومئذ فلقد صار له من المكانة بعد يوم عابدين مثل  
ما صار لسعد من بعد في قومه ، فهو الرجل الذي تتمثل  
في شخصه ثورة أمة ويجتمع فيه تاريخ حركة ، لذلك  
فهو بين الناس أكبر من أن يكون أحدهم ، تحيط به هالة  
من السحر تلقى في روع محدته أنه تلقاء تاريخ يحدث  
اثره لا تلقاء رجل يعيش كما يعيش الناس ...



أما الفلاحون وأعيان البلاد ممن كانت تقاس أقدار  
الرجال عندهم بالالقاب والمناصب ، فقد كبر عرابي في  
أعينهم وازداد قدرا في أنفسهم ، وأصبح هذا الفلاح  
الباشا الذي يجلس على كرسي وزارة الجهادية موضع  
أحاديثهم كلما تذكروا فيما بينهم أحداث البلاد في  
ذلك الوقت .

ولست أريد بقولي أن الرأي كان رايه أنه كان يستبد  
بالامر ، أو كان يأخذ السبيل على البارودي فيما يريد  
من قول أو عمل ، وإنما أريد أن البارودي وغيره من  
الزعماء ما كانوا يخطون خطوة إلا على بينة مما يكون  
فيها مما عسى أن يرضى عرابيا أو يفضبه لانه بينهم ،  
وان لم تكن له الرئاسة الرسمية ، الزعيم الذي تشايحه  
البلاد ، والذي استقر في أذهان أهلها وقلوبهم أنه موضع  
الامل ومناط الرجاء ...

وقد بدأ عرابي باشا عمله في الوزارة بارسال مكتوب  
الى جميع وحدات الجيش يعلن اليهم نبأ تعيينه فقال :  
« حيث أن مسند نظارتي الجهادية والبحرية الجيلتين

قد أحيل الى عهدتنا من طرف الجناب الخديو المعظم ،  
بارادة سنية موشحة بتاريخ ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٩٩  
نمرة ١١ فاعتفادى ووثوقى بمساعدة حضرتكم وعموم  
حضرات الضباط والصف العساكر والعساكر فى القيام  
بواجبات هذه النظارة مع الاستمرار فى سيرها على المحور  
اللائق ، الموافق لنص أحكام القوانين العسكرية ،  
قد جرائى على قبول هذا المسند الجليل حالة كونى عالما  
بما أنتم عليه من وثوق حضرة الجناب الخديو بنا ،  
ولهذا لزم تحريره لحضرتكم اخطارا بما ذكر وأعلان كافة  
الضباط والصف وعساكر الآلاى ادارة حضرتكم وفقنا  
الله جميعا لما فيه النجاح والاصلاح ...



واخذ عرابى يقوم بتنفيذ الفوائى الخاصة باصلاحات  
العسكرية التى كان يطالب بها رياضيا وشريفا من قبل ،  
وتناول بالترقية كثيرا من المصريين فى الجيش وقد حظى  
بالباشوية كل من على فهمى وعبد العال حلمى وطلبه  
عصمت وعلى الروبى وحسن مظهر ويعقوب سامى ...  
وقد تألم العنصر الشركسى لهذه الترقيات ، وعدّها  
زعماء الشراكسة صورة من صور الفوضى والتعصب فى  
الوزارة ، كان النظام كل النظام أن يرقى الشراكسة ،  
وأما أن يرقى المصريون الفلاحون فذلك هو التعصب  
الدموم وهو الفوضى الجامحة .

ولن يقتصر هؤلاء الشراكسة على الصخب والعيب ،  
بل سوف يعملون على الانتقام ، كأنما كان المصريون  
يسلبونهم حقا من حقوقهم ، ونسى هؤلاء أو تناسوا ما  
كان يفعل رفقى من قبل ...

واتجه عرابى الى اصلاح شأن وزارته فبث فيها  
النشاط والجدة. قال روشتين : «وقد جد عرابى بنوع

خاص في اصلاح نظارته التي كانت في منتهى الفوضى والخراب ، وذلك ليستعد للطوارئ كلها فأظهر همة فائقة في اصلاح حصون السواحل ، ونظم احتياطى المدفعية ووزعه على تلك الحصون » .



وأحسن عرابى في منصبه الجديد الظهور بمظهر الوزير في غير صلف أو ادعاء . وصفه بثلث حين زاره بعد أزمة المذكرة يحمل اليه نبأ وساطته لدى جلادستون قال : « قفلى راجعا الى القاهرة في سرور وقد تسلمت بما علمته من حسن نية جلادستون واستطعت ان اخبر عرابيا اننى لم اؤكد له عواطفى نحوه عبثا ، وقد وجدته في ديوان وزارة الحربية يحيط به اصدافاؤه ، وكان يتحدث مع بطريك الاقباط ، ومع طائفة من اهل الملق من الاوربيين واجناس شرقى البحر الابيض المتوسط ممن جاءوا يحيون هذه الشمس المشرقة ، وقد ظهر فيهم الوزير الجديد في حسن سميت وسمو كانا به لائقين ، فلم يلبث بعد ذلك الجندى قائد الفرقة ، ولكنه اضحى رجلا تمتلىء مشاعره بالمسؤولية العامة ، وكان لا يزال بعد فلاحا ولا يزال وطنيا ولكن في صورة الرجل السياسى ، وقد انتحى بى جانبا فأطلعته على كتاب جلادستون وقلبناه بيننا في سرور وعددناه رسالة ذات قال طيب ... »

## وطنية لا ترق

حل البارودى محل شريف وفي البلاد ما فيها من اثر تلك المذكرة التى جاءت فى تلك الظروف التى بينا دليلا على سوء تدبير واضعيتها وعلى قصر نظرهم ورعونتهم ، ولكن ما لنا نشير الى قصر نظر الدولتين فيما فعلتا ونحن لا يتدخلنا شك فى انهما كانتا تريان عاقبة فعلهما ، وانهما انما ارادتا اثاره الخواطر وزيادة اسباب الخلاف بين الخديو وزعماء البلاد المدنيين منهم والعسكريين ، فبهذا يتيسر لهما الوصول الى الغرض المرسوم . . .

وكان طبيعيا ان يسير البارودى على نهج غير الذى سار عليه شريف ، فهو بحكم مركزه بين الزعماء العسكريين ، وبحكم الظروف التى ادت الى استقالة شريف ، لم يكن ليستطيع ان يحمل نفسه على الهوادة والملاينة ، والا فقيم كان احراج شريف ثم اخراجه من الحكم . . . والامر قبل كل شئ امر كرامة الوطن تلقاء تحدى الاجانب وتحرشهم السخيف الاثم بحريته . . .

ومن ذلك يتبين لنا ان البارودى لم يكن له منتدح عن السياسة التى جرى عليها ، وان مردها فى الحق الى مسلك الدولتين وعلى ذلك فمن الظلم ان نرجع باللوم كله على تلك الوزارة فيما أبدت من تطرف ، فان جانبا كبيرا من اللوم ، بل لعل اللوم كله يقع على الذين دفعوا



الوزارة بقبح تدبيرهم وسوء نيتهم في تلك الطريق التي ما لبثت أن رأت نفسها فيه تخرج من أزمة لتدخل في أزمة غيرها ...

وهكذا تدفع الدولتان البلاد في طريق الثورة دفعا ثم تتهمانهما مع ذلك بالفوضى وتجعلان من مبررات تدخلهما القضاء على الفتن والقلق الداخلية وانها لمن صنعهما.. ولن يكون في صدور الظلم أبلغ وأوجع من أن يضرب مضعوف فوق رأسه فاذا تأوه ونفر من ألم الضرب عد تأوّه جموحا ونفوره ثورة !..

كان على وزارة البارودي من بادىء الامر أن تواجه أزمة الميزانية ، وقد نجمت هذه الأزمة كما رأينا من تجنى الدولتين على البلاد ومن غضب نواب الشعب لكرامة بلادهم واستمساكهم بحقوقهم تلقاء باطل أعدائهم ، وكان من الطبيعي أن تعمل وزارة البارودي ، أحد الزعماء العسكريين ، والتي كان عرابي نفسه أحسد وزرائها ، على تحقيق آمال البلاد ، بل لقد كان أمرا حتميا على هذه الوزارة أن تفعل ما كانت مقدمة على فعله ، فعلى هذا الأساس كان قيامها بالحكم ...

وما أسخف كلام المطلقين وأرذله تلقاء هذه الحقيقة التي تنهض الحوادث دليلا عليها ! أجل ما أرذل أن ترمى وزارة البارودي بالنزق والعناد والرغبة في إثارة الفتنة ، كالذي يأخذ على شخص طريقه في غير مبرر فاذا طلب اليه أن يخلي سبيله انتهره وتوعده ، فاذا خطا خطوة ليتقدم رماه بالشطط والجنون وخوفه عاقبة أمره !..

لقد قامت وزارة البارودي على ارادة الأمة ، لامراء في ذلك ، فان النواب حينما أظهروا لشريف أسفهم أن يكون المجيب لمطالبهم رجلا غيره ، وحينما ذهبوا الى الخديو يشكون اليه حالهم كانوا معبرين في ذلك عن

مشيئة الامة ، وآية ذلك ان الخديو لما سألهم بأى حق يطلبون اقالة شريف قالوا : هذه ارادة الامة . ولم يسع الخديو الا ان يدعن ، ولكن على طريقته فى الاذعان ريثما تسنح الفرصة ، فدعا شريفا والقنصلين الاجنبيين وعرض عليهما الامر ، فلم يكن أمام شريف غير الاستقالة ، ثم ان الخديو سأل زعماء النواب عما يرضون لرئاسة الوزارة ، فبعد ان بينوا له ان ذلك من حقه اختاروا البارودى واشترطوا ان يكون قيام وزارته على أساس اجابة مطالب النواب (١) .

ولقد اُضيف الخديو الى اخطائه خطأ جديدا بقبوله هذا الوضع ، فمن حقه وحده اختيار رئيس وزرائه ولكنه خطأ حتى هذه الخطوة بإشارة القنصلين ، فلقد أوهماه ان فى هذا خيرا له ، فبه يخلو من التبعية ويلقيها على عاتق النواب والزعماء . . ولكنهما كانا فى الواقع يريدان أن يوسعا مسافة الخلاف بين الخديو ونواب البلاد ، ومن السهل عليهما أن يوحيا اليه على لسان أعوانهما بعد ذلك أنه أصبح وليس له من الامر شيء .

على أن مالت وكلفن وأشياعهما ما لبثوا أن راحوا يذيعون المفتريات فى مصر وفى أوروبا عن الوزارة ويرمونها بكل باطل الاتهام ، فهى وزارة عسكرية لاتعرف سياسة أو تنظر فى عاقبة أمر من الامور ، وأنما قوام أعمالها العنف والثورة ، وهى وزارة لا تحسب لاي سلطة غيرها حسبا فليس للخديو وجود فعلى بازائها ، وليس للأجانب على ما لهم من ديون فى مصر حق أو شبه حق الى غير ذلك من اللغو والافك . . .

أما عن عرابى فقد خرج بأوفر نصيب من التهم

---

(١) مقدمة كتاب « التاريخ السرى » ترجمة البلاغ ، والمقدمة بقلم الأستاذ عبد القادر حمزة .

الباطلة ، ومن هذه التهم مانسبته اليه جريدة التيمس من أنه تهدد شريفا ، وأنه شهر سيفه في وجه سلطان وهدده بتيتيم أطفاله في صدد الخلاف على مسألة لائحة المجلس ، ولقد كان مالت من مروجى هذه الاشاعة ومن المتمسكين بها ، بل لقد ذهب مالت الى اكثر من هذا فأثبت في يومياته كذلك أن الخديو ما قبل استقالة شريف الا تحت تأثير تهديد لا يقل عن هذا ...

ويذكر بلنت انه يرجح ان الخديو هو مصدر هذه الفرية لما كان يبدو منه يومئذ من بالغ الحققد على الوزارة ، وقد أصبح لهذه الفرية خطرهما حين أرسل مراسل روتر الى أوربا يزعم ضغط العسكريين على شريف

قال بلنت : « ومع ما يبدو من سخف هذه القصة فقد غضب منها سلطان غضبا شديدا ، ولما كنت يومئذ معروفا لدى النواب بأنى ضديقهم طلب الى سلطان لقاءه وسألنى أن أحمل الى مالت انكاره القصة كلها انكارا تاما ، وعلى ذلك توجهت الى بيت سلطان باشا حيث جمع عددا كبيرا من النواب ومن علية القوم ومن بين هؤلاء المفتى الأكبر العباسي وعبد السلام المويلحي بك وأحمد السيوفي بك وأحمد محمود أفندى وهمام حمادى أفندى وشديد بطرس أحد كبار نواب الاقباط وقد أنكر هؤلاء جميعا مع سلطان أنهم عملوا تحت أى اكراه ، وتكلم سلطان فى غضب عن سخف القصة فيما يتصل به قائلا : ان أحمد عرابى بمثابة ابن لى ، وهو يعرف ما هو من حقى وما هو من حقه ، فمكاني فى البرلمان ومكانه فى وزارة الحربية وجدير به أن يطلب نصحى لا أن يجرؤ على أن ينصحنى فيما يعنينى من الأمور ، وأما عن شهره السيف فى حضورى فانه لا بفعل ذلك الا تلقاء عدو يهاجمنى ، وهذه قصص لا يصدقها من يعرفنا كلينا

وانها لباطلة كل البطلان وتستطيع ان تأخذ على اليقين ان اقل عضو هنا ممن يمثلون الشعب احسن حكما على مطالبه من اكبر جندي . اننا نحترم عرابيا لاننا نعرفه وطنيا ورجلا ذا فطنة سياسية لا لانه جندي .

وقد اثبت كلمات سلطان باشا هذه في حينها ، وقد اشتكى الى هذا الشيخ من سياسة مالت وتعريضه مخترعى الاباطيل وطلب منى ان اطلعه على الحقائق وان ابرقها الى جلادستون واذيعها في الصحف الاوربية وقد فعلت ذلك على خير ما يدخل في وسعي ، فارسلت نصا كاملا منها الى « التيمس » ومع ذلك فانها على ما اذكر لم تنشره لسبب ما ، وكذلك ارسلت تلفرافا بالمعنى نفسه الى مستر جلادستون ، ثم كتبت اليه كتابا مطولا اشرح فيه الموقف كله .

وذهبت من فوري الى مالت وناقشته في شدة ولكنه اصر على صدق قصته التي استقاها كما اخبرني اول الامر من سلطان نفسه والتي عاد يقول انه استمدتها ممن يمكن الاعتماد عليه ، ولما ألححت عليه ان اعرف من هو المصدر غضب وقال انه ليس لي من حق ان استجوبه على هذه الصورة .

هذا هو كلام بلنت عن هذه الفرية ، وما اجمل ما وصف به سلطان عرابيا فهو لا يحترمه لانه جندي ولكنه يوقره لوطنيته ولقدرته السياسية ، ومثل هذا الكلام لا يصدر عن مثل سلطان عن خوف او تملق ، فقد كان اكبر من ان يخاف او يتملق ، وهو بطبعه شديد الكبر كثير المباهاة بجاهه والاعتزاز بثروته بل ان صدور هذا الكلام عن رجل هذه صفاته انما يزيد في قيمته ويجعل منه وثيقة خطيرة ندعو الذين يجهلون حقيقة عرابي الى قراءتها في روية وحسن طوية ...

ويذكر بلنت ان التيمس لم تنشر تكذيبه لسبب ما ،  
والامر واضح لايحتاج الى طويل شرح ، فالتيمس  
وامثالها من الصحف الانجليزية تخدم قضية الاستعمار  
ابدا ، وهى خير من يدرك نيات السياسة فى بلدها وأول  
من يطلع على حقائق الأمور ، فلم تكن تجهل يومئذ ما كانت  
تبيتة أنجلترا لقضية الاحرار فى مصر ، بل وما كانت  
تتويه السياسة الانجليزية العليا من الاستيلاء على مصر  
قبل ان تستولى عليها ، ولذلك فما كانت لتنشر رأيا  
مثل هذا الراى يأتى على لسان رجل مثل بلنت فيكون  
به من الانجليز شاهدا من انفسهم عليهم ...



فى مثل هذا الجو الذى كدرته دسائس الماكريين  
والطامعين ، راحت وزارة البارودى تعالج ماكانت تشكو  
منه البلاد ، ومن ورائها نواب الامة يشدون أزرها وانهم  
ليعلمون ما كان يحيط بوطنهم من الكيد والاعنات .

وأحس البارودى من أول الامر بتزايد الجفاء بينه  
وبين الخديو ، فما كان ليسيغ توفيق أن يصبح الامر  
بينه وبين الوزارة قائما على غير ما ألف من مبادئ  
السيطرة ونوازع الاستبداد ، ولكن الوزارة استعاضت  
عن معونة الخديو بمؤازرة البلاد ...

وكان أول ما واجهته الوزارة تلك المشكلة التى خلقها  
الكائدون وهى مسألة الميزانية ، أو بعبارة أخرى لأئحة  
المجلس التى استقال بسببها شريف أو أجبر فى الحق  
على الاستقالة ...

ويجمل بنا ان نأتى بالحديث على سرده فى هذه المسألة  
لنتبين الى أى مدى كان افتيات الدولتين على البلاد ،  
وليرى الدين رموا حركتها الوطنية ورجلها بمختلف  
التهم مبلغ ما فى مزاعمهم من جهل أو عدوان ...

جاء في خطاب شريف باشا الذى تقدم به الى المجلس بعد انعقاده قوله : « فانه لم يحجر عليكم فى شيء ما ، ولم يخرج امر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم ، انما لا يخفاكم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما اوجب عدم ثقة الحكومات الاجنبية بها ، ونشأ عن ذلك تكليفها بترتيب مصالح ، وتعهداتها بالتزامات ليست خافية عليكم ، بعضها بعقود خصوصية ، والبعض بقانون التصفية ، فهل ييسر للحكومة ان تجعل هذه الامور موضعاً لنظرها او نظر النواب ؟ حاشا لانه يجب علينا قبل كل شيء القيام بتعهداتنا وعدم خدشها بشيء ما ، حتى نصلح خللنا ، وتزداد ثقة العموم بنا ، ونكتسب امنية الحكومات الاجنبية ، ومتى رأت منا تلك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتنا بحسن اخلاص بدون مساعدتها فنتخلص شيئاً فشيئاً مما نحن فيه ! »

بهذه الكلمة مهد شريف لخطته فيما يتعلق بلائحة المجلس ، او ما نسميه دستوره وبخاصة فيما يتصل بالميزانية ثم جاءت اللائحة تحرم على المجلس النظر فى الميزانية ...

ولقد كان المجلس يطمع فى ان ينظر فى الميزانية ما دام هو القيم على حقوق البلاد ولكن الحكمة قضت عليه ان يتواضع فيقبل كما اسلفنا النظر فى نحو نصف الميزانية وهو القدر الباقي بعد الجزية وما يقتضيه قانون التصفية ، ففعل ذلك ولكنه لم يفد واأسفاه من حكمته شيئاً ، فقد كبر على الدولتين ان ينظر المجلس حتى فى هذا القدر فرمتاه بالمذكرة المشئومة التى كان من نتائجها ما رأينا من تطرف المعتدلين وثورة المتطرفين والتقاؤهما جميعاً ، وتمسكهم بالنظر فى الميزانية مهما يكن من



العواقب ، الامر الذى أطاح بوزارة شريف وأحل محلها  
وزارة البارودى ...

وجاءت وزارة البارودى فلم يكن أمامها الا طريق  
واحد ، هو السير وفق رغبة النواب والرأى الوطنى العام  
فى البلاد ، فخطت هذه الخطوة معتمدة على حقها مستندة  
الى مؤازرة الامة اياها ، فكان ما قررته فى مسألة الميزانية  
ما يأتى : « لايجوز للمجلس ان ينظر فى دفعيات الويركو  
المقرر للاستانة أو الدين العمومى أو فيما التزمت به  
الحكومة فى أمر الدين بنساء على لائحة التصفية أو  
المعاهدات التى حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية »

« وترسل الميزانية الى مجلس النواب فينظرها  
ويبحث فيها ، بمراعاة البند السابق ، ويعين لها لجنة  
من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لأعضاء مجلس النظار  
ورئيسه ، لينظروا جميعا فى الميزانية ويقرروها بالاتفاق  
أو بالأكثرية »

ووافق المجلس على اللائحة الجديدة التى تقدمت بها  
اليه وزارة البارودى ، وكان هذا الرأى الأخير أعنى  
تكوين لجنة من أعضاء المجلس مساوية فى العدد لأعضاء  
مجلس النظار قد عرض كحل من الحلول على وزارة  
شريف ، فأبت الدولتان قبوله ، فلما قضت وزارة  
البارودى فى الامر حسب مشيئة النواب ، ثارت ثائرة  
الدولتين اللتين جاءتا لنشر روح المدنية والحرية فى  
الشرق ...

ولقد جعلت الوزارة الامر للأمة فيما اذا وقع خلاف  
بين المجلس والوزارة ، فنص فى دستور المجلس أو  
لائحته الأساسية ما يأتى : « اذا حدث خلاف بين مجلس  
النواب ومجلس النظار ، وأصر كل على رأيه بعد تكرار  
المخاطبة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة فللحاضرة

الخدوية أن تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ألا تتجاوز الفترة ثلاثة أشهر من تاريخ يوم الانقضاء إلى يوم الاجتماع ، ويجوز لأرباب الانتخاب أن ينتخبوا نفس النواب السالفين أو بعضهم »  
« وإذا صدق المجلس الثاني على رأى المجلس الأول الذى ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأى المذكور قطعيا »

وقد فرح النواب ، وفرح الناس جميعا من وطنيين وعسكريين لصدور اللائحة أو الدستور ، وأخذت مصر تستقبل عهدا دستوريا كان يعد بداية طيبة جدا للديمقراطية فى مصر ، بل وفى الشرق كله ...

ويتجلى فرح مصر فى تلك الحفلات التى أقيمت غداة صدور الدستور ، ومنها حفلة جمعية المقاصد الخيرية وكانت بالفة الروعة والجلال وقد شهدها البارودى ، وعرابى ، وجمهور كبير من العلماء والاعيان ، ورجال الجيش ، وتبارى الخطباء وفى مقدمتهم السيد عبد الله نديم فى بيان مزايا الدستور وإعلان ابتهاج النفوس به ، والشيخ محمد عبده الذى دعا إلى نشر التعليم ليقوم الدستور على أساس سليم قوى .

ومن تلك الحفلات حفلتا نائبى البحيرة الشيخ أحمد محمود وأبراهيم أفندى الوكيل ثم حفلة أحمد بك أباطة وحفلة أحمد بك يكن وغيرهم ، وتدل هذه الحفلات دلالة بينة على أن روح الحرية والدستور كانت متغلغلة فى نفوس مثقفى الأمة ، وأن البلاد كانت تنهض فيها حركة قومية حرة لو أنها حدثت فى بلد غير مصر لم يرزأ بالاحتلال لكان لها فى سجل الحركات القومية العالمية شأن جليل ، وما يضيرنا اليوم ما فعل الاحتلال بتاريخنا القومى ، وقد خطونا خطوات لن يكون بعدها تكوص ...  
رأينا الحل الذى عالجت به وزارة البارودى مشكلة

الميزانية ، ذلك الحل الذى من أجله حقت عليها لعنة الدولتين ، وحق عليها عقابهما ، مع أنه لا يمكن أن يكون هناك تساهل فى مثل هذا الأمر وفى مثل هاتيك الظروف أكثر من هذا التساهل الذى جرت عليه الوزارة . . .

هؤلاء نواب شعب يجتمعون باسمه للنظر فى صالحه ، فكيف يتسنى لهم ذلك أن لم يكونوا قوامين على ماليته وهى أساس كل شيء ودعمه كل إصلاح ؟ وكيف يكون الحكم قائما على أساس ديمقراطى إذا حيل بين نواب الأمة وبين النظر فى الأموال التى تجبى من أفرادها ؟

وإذا كانت لمصر ظروف خاصة ناشئة من ديونها التى لم يكن لأهلها يد فيها ، فأى شيء كان يطمع فيه من نوابها أكثر من أن يتركوا ما يتعلق بالدين دون تدخل فيه ؟ . .

ولكن الدولتين كانتا تحاربان المجلس فحسب مهما بلغ من اعتداله وحكمته ، كانتا تحاربانه فتحاربان فيه الوطنية المصرية ، لأنها ان ازدادت قوة ضاعت الفرصة وخرجت مصر سالة مما كان يدبر لها ، أنظر الى الاحتجاج الذى كتبه المراقبان الاجنبيان فى ١٢ يناير سنة ١٨٨٢ عندما علما بنية النواب فى وزارة شريف قالا (١) « يظهر أن مجلس شورى النواب يتهاون لان يطلب حق تقرير الميزانية ، ولهذا نرى من واجبنا أن نقول : ان اعطاء النواب هذا الحق ولو اقتصر على الإدارات والمصالح التى تخصص إيراداتها للدين يفسد الضمانات المعطاة للدائنين ، لانه سيكون من نتائج الضرورية أن تنتقل إدارة البلاد من يد مجلس النظار الى يد مجلس النواب »

ولا تسئل عن مبلغ غضب هؤلاء الطامعين الكائدين لمصر

---

(١) تعريب الأستاذ عبد القادر حمزة من كتاب دى فرسـنيه « المسألة المصرية »

لى وزارة البارودى حينما حلت المشكلة على النحو المتواضع الذى بيناه ، فلقد انطلقت السنة الساسة منهم مع السن السفهاء من مراسلى الصحف بكل فاحشة وجارحة فى الوزارة والنواب جميعا على نحو خلىق بأن تخجل منه الانسانية ، فهذا نظام موضوع بأسره تحت سيطرة جيش ثائر كما صورته كلفن فى تقاريره ، وهذه وزارة جامعة تسوق مصر الى الخراب ، وهؤلاء نواب لا يعرفون من معانى الوطنية الا التعصب الاعمى فضلا عن جهلهم وضيق عقولهم . . .

كتب مالت يصف النواب قائلا (١) « ان ما يتظاهرون به من طموح الى العدل والحرية قد انتهى بأن حلت سلطة الجيش الفاشمة محل كل سلطة مشروعة » .

وقال كوكسن يصف قانون الانتخاب الذى وضعته الوزارة النسامية : « ان الفرض منه فى هذا البلد ان تكون كل المزابا الانتخابية لمن رشحتهم السلطة الحاكمة الآن وهى سلطة الجيش » .

وليس بعجيب ان يبلغ حنق هؤلاء على الحركة الوطنية القومية هذا المبلغ ، ذكر الشيخ محمد عبده فى مذكرات متتابعة مرقمة أثبتها فى ورقة لعله كان يجمع فيها عناصر فصل يكتبه وأوردها بنصها مترجمه الشيخ رشيد رضا (٢) . قال الاستاذ الامام : « مجلس النواب قرر تعيين لجننتين للتحقيق فى بعض الشكاوى التى رفعت على مصلحة المساحة وعلى ادارة الجمارك وظهرت وجوه الخلل فى أعمال الموظفين الاوربيين ، وتحقق ما كان يخشاه المراقبون من مقاصد المجلس ، وقد رفض مسيو كاليار

---

(١) المسألة المصرية لروستين

(٢) تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده الجزء الاول . ص ٢٤٠

مدير الجمارك ان يحضر جلسات التحقيق وعارض في أعماله « ...

» وقف المجلس على تقرير قدم للمراقبين من أحد موظفي الدومين المسمى «روفسل» يطلب فيه مراقبة المجلس حيث أعطى الفلاحين آمالا في أن يصلوا بالطفرة الى ما يقال من حریتهم ، واشتكى من ان المدير لا يحبس في الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل ، ومن أن كل شخص يحبس بغير أمر قضائي يرسل بالتلفراف الى نائبه ، وعلى ذلك يسأل المدير عن السبب في الحبس ، وهذا تظاهر من الاهالى بالاحوال الجديدة التى يبنون عليها حریتهم وخلصهم « ...

وأوعز مالت الى وكلائه في الاقاليم أن يكتبوا تقارير عن مبلغ ما وصلت اليه الحال من سوء في البلاد ، وأرسل هذه التقارير الى حكومته ، وبلغ من الجراءة على الحق ، بل بلغ من صفاقة أحد هؤلاء الطامعين أن كتب يندد بالغاء الكرباج فقال : وما أعجب وما أسخف ما قال (١) « ان الحاكم الشرقى اذا حرم كرباجه ، وحظر عليه أن يسجن من يشاء عجز عن سياسة قوم اعتادوا منذ القدم أن يخضعوا لحكومة فردية قوية ، ان الطريق الذى سارت فيه الحركة منذ عام ، جعل الفلاح يعتقد أنه يستطيع الوصول طفرة الى ما يسمونه له حرية . في حين أن ما اكتسبته هذه الحركة من قوة جديدة باسلام أزمة الامور الى طائفة من الخياليين النظريين ، جعل أثرها في السلطة على وجه العموم أثر الماء تصبه على قطعة من السكر » .

هذا ما قاله ذلك الانجليزى الذى تفتخر دولته بأنها سبقت الدول الى الحرية ، والتى ما فتئت منذ عهد

---

(١) المسألة المصرية لروثستين

كرومر في مصر تفاخر بأن معتمدها هو الذي أبطل  
السكرياج في هذه البلاد !

وانا لنسأل الدين يقرأون هذه المفتريات وأشباهاها ،  
والدين تتبعوا أساليب انجلترا وفرنسا في الكيد لمصر ،  
نسأل هؤلاء السادة الدين يعلمون هذا ، ومع ذلك  
يعيبون على عرابي وزملائه تطرفهم ، اكانوا يفعلون غير  
ما فعل عرابي وأصحابه اذا كانوا يحبون أوطانهم حقاً ،  
وكانوا يعيشون في مصر في تلك الايام ؟

أما الذين كانوا يجهلون هذه الدسائس التي تبثها  
انجلترا في مصر ، وحملوا لجهلهم بها على عرابي ما حملوا  
مجاراة منهم لما أشيع عنه ، فحسبنا أن نريهم حقيقة  
الأمر ونكل المسألة بعد هذا الى فطنتهم وضمائرهم .

وما ندافع عن عرابي الا لاننا نعتقد أنه ظلم ، وان  
الدين ظلموه هم أعداء البلاد الذين استباحوا ذمارها  
والحقوا بها الدل والهوان ...

وما يجدر بمصرى وبلاده فقيرة فقرها هذا في الإبطال  
أن يشايع الدين حاولوا أن يطمسوا بالباطل تاريخ رجل  
كانت البطولة في مقدمة صفاته ، فيصفون وطنيته  
ووطنية أصحابه بأنها نرق وفوضى ...

ولقد جعل الكائدون لمصر الجيش هدفهم فيما راحوا  
يشيعونه من مفتريات ، أنظر الى قول مالت في تقرير له  
عن « تزايد اختلال الأمن في البلاد لقلّة اكتراث الأهالي  
بأولياء الأمور الملكيين ، ويعزى ذلك الى سلوك رجال  
الحزب العسكري الذين لا يعاملون زملاءهم الملكيين  
بالاحترام الضروري لإدارة البلاد ، وقد أخذت الرشوة  
تعود الى سابق عهدها بين الموظفين ، ومما يساعد على  
انتشارها كثرة التغير والتبديل في كبار الموظفين » .

ثم يقول في وصف مازعمه من ضيق وقع فيه الفلاحون



في سبيل الحصول على المال « ويعزو الملاك قلة رؤوس الاموال وما هم فيه من الضيق الى سياسة الحكومة الحاضرة التي لا تبعث على الثقة بها ، ويجهرون بأنهم اذا عجزوا عن دفع الضرائب فالتبعة واقعة على الوزارة»

وليس بعجيب أن يسلك كل من ومالت وأشياعهما هذا المسلك في الطعن على الوزارة ، وقد ادركا ما كانت تنويه حكومتهما من العمل على تمهيد السبيل للتدخل المسلح بعد هذا التدخل السياسي ...

ولقد كانت تلك المذكرة المشئومة خطوة واسعة نحو هذا الغرض المرسوم ، فكان لابد أن تتفاهم الحوادث بسببها لتصل بالبلاد الى كارثة الاحتلال ...

كتب قنصل فرنسا الى حكومته يوم ٢٩ يناير يقول : « ان الرغبة البادية على مجلس النواب من جانب ، في أن يصير برلمانا ، والخطوة القوية التي رأت الدولتان من جانب آخر ، أن تختاراهما ، والتي كانت مذكرة ٧ يناير تعبيرا عنها هما السببان الجوهريان اللذان اصطدم كل منهما بالآخر فأوجدا الموقف الحالي »

وكتب كذلك يقول : « يمكن أن يقال ان الانقلاب الذي أحدثه مجلس النواب المصري هو جواب منه على مذكرة ٧ يناير فلقد اعلنا في هذه المذكرة أننا نحتفظ بالنظام الحالي ضد الجميع ، فأجاب المجلس على ذلك بأن غير هذا النظام تغييرا جوهريا وبذلك وضعنا أنفسنا في موضع صارت الضرورة قاضية علينا فيه بأن نتدخل أو نعدل سياستنا » .

وهذا الذي ذكره ذلك القنصل يصور الحال تصويرا صادقا ، وما كان موقف الدولتين يخفى على أحد من الوطنيين ، وعلى ذلك يقضى الانصاف على الذين يحكمون على أعمال رجال ذلك العهد وفي مقدمتهم عرابي أن

يضعوا في أذهانهم قبل كل شيء أطماع هؤلاء الساسة ،  
وأن يصوروا تلك الأعمال على هذا الاساس ...



مضت الوزارة في سبيلها غير عابئة بصراخ أعدائها لاتخاذل  
من دون غايتها ولا تستبعد الشقة ، وذلك على الرغم  
من انها كانت لا تتجاوز عقبة الا قامت في سبيلها عقبات  
ولقد قبع الخديو في زوايا العزلة ، وجعل الخوانون  
الغدارون بينه وبين وزرائه حجابا من الابطايل التي  
أحكموا نسجها ...

والواقع أن الخديو لم يكن على شيء مما كان يجب  
أن يتصف به من يضطلع بأعباء الحكم في مثل هاتيك  
الظروف فلقد كان مستطار القلب حائر اللب مما يجري  
حوله ، فهو لا يسيغ الحركة الوطنية ولا يستطيع أن  
يصالح عليها طبعه ، وهو مستريب في نيات الحكومة  
العثمانية نحوه ونحو عرشه ، وهو فرع مما يشاع من  
دسائس الأمير عبد الحليم ، بل ودسائس أبيه ومساعيه  
في مصر والأستانة على يد أعوانه ، ثم هو فضلا عن هذا  
كله قد بات تحت سيطرة الأجانب وبخاصة الانجليز  
منهم فما يقطع أمرا حتى يوافقوا عليه ، بل لا يخطو  
خطوة حتى يرى رأيهم فيها ...

ومن كان هذا شأنه في موقف كهذا الموقف الدقيق  
الذي كانت تفقه مصر من أعدائها يومئذ كان مثله مثل  
الراعى أحاطت الضواري بقطيعه فما يرجو أكثر من أن  
ينجو هو بنفسه ولو هلك القطيع جميعا ...

وكانت الدولتان كما سلف القول تراوغ كلتا هما  
الأخرى ، وتغافلها بقية الظفر بالفريسة وحدها ، وهذه  
هي حقيقة السياسة الخارجية التي لا تفهم تلك السياسة  
على وجهها الحق دون الانتباه إليها .

وحسبنا أن نذكر في هذا الصدد ما كتبه ريناخ أحد  
أصدقاء جمبينا عن سياسة الدولتين قال (١) « أن الرأي  
العام في إنجلترا قد وقع تحت تأثير بعض رجال حزب  
الشورى الذين اعتقدوا أن خير ما يعمل هو استعجال  
الحوادث جهد الطاقة أملا في إيجاد فرصة لدخول وادى  
النيل دون فرنسا »

حسبنا تلك العبارة التى حاول كرومر أن يفندها ،  
فلم يستطع أن يأتى بدليل أو شبه دليل على صحة رأيه  
وما ملك غير أن ينفى ، وما كان مجرد النفى مما ينهض  
دليلا يؤخذ به فى أمر من الأمور ...

وكان جمبينا من أشد أعداء مصر ، بل من أشد أعداء  
الاسلام قاطبة ، وكان هذا اليهودى على صلة برجال  
المال من الدائنين ، وكان يحيط به فى باريس ريفرزولسون  
ونوبار يوحيان اليه بما يريان ، وكان بطبعه ممن يميلون  
الى اللجوء الى القوة فى كل ما يتعلق بالشرف والشرفيين

وكان هذا الوزير كما بينا يحاول أن يدفع إنجلترا  
لتأخذ بسياسته ، ولكن جرانفل راح يراوغه مظهرا له  
أن خيرهما فى أن يتفقا ، وفى الوقت نفسه كان يحذره  
عاقبة التدخل المسلح فى شؤون مصر سواء اكان ذلك  
من جانب احدى الدولتين أم من جانبيهما معا لان ذلك  
العمل كان من شأنه أن يجر فى أعقابه كثيرا من المشاكل

ولقد راينا مبلغ تشدده فى وجوب ارسال المذكرة  
المشتركة ، ثم اصراره بعد ذلك على عدم تخفيف وقعها  
بأى وجه من الوجوه ، ولقد كانت كل من الدولتين  
تحرص على ألا تنفرد فتنكشف ، لذلك كانت تجارى  
احدهما الاخرى وانها لمستكرهة أشد الاستكراه وأقبحه

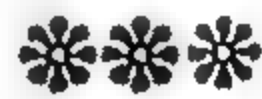
---

Modern Egypt, Cromer. (١)

وكانت انجلترا تأخذ نفسها بالصبر حتى تحين الفرصة فتقتنصها ...

على أن جمبتا لم يلبث في الحكم طويلا فسقطت. وزارته في أول فبراير سنة ١٨٨٢ أى قبل تأليف وزارة البارودى بخمسة أيام وحل محله في الوزارة دى فرسنيه ، وكان هذا من أول الامر يرى في المسألة المصرية ما لا يتفق وسياسة جمبتا ...

ولكن الامور كانت قد تخرجت في مصر بما فعل جمبتا ، وفقدت العناصر الوطنية في البلاد كل ثقة في الدولتين جميعا حتى أصبح من أصعب الامور التفاهم على السياسة العامة ...



لقد ارتخص هؤلاء الساسة من دعاة المدنية الناقمين على أهل الشرق ما كانوا فيه من تأخر كل كرامة ابتغاء الوصول الى أغراضهم ، وانقلبت عندهم الاوضاع التى تعارف الناس عليها ، فلقد عز على هؤلاء السادة الذين راحوا يدلون بمدنييتهم ويتطاولون بما فعلوا في سبيل حرية الانسان أن يروا أهل مصر ينزعون حقا الى الحرية، ويعملون على الرقى بوطنهم جادين غير متوانين، يتعاونون على الحق ويتناسون ما بينهم من دواعى الخلاف ويطرحون الاثرة ويحرمون على أنفسهم الطيبات ليتم لهم ما أرادوا ...

وذعر هؤلاء الكائدون لمصر الطامعون فيها أن أفاق أهلها على هذا النحو ، وقد كانوا يظنونهم أمواتا أو كالأموات ، وهالهم أن يروا فريقا من هؤلاء الفلاحين يستلبون سلطة الخديو شيئا فشيئا ، ويحاولون أن يضعوا أنفسهم بحيث تكون الامة وهم نائبون عنها مصدر كل سلطان ...

وأدركوا أن هذا البعث الذى أفاقت عليه مصر من نومها الطويل هو الصبح الذى يهتك أسدالهم ويبدد آمالهم ، فما ونوا يوما كما بينا عن محاربة مصر وزعماء مصر ورميهم بكل فاحشة ، وفي مقدمة هؤلاء جميعا ذلك الرجل الذى خطا نحو الحرية الخطوة الاولى وصرخ في وجه الظلم الصرخة الاولى ...

ولم ير هؤلاء لوزارة البارودى حسنة واحدة ، ولكن هذه الوزارة كانت لا تعبأ بما يرجف المبطلون ، فمشت الى غايتها على الشوك وقد عقد أعضاؤها النية على انقاذ بلادهم من طمع الطامعين وكيد الكائدين ، وعلى تعهدا بضروب الاصلاح فى شتى مرافقها حتى تقوى فتعز على كل باغ ظلوم من خصومها ...

وما كان فى الوزارة من عوامل الضعف سوى جهل رئيسها وأعضائها باللفات الاوربية ، الا وزير الخارجية مصطفى فهمى باشا ، وقد ضم الى الوزارة ليكون لسانها فى الصلة بالأوربيين ، ولكنه كان من رجال العهد القديم على حد قول مؤرخى الثورة الفرنسية ، فلم يكن ينظر الى الوطنيين نظرة الاحترام والتوقير ، وانما كان يرى فيهم فريقا من الفلاحين يتطلعون الى ما ليسوا أهلا له ، شأنه فى ذلك شأن الشراكسة وأشباههم من سادات مصر وكبرائها فى ذلك العهد ... وعلى ذلك فقد كان وجود هذا الرجل فى وزارة الخارجية عبئا يضاف الى أعباء الوزارة وذلك أمر لم تفتن اليه الا بعد فوات الوقت ...

وفيما عدا ذلك كانت وزارة البارودى وزارة وطنية حقا تعمل صادقة مؤمنة على تحقيق آمال البلاد والنهوض بها على الرغم مما كان يحيط بها من دسائس وما كان يملأ أسماع رجالها من نباح وعواء

انتهى دور انعقاد مجلس النواب فى السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٨٢ فبقى بذلك فى العمل نحو ثلاثة اشهر ، وهى مدة قصيرة كان يشغل الاعضاء فيها ترتيب اعمالهم ، ولكن المجلس على الرغم من ذلك قد قسم اعضائه الى لجان مختلفة اخذت تتصل بالوزارات وتبحث معها ما يهم البلاد من الشؤون العامة ...

جد المجلس فى دراسة نصوص المعاهدات والتعاقدات العامة والخاصة المبرمة بين الحكومة المصرية والحكومات الاجنبية ورعاياها ...

واخذت الوزارات تعد مشروعات الاصلاح المختلفة لعرضها على المجلس فى دور انعقاده القادم ، فكانت تنظر فيما يتطلبه النهوض بالتعليم ، وتفكر فى انشاء مصرف زراعى ينتشل الفلاحين من وهدتهم ، وتعمل على اصلاح المحاكم المختلطة واختصاصاتها ، كما تناولت قانون الانتخاب بالدراسة لتعد قانونا جديدا يجعل للمحكومين الرقابة الفعلية على الحاكمين ... وقد اشرنا الى ما ابدى عرابى من همة فى اصلاح شؤون وزارته وبث روح النهوض فيها ...

ولكن الوزارة كانت كما تقدمت خطوة فى اصلاحها ازدادت لهجة الصحف الاوربية فى العيب عليها والظعن فيها ، واشتدت وطأة الساسة فى نقد اعمالها ، ونشطت دسائسهم من حولها وكان على رأس هؤلاء كلفن ومالت اللذان أدركا الآن - أو على الاصح وجها - الى أن مهمتهما فى مصر أصبحت استعجال الحوادث تمهيدا للتدخل العسكرى ...



والحقيقة التى لا يمارى فيها الا المفرضون المبطون ان البلاد كانت تشيع فيها روح الوطنية الصادقة التى



تبرهن على صدقها بالاعمال لا بالاقوال ، ولو أنه قدر  
للوزارة السامية أن تسير على هذا النهج لكان أثرها  
بعيدا في تاريخ مصر ، بل وفي تاريخ القرن التاسع عشر  
كله ، فلقد كانت تعد المسألة المصرية من كبريات المسائل  
في ذلك القرن ...

وليس أبلغ في الدلالة على وجود الوطنية العاملة في  
مصر مما نهض به أعضاء مجلس الشورى من جليل الاعمال  
في تلك المدة القصيرة التي عقد فيها جلساته « فان أعمالهم  
في المجلس ومناقشاتهم تدل على مستوى ممتاز في الكفاية  
والغيرة الوطنية ، وسداد الرأي ، فقد طرخوا في  
مقترحاتهم ومناقشاتهم كل ابواب الاصلاح الذي تحتاج  
اليه البلاد في التعليم والقضاء والرى والزراعة والمالية  
والاقتصاد والادارة والمواصلات ، وكانت خطبهم  
ومناقشاتهم وجيزة واضحة المعنى ، بعيدة عن التطويل  
الممل والعبارات الجوفاء ، وكانت لهم نظرات صادقة في  
كثير من الشئون وآراء صائبة تدل على سلامة المنطق  
والإلمام بالنظام النيابي وحسن الاحاطة بالشئون  
الحيوية ، اعتبر لهم ذلك في مناقشتهم الخاصة بانتخاب  
الوكيلين والاغلبية المطلقة والاغلبية النسبية ، وبحثهم  
في علاج الخلل الذي كان موضع شكوى الجمهور في  
مصلحة المساحة ، ومناقشتهم في علاج غلاء الاسعار  
وتضخم المعاشات واستعجال اصلاح القضاء ، ومقترحاتهم  
في نظام الرى . وتأمل في الاقتراح الخاص بمشروع خزان  
أسوان وملاحظاتهم السديدة على مشروع قانون امتيازات  
العرب ومناقشاتهم في مشروع تعميم التعليم ، تجد أنهم  
على قصر المدة التي اجتمع فيها المجلس قد بذلوا أقصى  
ما أمكنهم من الجهد لاداء واجبهم ، وبدت منهم رغبة  
صادقة في أن يتابعوا البحث والدرس في فترة عطلة

المجلس ، وبرهنوا على أريحيته بما تعاهدوا عليه من أن ينشئ كل نائب مدرسة في بلده على نفقته ، وبرهنوا على روح طيبة في تقرير العلم والبذل في سبيل الصالح العام (١) .



وكذلك نستدل على وجود الروح الوطنية في مصر يومئذ بهاتين العبارتين اللتين نوردتهما وندعو القارئ أن يتدبر فيهما .

أما أولاهما فهي ما كتبه دي فريسنيه في كتابه «المسألة المصرية» حيث يقول معلقاً على مجلس النواب واختصاصاته : « أن كتاب ذلك العصر اجتهدوا في أن يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع اختصاص المجلس ، حتى ليخيل إلى الذي يقرأ خطابات بعض الخطباء أن الوطنية المصرية كانت في ذلك الوقت تلفيقاً ، وأن وادي النيل لم يكن يحتوى إلا على فلاحين تحنى العصا ظهورهم . فكل ما نرد به على هؤلاء الكتاب والخطباء ، هو أن آباءنا كانوا أقل من هذا امتهاناً للوطنية المصرية في عهدهم ، وذلك أن نوابنا في سنة ١٨٤٠ لم يترددوا في أن يتكلموا في خطبهم عن الرعاية الواجبة للوطنية المصرية الناشئة . فقد كانت هناك إذن وطنية مصرية ناشئة تستحق الرعاية في سنة ١٨٤٠ ،

ولست في هذا مبالفاً ولا أنا ممن يحبون المبالغة ، ولكن لأريب في أنه كانت توجد في قلوب المصريين من أربعين سنة مضت مطامح كان من الممكن أن تراعى في حدود معتدلة . تلك حقيقة لا تحتل جديلاً . غير أن الذين كانوا يقبضون على حظ مصر لم يكونوا يرون من المصريين

---

(١) الثورة العربية للاستاذ عبد الرحمن الرافعي .

غير قوم مدينين ، فلم يكونوا يعرفون في معاملتهم الا مصلحة واحدة ، هي مصلحة الدائنين الاوربيين التي يجب أن تقدم على ما عداها . وبذلك لم ينتبهوا الى أن مثابرتهم على اعتبار مصر رهنا ، وتدخلهم في شؤونها تدخلأ أدى بحكومتها الى أن تصير في ايدى الاجانب كانا قد انتهيا على طول الايام بأن يجرحا شعور الشعب المصرى الذى هو شعب حى مهما يقل القائلون في تعوده الطاعة والخضوع من اجيال . »



وأما ثائية العبارتين فهي ما كتبه من باريس سنت هيلير الى قنصل فرنسا العام في مصر في السابع من أكتوبر سنة ١٨٨١ قال : « ليس من السهل علينا أن نقرر من هنا قوة هذه المطامح الشرعية ولا كيف يمكن ارضاؤها ، ولكن هذه المطامح حقيقية الى أعظم حد ، ومبررة من بعض الوجوه الى أعظم حد أيضا ، فلا يمكن اهمالها ولا يمكن على الخصوص التفكير في خنقها » (١)

ليتدبر القارىء في هاتين العبارتين ، وليتدبر فيهما كذلك من يريد أن يحكم على رجال ذلك العهد وفي مقدمتهم عرابى ، وليشفق على أنفسهم الذين يرمون عرابيـا ورجاله بالفوضى والجهل والانانية ، ايشفق هؤلاء على أنفسهم فلن يجدر بهم أن يظلوا يجهلون تاريخ هذا الرجل فيحملون الذين يعلمون حقيقة هذا التاريخ على الاستخفاف بهم والزراية عليهم ، فليس ادعى الى الاستخفاف بعقل رجل من أن تراه يجهل أمرا من الامور ثم اذا هو يدلى فيه برأى قاطع في لهجة يتردد في اتباعها الراسخون في العلم ...

---

(١) العبارتان من تعريب الاستاذ عبد القادر حمزة .

ونضيف الى هاتين العبارتين قول كرومر : « ليس هناك ريب في أن حركة عرابي كانت من بعض الوجوه حركة قومية . وليس من شك كذلك في أنه لو ترك عرابي وأتباعه في القيام على الشئون من غير مراقبة ، فإن حالة من أشد حالات الاضطراب كانت تنشأ في مصر ، وإن تدخلت أجنبيا مسلحا من نوع ما كان يصبح ضرورة من الضرورات » .



وغنى عن البيان ما تكشف عنه عبارته الأخيرة مما يريد به أن يمحو أثر اعترافه بقومية حركة عرابي ، فهذا المؤرخ الانجليزي الذي كان من أكبر أساطين الاحتلال لا يستطيع إلا أن يمحو بشماله ما أثبتته بيمينه ...

ما كان عرابي طائشا ولا داعية فوضى ، ولكن كان زعيما مخلصا يعمل بوحى من وطنيته ويصيب ويخطئ كما يصيب الزعماء غيره ويخطئون كل على قدر ما اجتمع له من الكفاية والمقدرة ! ..

والخطأ والصواب من خصائص البشر ، ومردهما الى العقل وسعته أو ضيقه ، أما الصدق والاخلاص وما اليهما من صفات الزعامة والبطولة فلا تسامح فيها ولا تهاون ، بل لا يصح أن تكون هذه امورا يجوز فيها التفاوت اذا عقدت المقارنة بين زعيم وزعيم وبين بطل وبطل ! وكيف يجوز في عقل أن يكون هناك صدق ونصف صدق واخلاص ونصف اخلاص ؟ ان هذه امور جلالها وجمالها بل وجوهرها في أن تكون غير قابلة لزيادة أو نقص ، وعلى الذين لا يزالون بخاصمون عرابيا أن يأتوا بدليل واحد على كذبه أو مروقه ، أما الخطأ والصواب فليقولوا فيهما ما يشاءون ، وليس ما نعنى به خطأ عرابي أو صوابه فليخطئ عرابي أو فليصب ، ولكن

لو أنه كما زعم خصومه كان مدعيا أو مداجيا ولو في موقف واحد من مواقف حياته السياسية ما استطعنا أن نكتب عنه كلمة واحدة ...

ومع ذلك فبيننا وبين خصوم هذا الرجل حوادث هذه الثورة الوطنية على قدر ما علمنا من أمرها وهي كفيلة بأن ترينا مبلغ ما في مزاعمهم هم من خطأ ...

## أمانت الصحاح

لم يكن جهد أحمد عرابي منحصرا في المطالبة بالدستور، بل كانت تنطوي نفسه على كثير من الاماني التي يتوق الى أن يراها حقائق ماثلة أمامه .

كانت تخالج نفسه منذ صلته بسعيد باشا رغبات في الإصلاح مبعثها تعصبه لقوميته ذلك التعصب المحمود الذي انبعث في نفسه مما كان يراه من حرمان بنى قومه في وطنهم من كل ما يشعرونهم بالعزة والكرامة ، بينما يتمتع بالسيادة أجلاف من الشراكسة ، لم يكن لهم من حق في هذه البلاد الا أنهم بقية هؤلاء المماليك الذين اشتروا أول أمرهم كما تشتري السلع في الاسواق !

وكان يظن هذا الجندي الثائر أو هذا الوطني الصادق العقيدة الى أن الإصلاح المنشود ، ينبغي أن يأتي من الاعماق فيبدأ بهؤلاء الفلاحين الذين هم عصب القومية المصرية ، فمتى صلح حال هؤلاء واستشعروا في وطنهم الكرامة والعزة ، قامت القومية المصرية على أساس وطييد ، ومضت مصر قدما في طريق الرقي والمجد ، وعزت على الطامعين والكائدين ...

وكانت أمانى هذا الرجل تظهر في خطبه التي يلقيها في شتى المناسبات ، فكان كثير الاشارة الى القضاء على الاستبداد والعناية بالعلم والمعرفة ، ولكن شيئا أشبه



بخطبة موضوعة يتبين في حديث له مع صديقه الانجليزى  
مستر بلنت ، ونحب أن يتدبر من يحبون عرابيا ، ومن  
لا يزالون يكرهونه في هذا الحديث ، ففيه جانب من  
شخصية هذا الرجل الذى مسح البهتان والعدوان  
شخصيته ، وما كان الانجليز لعمر الحق يرضون أن  
يكون عرابى داعية اصلاح وزعيم قومية ، ويكونون هم  
من قضوا عليه تحقيقا لما ربهم الاستعمارية ثم يدعون مع  
ذلك أنهم جاءوا لاصلاح مصر والقضاء فيها على عوامل  
الفوضى... لذلك عملوا على انكار كل معنى من معانى  
الجد والنهوض في تاريخه ، وتعمدوا أن ينظروا اليه  
نظرة الرجل المدل بحكمته وتجربته الى الطفل الذى  
يدعى لنفسه ما ليس له ، ومن أدلة ذلك أن الجهل  
والفرور في مقدمة الصفات التى ينعت بها كتاب الاحتلال  
وانهم ليعلمون بينهم وبين أنفسهم أن همة هذا الرجل  
وجراته وما كان يبتغى لقومه من ضروب الاصلاح جديرة  
بأن تجعل منه زعيما أنجبته مصر ، كما تنجب الامم  
الزعماء ، وان تلك الصفات فى أحمد عرابى المصرى  
الفلاح لن تختلف فى جوهرها عما يعزى من صفات الى  
ابطال الوطنية والقومية فى غير مصر من أمم الارض .  
قال بلنت بعد كلام طويل جاء فى صدد شرائه حديقة  
الشيخ عبيد بين المرج والمطرية ، ولنعُد الى زيارتى  
التوديعية لعرابى قبل سفرى . ففي هذه المناسبة  
تناولنا بالحديث جميع المسائل التى كانت تدور فيها  
المناقشات وقتئذ بين رجال الحركة القومية والتى كانت  
تتضمن خططهم فى سبيل الاصلاح وآمالهم ومخاوفهم  
فى الداخل والخارج .  
وان الاسابيع القليلة التى قضاها عرابى فى منصبه  
السامى قد اكسبته نضجا وقوت عزمته ، فتناول معى

الامور بكل ما يمكن من سداد في الفكر ولغة الحوار .

ولقد أكد لي تأكيدا وثيقا أنه وأصحابه الوزراء يتطلعون أكبر التطلع الى تفاهم ودى مع الحكومة الانجليزية على كافة المسائل القائمة بينهم وبين وكلائها في القاهرة . على انه اشتكى في شدة من مالت وكلفن فان صنعهما الاخير والدور الذي أخذه في معركة تشويه الحركة الوطنية في الصحف البريطانية يدلان على عداوتهما ... ثم قال عرابي : انه لن يقوم سلام في القاهرة طالما انه ليس لدينا غير هذين نتعامل وايهما لاننا نعلم انهما يدبران لنا السوء في السر وان لم يبد ذلك في العلن ، وسوف ننأى بجانبنا عنهما كليهما ، ولكن ليس معنى ذلك اننا لهذا نريد ان نخاصم انجلترا ، فليرسل اليينا مستر جلادستون من يشاء غيرهما لنتعامل معه ونحن نثلقاه مرحبين بأذرع مبسوطة .

وتكلم عرابي كلاما طويلا عن الاصلاحات التي كان يفكر فيها محمود سامي والوزراء ، تلك الاصلاحات التي وضع معظمها في ثبت الحسنات التي أسداها الاحتلال البريطاني الى مصر والتي ادعاها اللورد كرومر لنفسه . ومن أمثلة تلك الاصلاحات ابطال السخرة التي أنزلها الاغنياء من الباشاوات الترك بالفلاحين وابطال احتكار هؤلاء الاغنياء مياه الري عند زيادة النيل ، ثم حماية الفلاحين من زبانية الربا من اليونانيين الذين وضعوهم بين برائتهم معتمدين على عيوب المحاكم المختلطة ، وتناول التفكير في الاصلاح حتى ذلك العلاج الاخير لهذه النكبة الزراعية ، ذلك العلاج الذي طالما جعله اللورد كرومر من مفاخره بوجه خاص ، الا وهو انشاء مصرف زراعي تحت اشراف الحكومة ...

وتكلم عرابي فيما تكلم فيه من المسائل عن اصلاح

العدالة التي تطرق اليها الفساد في صورة سخيقة ، وعن تعليم الرجال ، بل وتعليم النساء كذلك ، وعن طريقة الانتخاب التي تنتقى للبرلمان الجديد ، وعن مشكلة الرق ...

وقد تكلم طويلا عن هذه المشكلة الاخيرة ، وذلك لان الموظفين الاوربيين في الادارة المختصة بالقضاء على الرق، قد بدأوا كما بدا غيرهم من الموظفين الاجانب يبدون مخاوفهم من ان النظام الاقتصادي الجديد للحكومة الوطنية سوف يؤدي الى انقصاص رواتبهم ، ولذلك عمدوا الى ادعائهم ان نهضة الاسلام سوف تفضي الى انتعاش تجارة الرقيق ، وظهر لي عرابي مبلغ ما في ذلك الكلام من ضعف الحجة قائلا : ان الذين لا يزالون يمتلكون الرقيق في مصر او الذين يريدون امتلاك الرقيق انما هم امراء الاسرة الخديوية واغنياء الباشاوات ، اولئك الذين توجه ضد مظالمهم حركتنا القائمة ، حركة الفلاحين القومية ، وانه حسب مبادئ الحرية الجديدة سوف يكون الناس جميعا منذ الآن سواسية لا فرق بينهم بسبب الجنس او اللون او الدين ، وان انتعاش تجارة الرقيق لهو آخر شيء يمكن ان يتمشى مع هذه المبادئ ...

وتناول آخر الامر ما يتصل بضرورة الاستعداد الحربي لما يتوقع من حرب ، ذلك الامر الذي كان يعنيه بصفة خاصة لانه جندي ولانه وزير الحرب ، وقد تحدث عن هذا في بساطة ونشاط ...

قال : ان الحكومة القومية سوف لا تضع السلاح او تفعل عما يجب من الحذر حتى تتوطد دعائم النظام الدستوري وتعترف به اوروبا ، وأعرب عن أمله ألا يتجاوز المخصصات الحربية التي اتفق عليها مع كلفن ،

والا يضطر أن يزيد عدد المجندين عن الثمانية عشر ألفا الذين تسمح بهم الفرمانات ، فاذا استمر تهديدهم بالتدخل المسلح فإنهم سوف يتبعون الأسلوب البروسي القائم على فكرة قصر مدة الخدمة وبهذا يصلون الى ايجاد قوة كبيرة هي بمثابة جيش احتياطي تحت السلاح وسألني عرابي رأيني عن مبلغ امكان التصادم ، فقلت في جلاء انه كما يتبين لي مما تفاخر به كلفن أمامي من نية العمل على وقوعه ، ومن لهجة الصحف التي وجهها لتتمشي مع ذلك ، فان الخطر حقيقى ، وان غرضي من ذهابي الى انجلترا هو أن أقضى على حملة الكذب التي بدأت ، بكل ما في وسعي ، وسيكون ما أدعو اليه هناك هو السلام وخلص النيات . ولكنى من جهة أخرى لست أنصح له الا بأن يظل على ثباته وعزمه ، فان خير وسائل السلام أن يستعد المرء للدفاع ، وان كبار أعداء مصر ليسوا بين صفوف رجال الحكومات كما هم بين صفوف رجال المال ، وان هؤلاء سوف يترددون طويلا قبل أن يحرضوا على هجوم مسلح اذا عرفوا أن ذلك يعرض مصالحهم في مصر لخطر حرب طويلة الامد كثيرة النفقات ، وان أمة مسلحة قد عقدت العزم على الدفاع عن حقوقها لامة يصعب أن يبطش بها . وأذكر أنى اقتبست له أبياتا من بيرون تبدأ بقوله : « لا تثق في طلب الحرية بالفرنجة » وقد وافق على ذلك الكلام موافقة قوية ، وأظن ان ذلك كان آخر ما دار بيننا من كلام ، وقد وعدته انه اذا وصلت الامور الى أسوأ ما تصل اليه فسوف أعود لأخذ بنصيبى بين صفوفهم في المعركة من أجل الاستقلال .

وبعد ، فان نظرة في هاتيك الامانى التي كانت تتمثل في خاطر أحمد عرابي ترينا بعد ما بين هذا الرجل في

صورته الحقيقية وبينه في صورته التي صورها  
المفرضون .

ثار هذا الرجل ثورته فاثبت في سجل القومية المصرية  
يوما لا يمحي هو يوم عابدين المشهود ، بل لقد اضاف  
أحمد عرابي بما صنع في ذلك اليوم فصلا الى تاريخ  
الحرية في هذا الوجود ...

وظفر أحمد عرابي بالدستور، ثم التفت بعد الدستور  
الى الاصلاح الاجتماعى في ظل هذا الدستور ، ثم رأى  
الانجليز يتربصون به وبمصر فأخذ يعد العدة للمقاومة ،  
ولسوف يجد الجد فتجتمع فيه آمال أمة وتتمثل فيه  
بطولة شعب يطلب الكرامة ، ويرى التاريخ لأول مرة  
مصريين من صميم قرى مصر يخوضون الحرب في سبيل  
مبادئ سامية .

فماذا كان يطلب منه أكثر من ذلك ليعترف له خصومه  
بالزعامة والبطولة ؟ أكل ذنبه عندهم انه هزم ؟ ألا ما  
أصدق قول القائل : « ولأم المخطيء الهبل » .

على أن الخيانة والخنوع من جانب فريق من المصريين  
كما سنرى من الحوادث هي التي سوف تودى به  
وبحركته ...

ولو أن عرابيا انتصر يوم التل الكبير ، أو لو أن  
الخدوي كان في صفه وكان المصريون جميعا من ورائه  
وواتاه الحظ فظفر برد الانجليز عن مصر ، أكان يجد  
بنو مصر في تاريخهم رجلا قبله يستحق أن يقرنوه به ؟  
الا ان خصوم هذا الرجل انما يخاصمونه لانهم يجهلونه  
فليقرأوا تاريخه في غير تحيز وليطرحوا من نفوسهم  
ما بثه فيها الاحتلال ، ومن أضلهم عن الحق الاحتلال ..

## مراوغة وتربص

جدير بنا ألا ننسى ما أسلفنا الإشارة اليه في أكثر من موضع ، ألا وهو موقف الدولتين احدهما من الأخرى موقف المراوغة والمداراة ، ذلك السندى كان طرفاه أول الأمر جمبتا وجرانفل .

ولقد تغير هذا الموقف تغيرا أساسيا من جهة فرنسا حينما حل دي فرسنيه في الحكم محل جمبتا ، وذلك أن هذا الرجل قد انتهج في المسألة المصرية نهجا جديدا ما لبث أن بينه لانجلترا حين ولى الحكم ...

وقد ألقيت الى فرسنيه مقاليد الحكم كما ذكرنا قبل أن يخلف البارودى شريفا بخمسة أيام ، فكتب الى الحكومة الانجليزية أنه لا يميل الى أى تدخل عسكري في مصر سواء أكان هذا التدخل من جانب انجلترا وفرنسا مجتمعين ، أم من جانب كل منهما على حدة ، وأنه كذلك يرفض كل الرفض أن يقر أى تدخل من جانب الباب العالي .

ولعل جرانفل قد رأى في سياسة فرسنيه ما يسهل عليه الوصول الى غرضه ، مع ما قد يبدو لأول وهلة من أنها تؤدي الى عكس ذلك ، وذلك لأنه يستطيع الآن أن يلزم دي فرسنيه بسياسته التي وضعها بنفسه ، بينما يتلمس هو الأسباب لتدخل حكومته بمفردها ،



ولن يعدم أن يتخذ من الحوادث مبررا لتدخله فان لم يجد فما أيسر خلق الحوادث واستغلالها ... حتى اذا سنحت الفرصة اقلت من فرنسا وانقض على الفريسة وحده .

واذا بدا لتركيا أن تتدخل فلتستتر انجلترا خلف فرنسا ، لان فرنسا هي التي تعلن أنها تمنع في تدخل الباب العالي ، وان انجلترا تمنع أكثر مما تمنع فرنسا حتى لا تعود مصر الى حوزة السلطان فتضيع على انجلترا كل آمالها ولكنها تلقى هذه الممانعة في مهارة على عاتق فرنسا فتزداد نياتها خفاء ، وتزداد في نفس الوقت قربا من غايتها .

وكان جمبتا يشير أبدا بالالتجاء الى القوة ضد الوطنيين في مصر ، ومن هنا جاءت المذكرة المشتركة ، وكان يرى أن تتدخل الدولتان سريعا تدخلا عسكريا في مصر ، ولكن جرانفل تباطأ وراح يبين له ما تنطوي عليه هذه السياسة من اخطار ، وانه ليخفى في نفسه ما يخفى ، ولقد جاء كلام جرانفل هذا الى جمبتا في رسالة وصلته قبل سقوط وزارته بيوم واحد ، وجاء في خاتمة هذه الرسالة قوله : « ان حكومة جلالة الملكة توافق على أن للدولتين مركزا خاصا في مصر وذلك بناء على الاتفاقات الدولية وعلى الظروف القائمة ، وانها كذلك تعتقد انه قد تنجم بعض المتاعب من دعوة عدة دول في مسألة حكومية كهذه ، ولكن حكومة جلالة الملكة تكل الى الحكومة الفرنسية أن تنظر فيما اذا لم يكن الموقف يتطلب الاتصال بالدول الاخرى كخير وسيلة لتناول حالة من الحالات يتبين أنها ذات مبناس بالفرمانات السلطانية وعلاقات مصر الدولية » .

وقد كانت السياسة الانجليزية تدور منذ حملة

بوتابرت على مقاومة نفوذ فرنسا في وادي النيل ، ثم الاستيلاء عليها متى أمكن ذلك وبخاصة بعد فتح قناة السويس ، دون مراعاة أى شيء في سبيل الوصول الى هذا الفرض ...

واستفهم فرسنيه الحكومة الانجليزية ماذا ارادته بذلك الاحتياط الذى ابلغته جمبتا بعد موافقتها على المذكورة المشتركة ، فكان الجواب ان الحكومة البريطانية تحتفظ لنفسها بتعيين نوع العمل اذا لم يكن من العمل بد ، وفي تقرير وجوب العمل او عدم وجوبه على وجه العموم ...

ثم اراد جرانفل ان يخفف من وقع هذا الكلام في نفس فرسنيه فذكر انه ليس في مصر ما يدعو الى القلق فان الوزارة الجديدة تجهر برغبتها في المحافظة على تعهدات مصر الدولية ، واذا وقع ما يقتضى التدخل فان الحكومة الانجليزية تجعل أساس ذلك تضامن أوربا مع وجوب اشتراك السلطان في كل خطوة وفي كل مفاوضة يؤدي اليها هذا التدخل .

وفي تلك الاثناء كان كلفن ومالت يحكمان دسائسهما في البلاد ويباعدان بين الخديو ووزرائه ، ولا يتوانيان عن خلق الضرورة التى تقضى بالعمل ! ..

وكانت الحكومة الانجليزية التى تقف من فرنسا ذلك الموقف الذى اشرنا اليه تفكر في ذلك الوقت في اعداد حملتها على مصر ! ففي اليوم الخامس عشر من شهر مارس أى بعد استلام البارودى أزمة الحكم بأربعين يوما ، زار مستر بلنت السير جارنت ولسلى الذى سوف يكون أعما قريب قائد الحملة على مصر ، فدار بينهما الكلام عن هذا المشروع ، يقول مستر بلنت : « في اليوم الخامس عشر من شهر مارس ذهبت لمقابلة سير جارنت

ولسلى وجرت بينى وبينه محاوره تستحق أن تذكر فى اهتمام ، فبعد حديث قصير عن قبرص اتجه الكلام الى مصر ، وما عسى أن يكون لدى القوميين من مقاومة اذا وقع تدخل ، وسألنى رأى فى ذلك ، فقلت انهم بالضرورة سيحاربون ، ولن يقتصر الامر على الجند ، بل سيشاركهم الناس جميعا ، وربما لجأوا بعد ذلك الى وسائل أخرى ، فرفض أن يصدق أن الجيش سوف ينهض لحرب ما ، فصممت على عكس ذلك وقلت له :

انهم اذا أرسلوه لقهر مصر فيجب عليه أن يسير فى ستين ألفا على الأقل ، وبهذا قد بالفت فى تصوير المسألة بلا ريب لأننى أردت أن أجعلها صعبة ، بحيث أنه يجب على الحكومة أن تفكر مرتين قبل الأقدام عليها ، ثم أخبرنى من تلقاء نفسه أنهم شاوروه مرتين أو ثلاثا أثناء الشتاء فى احتلال عاجل ، وأكد لى مع ذلك أنه لا يحب التدخل

وأن القيام باحتلال مصر عمل لن يقابله الجيش بالاستحسان ، وأنه هو نفسه سوف يؤسفه جدا أن يناط به هذا العمل ، وأعرب لى أنه خير لمصر كثيرا أن تسرح جيشها وتغتمد على حماية أوروبا ، ولكنى أخبرته بأننى لا أستطيع أن أنصح للمصريين بذلك ، وأن الأمة التى تنوى الحرب نية صادقة قلما هاجمها عدو ، فقال :

انه ليس هناك ما يسمى بالشرف فى الحرب ، وأنه اذا كانت المسألة مسألة حرب فيجب ألا يشقوا بنا أكثر مما يشقوا بأية أمة أخرى ... ثم تكلم بعد ذلك عن الطرق الحربية المؤدية الى القاهرة كطريق بونابرت على الضفة اليسرى للنيل ، ثم طريق الصحراء بوجه خاص بين ترعة السويس والدلتا ، ولقد شعرت أنه اذا ما أنزلت جنود انجليزية فى مصر فعلا فانها ستسير فى الطريق الثانى ، ولكنى كنت حريصا ألا أدلى اليه بما يكون فيه أقل فائدة

له من المعلومات ، ولم أبدأ الا الضحك عندما سألتني بين  
الجد والمزاح عما اذا كنت أراققه لأدله على الطريق اذا  
ما بلغت الامور حدا ترسل معه حملة » .

ويكفي هذا الحديث وحده للدلالة على ما كانت تبينه  
انجلترا لمصر وما كانت تراوغ به فرنسا . . .

وبينما كانت تدبر الدسائس نصر في الداخل والخارج ،  
لم يكن للوزارة المصرية من وسائل الدعاية شيء ما ،  
فكان اعداؤها يتقولون عليها ما شاءوا وما شاءت لهم  
أطماعهم ، حتى لقد صور زعيم الحركة الوطنية في مصر  
أحمد عرابي صورا بلغت أقصى حدود الغرابة ، فهو تارة  
رئيس عصاة من المتمردين الخارجين على القانون  
والنظام ، وهو تورا داعية اسماعيل اشتراه بالمال ليعمل  
على اعادته الى مصر ، وهو بالاضافة الى هذا عبد بعض  
الانجليز اسباني أو فرنسي في زى مصرى ، انى غير ذلك  
من الاقاويل التى لا ندرى انقابها بالالم ام بالسخرية !

وانطلقت الصحف تديع في الناس الاراجيف في غير  
حياء أو فتور وليس لمصر لسان يدافع عنها الا بلنت ،  
فلقد سافر هذا الرجل الحر كيما يقابل كل من لهم صلة  
بالمسألة المصرية ليريهم وجه الحق في هذه القضية ،  
وليصحح ما جاز على عقول بعض الساسة من خداع ،  
وليكاشف الذين يدعون أنهم لا يعلمون الحق بما يعلم  
هو من الحق لعلهم يرجعون اليه .

ولقد قابل جماعة من النواب ومن رجال المال ، ثم  
ما زال يسعى حتى ظفر بمقابلة جرانفل وزير الخارجية  
فتحدث اليه عما لديه من المعلومات ودافع عن قضية  
الحرية في مصر بكل ما في طوقه من وسائل الدفاع ،  
ولكن شد ما كانت دهشته وألمه عند ما انطلق جرانفل  
نفسه يخبره أن لديه من المعلومات ما يؤيد عنده أن

عرايا ان هو الا صنيعه اسماعيل وان المسألة من اولها الى آخرها ما هي الا سلسلة من الدسائس لارجاع الخديو السابق الى عرشه ! ..

وعول بلنت بعد ذلك على مقابلة جلادستون ، وقد كانت شهرته قائمة على أساس ميله الى الحرية ، والاخذ بيد الشرقيين جميعا لينهضوا من سباتهم ، فلما مثل بلنت بين يديه اندفع يتحدث عن الحركة الوطنية في مصر في حماسة وطلاقة ، وظل جلادستون صامتا ينصت اليه كأنه مقبل عليه مؤمن بما يقول يقدره حق قدره ، قال بلنت : « ثم سألتني عن الجيش المصري ، وسبب ظهوره في المسائل الوطنية ، فانه خشي عاقبة ذلك ، فأوضحت له تاريخ الحركة كلها وأكدت له أن ما زعمه البعض عن تدخل الجند امر مبالغ فيه ، وأن ما أذيع من الانباء عن الجند وتوعدهم النواب ليست الا مفتريات ، وقلت : انه ليس هناك من سبب لما تبديه مصر من الاستعداد الا خوفها من الاعتداء والتدخل » .

ولكن ماذا كان ينتظر بلنت من جرانفل وجلادستون ، ولم تكن المسألة مسألة اقناع وحجة ؟ ماذا كان يأمل بلنت ولم تكن المسألة ماذا يجب أن يعمل ، وانما كانت متى ينفلد ما انعقدت النية عليه ؟ ..

وانى لاحس فيما قرأته مما كتبه بلنت عن مقابلته لجرانفل وجلادستون انهما كانا ينظران اليه نظرتهما الى غر لا يفهم ما يجب أن يتبعه الانجليزى في معاملة الشعوب الشرقية ، أو الى ناشئ في السياسة لا يدري أن الكلام شيء والخطط المرسومة شيء آخر ...

ولقد علق كرومر في كتابه « مصر الحديثة » على مساعي بلنت فقال : « ومن هؤلاء الذين عطفوا على القضية نرى أبرزهم مستر ولفرد بلنت ، ولقد عاش

مستر بلنت زمنا بين المسلمين ، وكانت له لذة شديدة في كل شيء يتصل بهم وبدينهم ويظهر انه كان يعتقد في امكان احياء الاسلام على قواعده الاصلية ، وقد تصادف انه كان في مصر في شتاء سنة ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، فالتقى بنفسه بكل ما تبعثه الطبيعة الشاعرية من حماسة في جانب القضية العرابية وأصبح مرشدها وفيلسوفها ، كما أصبح الصديق لعرابي واتباعه ، ورأى مستر بلنت انه كان يعنى بحركة هي الى حد معين حركة قومية بلا نزاع ، وفشل في ان يفهم فهما كافيا تلك الحقيقة ، وهي ان سيادة الحزب العسكري كان فيها القضاء على العنصر القومي في الحركة . وكان في وقت ما يعمل وسيطا بين السير ادوارد مالت والقوميين .

ولكن هذا الاختيار لم يكن موفقا ، لانه يتبين باجلى وضوح مما ذكره بلنت في كتابه عن مساعيه انه فيما عدا بعض المعرفة باللغة العربية لم يكن على شيء من الصفات اللازمة لتحقيق النجاح في مسألة لها ما لهذه المسألة من دقة وصعوبة ، ولقد نصح للقوميين ان يعنوا بالجيش والا غالتهم أوروبا وكان يعنى النصيحة بلا ريب ، ولكنها كانت في غير وقتها كما كانت خبيثة ، فلئن كان ثمة من خطر من جهة الفزو الاوربي فان موطن هذا الخطر كان في انضمام الحزبين الوطنى ، والعسكرى ، أكثر مما كان في انفصالهما ، ولقد كان من السهل على السياسى المجرب ان يدرك هذا ، ولم يكن للمستر بلنت تجربة سياسية ذات قيمة وانما كان رجلا متحمسا يحلم بيوتوبيا عربية «

هذا ما يراه كرومر في بلنت ، وليس عجيبا ان يكون هذا رأى كرومر ، وهو من أساطين الاستعمار ، في رجل مثل بلنت كان بلا مرأى من كبار الاحرار ، وانما



نورد رأى كرومر هذا لانه يكشف عن جانب من اساليب المستعمرين الانجليز في محاولة طمس الحقائق في سبيل الوصول الى ما يطمعون فيه من اغراض، وهو من ناحية اخرى يشف عما كان يمكن أن يقابل به مسعى رجل مثل بلنت في دوننج ستريت ابان تلك الظروف التى نتحدث عنها ، ظروف مقاومة الوزارة الوطنية في مصر . . .

ولم يكن ينتظر ان يصيب بلنت غير الفشل ، وقد كانت وزارة جلادستون تتعجل الحوادث لتفلت من فرنسا وتنفرد بوضع يدها على مصر حتى تخلص من الموقف الحرج الذى وضعها فيه فرسنيه ، فلقد ذهب هذا الوزير في تجنب العدوان على مصر الى حد انه كتب الى قنصل فرنسا في القاهرة يأمره « أن يلزم خطه التحفظ والحذر ، وان كان ذلك لا يمنعه من أن يحسن صلاته بكل حكومة في مصر تحترم الاتفاقات الدولية وتحافظ على النظام » .

ولقد زاد فرسنيه على هذا ان استدعى المسيو دى بلنير العضو الفرنسى في المراقبة لما كان يعلم من مسلكه نحو الحركة الوطنية في مصر ، وباستدعاء دى بلنير خلا الجو لكلفن ومالت فراحا ينفثان سموهما ويتعجلان الحوادث في غير اناة ولا استحياء .

ومضت انجلترا تتربص بمصر كما يتربص الوحش بالفريسة ، وبعد شهرين من سحب دى بلنير وقع في القاهرة ما عرف بحادث المؤامرة الشركسية .

وسرى القارىء فيما يلى كيف استفل مالت وكلفن هذا الحادث العادى دون اى وازع من ضمير او قانون او عرف ، فلننظر ماذا كان من امرهما وأمر الخديو في هذا الحادث الذى لولا اطماع السياسة وتربص القوى بالضعيف ما كان ليشير شيئا مما اثار من متاعب للوزارة ، وما كان ليلد ما ولد من أحداث . .

## إعناش وإصلاح

كان الانجليز في مصر يعملون جهد طاقتهم لحساب دولتهم كما بينا ، حتى اذا حانت ساعة العمل لم يكن بينهم وبين فريستهم حائل ٠٠ ولقد ظلوا متربصين بمصر بعد أن نجحت وزارة البارودي في حل مسألة الميزانية ، ينتظرون أن تواتيهم فرصة فيعملوا على تنفيذ ما بيتوا .

وأخيرا وقع في مصر حادث مانظن في تاريخ الاستعمار الاوربي كله أن استغل حادث كما استغل هذا الحادث في قبح ما بعده قبح ، على بعد ما بينه وبين السياسة العامة للبلاد ، وذلك هو حادث المؤامرة الشركسية المشئوم ...

نمى الى عرابى وزملائه أن فريقا من الضباط الشراكسة يأترون به وأصحابه ليقتلوهم ، فكان أن قبضت عليهم الحكومة كما يقضى بذلك واجبها وساقتهم الى المحكمة فقضت فيهم قضاءها ...

وليس في هذا الحادث ما يتصل بالسياسة العامة للبلاد بسبب من الاسباب ، وما كانت أية وزارة تستطيع أن تسلك فيه سبيلا غير ما سلكته وزارة البارودي ...

ولكن الطامعين المفتريين ما لبثوا أن عادوا يملؤون الدنيا صياحا وتنديدا ، وتهديدا ووعيدا ، فقد واتتهم فرصة جديدة بعد أن أفلتت من أيديهم أزمة الميزانية .

ونسى هؤلاء كل شيء إلا تحقيق أطماعهم من وراء هذا الحادث ، فكان من أقوالهم وأفعالهم ما هو خليق بأن يسمهم بميسم الخزي والعار ، بل ما هو خليق بأن يساق بين أقوى الأدلة وأنصعها على صحة مبدأ القائلين بأن هذه المدنية المزعومة قد أفسدت بنى الإنسان فزادتهم قربا إلى الحيوانية ، بقدر ما باعدت بينهم وبين ما يرجى للأدمية من سمو ...

والحق لقد دل مسلك دعاة المدنية الاوربية على مبلغ ما يمكن أن يصل إليه غدر الإنسان بالإنسان في عصرنا هذا ، وما برح مثل عملهم هذا يوحى إلى ذوى الاحلام من البشر أن الإنسان لا يزال هو الإنسان ، وأنه إذا كان ارتقى في شيء ففي وسائل الكيد والبطش ، أما غرائزه الاولى غرائز السيطرة والانانية فما زالت بحيث لم يطرأ عليها أى تهذيب على الرغم مما يحلم به الخياليون من حماة الانسانية ...

وانا لا نجد في بيان مدى ما بلغه هؤلاء الساسة من انحطاط خيرا من أن تعرض المسألة في وضعها كما حدثت مكتفين بذلك عن كل تعليق عليها ، فما يمكن أن يبين كلام ما يقوم في الذهن أو يعتلج في أطواء النفس ، تلقاء هذا العدوان الشنيع ...

أراد الشراكسة المتنمرون من سياسة عراقى والمضللون منهم أن يقتلوه هو وأصحابه من كبار رجال الحركة الوطنية ، وقد نمت ذلك إلى علم عراقى من طلبة باشا عصمت قائد اللواء الاول ، وهذا علمه من أحد المتأمرين وهو راشد أنور أفندى الذى خالف اخوانه فسارع إلى افشاء سرهم ...

وفي اليوم الثانى عشر من شهر ابريل سنة ١٨٨٢ ، قبض على تسعة عشر ضابطا وسيقوا إلى مجلس عسكري

الف لمحاكمتهم بعد أن عرض الأمر على الوزراء وعلى الخديو ، وقد جعلت رئاسة المجلس للفريق راشد باشا حسنى وهو شركسى ، وقد اختير كما ذكر عرابى فى مذكراته المخطوطة (١) لنزاهته وتقواه واعتداله . . .

وبعد عشرة أيام بلغ عدد المقبوض عليهم ثمانية وأربعين ، وكان من بينهم عثمان باشا رفقى نفسه «وقد اعترف أحدهم وهو القائمقام يوسف بك نجاتى بالمؤامرة وأقر بأن راتب باشا هو مدبرها ، وأنه أغرى الضباط الشراكسة بحضور عثمان باشا رفقى بقنل عرابى ، واعترف بعض الضباط المتهمين بما يؤيد اعتراف نجاتى بك » (٢) .

وقضى المجلس بأدانة أربعين رجلا منهم رفقى، فحكم بتجريدهم جميعا من القابهم ونفيهم الى اعالى النيل الأبيض فى ربوع السودان . . وعوقب بهذا العقاب اثنان من المدنيين مع حرمانهما من الحقوق المدنية ، وأحيل خمسة على المحاكم الأهلية ، وعوقب راتب باشا المدبر للمؤامرة كما رأى المجلس بالحرمان من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ومنع من العودة الى مصر وإذا عاد فينفى من فورهِ . . . وذكر المجلس أن الخسديو اسماعيل هو الذى حرك المؤامرة ، واقترح أن ينظر مجلس الوزراء فى مرتباته . . .



اختلفت الآراء فى بواعث هذه المؤامرة الشركسية ، ومن هذه الآراء ما ذكره بلنت حيث يعزوها الى الخديو

---

(١) تمت لدى نسخة من هذه المذكرات المخطوطة تفصيل بعض أبنائه بامدادى بها . .

(٢) الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعى ، وقد نقل ذلك عن جريدة الوطن عدد ٢٩ أبريل سنة ١٨٨٢

اسماعيل ، الذى وكل بها رجلا عرف بعداوته القاسية للحركة الوطنية ووجوها يدعى راتب باشا ، وكان اسماعيل يطمع أن يصل بهذه المؤامرة الى العودة الى عرشه ابتغاء القضاء على القلاقل والفتن المزعومة التى عجز توفيق عن القضاء عليها كل العجز ، وكان يمنى نفسه بأن توافق انجلترا على ذلك فتقنع به تركيا أو تجبرها عليه ...

ويؤكد بلنت هذا الراى قائلا : انه عرفه من جملة مصادر منها ابراهيم بك المويلحى سكرتير اسماعيل ، ولقد أيد الشيخ محمد عبده هذا الراى فيما جاء بكتابيه الى بلنت بعد سفره الى أوروبا عن هذه المؤامرة قال : « أما فيما يتصل بالمؤامرة الشركسية على حياة عرابى باشا فليست بذات خطر حقيقى ، فان الخديو السابق اسماعيل أكبر عدو رآته مصر والرجل الذى لا يزال يحقد على ما بلغناه من سعادة ، لا يفتأ منذ مدة طويلة يضع الفام مؤامراته ليدمر حكومتنا الحالية ظنا منه أن ذلك يمهّد السبيل لعودته ، ولكن الله القادر قد بعث آماله أدراج الرياح حيث ان كل مصرى يعرف أن عودة اسماعيل معناها خراب مصر » (١) .

ولقد بدأت المؤامرة بتدمير الضباط الشراكسة فى الجيش مما اتخذه وزير الحربية الجديد أحمد عرابى باشا من اجراءات الترقية ، زاعمين انها اجراءات ظالمة تنطوى على الكيد لهم والانتقام منهم ، لا عن جريرة ارتكبوها ولكن لانهم ليسوا مصريين ، ومما غاظهم كما زعموا الحاق بعضهم بالمناصب الخالية بالجيش المصرى فى السودان ...

والذى يقف على اساليب السياسة الانجليزية الماكرة

---

(١) S, H. of The British Occupation of Egypt. P. 252

في تعكير كل جو ترى مصلحتها في تعكيره لا يستبعد أن يكون لمن كان يقيم بمصر من الانجليز يومئذ أثر كبير في الإيحاء إلى هؤلاء الشراكسة بهذه الآراء لكي تشيع فيهم الفتنة ، ثم تجاوزهم إلى المصريين فلا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة ...

ومما يميل بنا إلى الاعتقاد في صحة هذا القول الذي نقول - فضلا عما أسلفنا بيانه من سوابق السياسة الانجليزية - ما رمى به الانجليز الوزارة الوطنية من التهم على السنة صحفهم ومندوبيهم في مصر وبخاصة ما ذكروه من الافك حول الجيش وسيطرته على كل شيء والواقع انه لم يكن فيما فعل عرابي الا ما يقتضيه تطبيق القوانين العسكرية الجديدة التي وافقت الحكومة السالفة عليها ، فان تلك القوانين تنص على وجوب احالة المرضى والذين بلغوا سنا معينة على الاستبداع ، ولقد دافعت الوزارة بهذا ، ولكن الخراصين المناوئين لم يحملوا هذا العمل الا على الرغبة في الانتقام ...

ولقد كان ممن نقلوا إلى السودان ستة وثمانون من المصريين وتسعة من الشراكسة فحسب وستة من الاتراك فأى معنى للكيد والانتقام في هذا ؟

ونحن اذا جارينا هؤلاء الكائدين لمصر وحركتها فيما زعموه من أن الوزارة متهمة فلا تصدق فيما تورده دفاعا عن عملها ، فان فيما كتبه الشيخ محمد عبده إلى صديقه مستر بلنت في كتابه المشار إليه أقوى دليل على براءة عرابي والوزارة السامية مما اتهمت به قال : «أما عن ترقية الضباط التي لا تزال تلفظ بها الصحف الاوربية فاسمح لي أن أشرح لك الحقائق ، فأول كل شيء ان هذه الترقيات ليست من عمل عرابي باشا وحده ولا كانت رشوة يقصد بها اجتذاب الضباط نحو عرابي،



فإنها كانت نتيجة للقوانين العسكرية الجديدة التي تقضى بأن يحال على المعاش من يبلغون سنا معينة ومن يصابون بالمرض أو التقاعد أو العجز ، وقد بدأ تنفيذ هذا القانون من عهد شريف باشا ووضع في قائمة الإحالة على المعاش ثمانية وخمسون وخمسمائة ضابط ثم أرسل ستة وتسعون الى حدود الحبشة والى زيلع وأماكن أخرى ، وأخرج من الجيش نحو مائة ضابط الحقوا بالوظائف المدنية ، ويبلغ عدد هؤلاء جميعا أربعة وخمسين وسبعمائة ضابط ، فكان من الطبيعي إذن أن تجرى ترقيات للمناصب الخالية ، ولا يزال في الجيش خمسون منصبا يحتفظ بها لخريجي المدرسة الحربية .

هذا ما ذكره الشيخ محمد عبده ومنه يتبين الحق في هذه المسألة . على أننا لو فرضنا أن عرابيا قد أثر المصريين بالترقيات وتخطى بذلك نفرا من الشراكسة ، فلن يكون في رأينا مخطئا حتى في هذا العمل . فحسب هؤلاء الشراكسة ما نالوه من حظوة طوال العهود السابقة وبخاصة في عهد رفقي ، وذلك على ما كانوا يضمرونه وما كانوا يبدونه من حقد واحتقار لمصر والمصريين ، وحسب المصريين وهم أبناء البلاد الذين تجبى منهم الضرائب ماذا أقوا من هوان ومذلة على أيدي هؤلاء السادة الذين استنزفوا دماءهم ، واتخذوا منهم عبيدا وأماء ...

وماذا كان ينتظر من عرابي غير أن يطبق القانون ، وهذا أقل ما يفعله رجل هو زعيم ثورة كان هذا القانون ثمرة من ثمارها ؟ ماذا كان ينتظر من ذلك الذي ظل طول عمره ناقما على حرمان المصريين في الجيش واستئثار الشراكسة فيه بالخير ، فلم يكف عن الشغب على هؤلاء الشراكسة الباغين منذ أن كان جاوisha ليس له من الأمر

شيء ولم يفتر عن مقاومتهم ومصاولتهم في كل خطوة  
خطاها في سلك الجيش حتى انتهت اليه زعامته ؟

اجل ، ماذا كان ينتظر من هذا الرجل ، وما كان  
حقده على هؤلاء في يوم ما صادرا عن صفار أو أنانية ،  
وانما كان مبعثه ما يحس في اعماق نفسه من حماسة  
وطنية وغيره قومية هما في مقدمة ما كان يتصف به من  
صفات ؟ !

ومهما يكن من الامر فما كان عمل عرابي في أية صورة  
له ، مما يقابل بالقتل ! ولا كان تقديم المتآمرين الى  
المجلس العسكري مما يستأهل كل ذلك السباب الذي  
راحت تنبع به جوقات الاستعمار ، وهل نسي هؤلاء  
ان عرابيا وصاحبيه قد قبض عليهم في صورة مخزية  
غادرة تبعث على الاشمئزاز والسخرية ، لمجرد أنهم  
تقدموا ليرفعوا شكواهم الى اولى الامر مما كانوا يحسونه  
من اجحاف بحقوقهم دون ان يفكروا في قتل أحد أو  
العدوان على أحد ؟

وكيف لا يستحي دعاة الاستعمار من ان يلوموا هذا  
الرجل بالامس ويتهموه بالفوضى لمجرد انه شكك امره  
الى رؤسائه ، حتى اذا قبضت الحكومة عليه عد ذلك  
منها عين الصواب ، ثم يعودون اليوم فينددون به  
ويستصرخ بعضهم بعضا عليه لا شيء الا لانه يقدم الى  
المحاكمة فريقا ممن يتآمرون على قتله ! ألا ما أشد  
ما تحسه النفس من ضيق وغيظ تلقاء هذه المقارنة بين  
الموقفين !

واتت الفرصة كلفن ومالت واشياعهما من الثعالب  
وبنات آوى ، وهيئات ان تواتى الانجليز فرصة  
فيضيعوها ، لذلك ما كان أسرعهم الى استغلال الحادث  
فبدأوا أولا يذكرون التعصب الاعمى ، ثم انتقلوا الى

ذكر الفوضى الحكومية ، وعدوا ترقية الوطنيين مظهرا  
من مظاهر الرشوة التي أريد بها التأثير في رجال الجيش  
كى يكونوا على استعداد عند أول صيحة ، ثم راوا في  
محاكمة الشراكسة مظهرا من مظاهر الظلم والاستبداد  
الفاشم قائلين في منطق عجيب ليس مثله في معنى  
الصفقة والتبجح : ان المؤامرة وهمية لم توجد الا في  
رأس عرابى ، وان الغرض منها لم يكن سوى التخلص  
من الشراكسة بأى وسيلة ، وان المحكمة العسكرية التي  
فصلت في الامر كانت جلساتها سرية فكانت تعمل بما  
يشير به عرابى ، لذلك جاء حكمها في منتهى القسوة  
بحيث لا يقل عن الاعدام ، ولم يفهم ذلك حتى يدعوا  
في جراحة وفي امعان في القحة أن عرابيا كان يذهب الى  
السجن فيعذب هؤلاء الشراكسة أيام المحاكمة ويشفى  
غليل نفسه بمنظر ذلتهم وخضوعهم ...

ولقد جعل الافاكون الخراصون هذه المحاكمة من  
أكبر سوءات ذلك العهد ومن كبائر خطيئات عرابى ،  
وحذا المؤرخون من الانجليز حدو الساسة في موقفهم من  
هذه المسألة ، وما كان ينتظر منهم أن يفعلوا غير ذلك ،  
ومن هؤلاء كرومر ، وهو رجل كان بحكم صلاته برجال  
ذلك العهد جميعا يعلم حقيقة الامر ، ومع ذلك طاعه  
ضميره على أن يقول في كتابه « لم يظهر دليل جدير  
بالتصديق ولا ظهر دليل على أن تهمة المؤامرة كانت  
تهمة حقيقية ، وكان حكم المحكمة العسكرية وثيقة  
وحشية تحمل طابع المظاهرة السياسية أكثر مما تحمل  
طابع الحكم القضائى وكان عرابى كثير الظنون شأنه في  
ذلك شأن كل جاهل من الرجال ، ولم تعش المؤامرة على  
قتله الا في خياله هو فحسب » .

هذا الذى شاء أدب كرومر أو على الاصح شاءت

سخيمته أن يكتبه مع علمه باعتراف بعض المتأمرين  
بالتهمة ...

ولقد أخذ بعض المؤرخين من المصريين هذا الكلام  
المرسل على عواهنه وشايعوا الانجليز وأسفاه في رأيهم  
هذا في عرابي كما شايعوه في غير هذا من الآراء ، الأمر  
الذي يؤلم النفوس أكبر الألم ، فليس يعني ما يقول  
خصوم الوطن وخصوم عرابي ، ولكننا نضيق كل الضيق  
أن تجوز الأباطيل على المصريين في رجل منهم ، ومن هنا  
ضاع تاريخ عرابي وأنكره بنو قومه ونجح الاحتلال في  
مأربه فساق الجيل الذي خلف جيل عرابي كما يحب ،  
فأضاف هؤلاء إلى عيب خضوعهم للدخيل فضيحة  
مشايعته فيما يسبهم به في شخص بطل من أبطالهم ! .

ويجدر بنا أن نضع أمام عيني القارئ بعض ما كتبه  
الشيخ محمد عبده تعقيباً على الأمانة . . قال في كتابه  
إلى بلنت : « كانت الوزارة يخالجه منذ زمن طويل  
شبهات عما عسى أن ينجم من شر ، فمنذ أن عاد راتب  
أول مرة إلى مصر ، طلب البارودي رئيس الوزراء  
الحالي وكان يومئذ وزير الحربية ، من شريف باشا  
في حضرة الخديو إخراج راتب ، فقد داخلته الريبة  
بسبب أن راتباً ترك الخديو السابق فجأة في نابلي ولكن  
شريفاً رفض ذلك على الرغم من أن البارودي حمله تبعة  
ما عسى أن يقع من الحوادث يوماً ما ، وكان ذلك لأن  
راتباً كان صهر شريف ، وربما كان شريف لذلك يرى  
رأيه في العمل على إعادة اسماعيل » .

ثم قال الشيخ محمد عبده : « وقد أحدث هذا الحادث  
شيئاً من الهياج بين عامة الناس . أن كل امرئ يعلم  
أن حياة عرابي معرضة للخطر كل يوم كحياة غيره ، كما  
أنه لا يتفق لرجل مهما يكن من عظمته ألا يكون بين

الناس من يريده بالسوء ، ولكننا لا يسعنا الا أن نضحك اذا أعلن أن انجلترا على وشك الفوضى لان أحد المجانين من المدنيين أو من العسكريين حاول قتل ملككم » .

وليت هؤلاء المفرضين قد اقتصر أمرهم على الكذب والاثهام ، فلم يخطوا تلك الخطوة النكراء التي أكدت القطيعة بين الخديو والوزراء وعجلت الكارثة للبلاد ، وما كانت ادعاءاتهم الا مقدمة بدأوا بها ما كانوا يبيتون من المكر السيئ . . يقول في ذلك بلنت : « وفي تلك الاثناء بلغت الحوادث في مصر مبلغا عظيما من الحرج بسبب المؤامرة الشركسية التي وصلت أنباؤها لندن في الاسبوع الثالث من ابريل ، ولم أعرها أول الامر كثيرا من الاهتمام وأخذتها على أنها إحدى الشائعات التي كانت تداع يومئذ ، ولكن سرعان ما أصبحت ذات خطر كبير لا من حيث هي في ذاتها ، ولكن بوجه خاص لأنها أمدت رجالنا السياسيين بالفرصة التي طالما ترقبوها ، لكي يوقعوا الخلاف الصريح بين الخديو ووزرائه ، وكان مالت يومئذ قد خضع تمام الخضوع لكلفن ، وصار منذ ذلك الحين يهتدى في حركاته حتى النهاية بما يعرض كلفن من آرائه الانجليزية الهندية » .

عرض قرار المحكمة العسكرية على الخديو فأسقط في يده ، أيوافق على هذا الحكم فيظهر أمام الانجليز انه يظاهر وزراءه فيخسر الدين يظاهرونه هو ، أم يرفض التصديق عليه فيرضى الانجليز ويقضى على كل أمل في ارضاء عواطف الوطنيين ؟

وكان مالت قد أشار عليه برفض هذا الحكم الذي ينطوى على القسوة والظلم على حد قوله ، وللقارىء أن يقدر مبلغ ما في هذا التدخل من تطفل وقحة اذ ما شأن مالت وهذا الحكم مهما كان ظلما كما يزعم ؟ وانهم

ليعلمون أن جلسات المحاكم العسكرية كانت سرية حتى في عهد المراقبة ، وأن الخديو لا يملك رفض احكامها وكل ما له من حق في هذا الصدد هو تخفيف تلك الاحكام بعض الشيء بعد التصديق عليها ...

حار توفيق واشتدت حيرته ورأى الامر جد خطير ، وأى شيء أخطر من أن يتحدى وزراءه في غير حق وفي موقف كهذا تخطط فيه بهم الدسائس من كل جانب ويعترض طريقهم من الصعاب ما يتطلب تدليله جهودا متواصلة .

لذلك وقف الخديو أول الامر موقفا مبهما ، وسرعان ما شاعت الشائعات عنه من ناحية ، وعن الوزارة من ناحية أخرى ، وكلما مر يوم ازدادت ريبة الوطنيين وتعاضم غيظهم وغضبهم ، ووجدت الدسائس الجو الصالح لنجاحها ، فنشطت نشاطا كبيرا ، ولازم مالت الخديو يوحى اليه ويوسوس له .

ولم تطل حيرة توفيق فانه أثر جانب مالت ، وخطا بذلك خطوة أخرى من خطواته التي كانت تعجل سير الحوادث ابدا نحو الفاية التي رسمها الانجليز والتي كان بلوغها من جانبهم معناه التهام مصر وازدراء تلك اللقمة التي طالما منت انجلترا نفسها بازدرادها ...

ولعلنا نذكر من مواقف توفيق السالفة ما كان يدفع به الحوادث في طريق العنف والثورة دفعا ، فهو الذى أدى الى انضمام الحزبين العسكرى والوطنى وتضافرهما يوم تنكر للدستور وأخرج شريفا من الوزارة ، وهو الذى تقع على عاتقه قبل غيره مسؤولية مظاهرة عابدين ثم هو الذى قبل المذكرة المشتركة فأحبط أعمال شريف للمرة الثانية وصدّم الوطنيين صدمة لم تدع لهم بعد رجاء فيه .



وليس بعجيب أن تكون خطى توفيق كلها مفضية الى  
الاقتراب من الكارثة فهو انما يعمل بوحي من الانجليز  
وقد عين هؤلاء الهدف الذى يقصدون اليه بسياستهم ،  
وكان الخديو قد دان بمبدأ نحسب أنه جرى فى نفسه  
مجرى العقيدة وذلك أن يؤثر جانب الانجليز فى كل شيء  
لان ~~سفر~~ ذلك كما توهم منجاته من الصعاب التى كانت  
تحيط بعرشه

راى الخديو كما اوحى اليه مالت أن حكم المجلس  
العسكرى على المتآمرين من الشراكسة حكم لا يسعه  
الموافقة عليه ، ورات الوزارة من جانبها أنها سلكت  
فى المسألة منذ بدايتها مسلكا لا غميرة فيه فهى بذلك  
تتمسك بالحكم الذى أصدره المجلس، هذا الى أن رفض  
الحكم من شأنه أن يضيع هيبتها وينتقص من نفوذها ،  
ثم انها الى ذلك ترى التحيز واضحا من جانب الخديو،  
ذلك الذى كان يتشدد بالامس أعظم التشدد يوم سيق  
عرابى وصاحبه الى السجن لا لشيء سوى أنهم شكوا  
الى اولى الامر حالهم . . . ومن هنا قامت أمام البلاد  
مشكلة من أدق المشاكل واطورها . . .

وكان الذى يفضب الامة والوزارة فى الواقع أشد  
الفضب وآله تدخل الانجليز فى تلك المسألة التى لا صلة  
اهم بها ولا شبه صلة ، وأحست الوزارة أن غرضهم هو  
احراجها فحسب ، ومن هنا اتخذت المشكلة مظهرا  
دقيقا غاية الدقة ، خطيرا كل الخطر ، فلقد وجد الوطنيون  
البلاد تلقاء موقف . . تمتحن فيه السكرامة الوطنية ،  
والعزة القومية ، وراوا الظروف تعود من جديد فتظهر  
للخديو ان لا سبيل له الا سبيل الوطنيين لانه بانحرافه  
عن هذه السبيل انما يطعن البلاد طعنة نجلاء فى صميم  
قوميتها .

ولقد فرح المستعمرون لاريب أن تتعقد المشكلة على هذا النحو ، وزاد فرحهم أنها من صنع أيديهم ، لذلك كانوا لا يألون جهدا في العمل على تفاقمها بكل ماوسعهم من مكر وخبث ، وراحت صحفهم تزيد نار الخلاف اشتعالا لا تتورع ولا تتوانى ، ومن ورائها رجال السياسة ورجال المال يصورون مصر في اشنع حالات الفوضى والاضطراب ، فلقد سيطر رجال العسكرية وسيطر زعيمهم عرابي على كل شيء حتى ما يقف في طريقه حائل من قانون أو التزامات حتمتها الديون والظروف على مصر . . .

وكان الخديو في الواقع نلقاء آخر فرصة يستطيع أن ينقذ بها مصر مما كان يبيت لها ، ولكنه ألقى نفسه سلب الارادة أمام ارادة الانجليز ، بل انه في الحق قد فرح أن يلطم وزارة البارودي لطمة يتخلص بها منها ويتخلص من عرابي الذي بات يغار منه اشد الغيرة ويمقتة اشد المقت حتى ما يطيق أن يسمع اسمه .

وليت توفيقا تحرك من تلقاء نفسه ، اذن اهان الخطب وخفت وطأة البلوى على النفوس ، فقد كان يمكن أن يقال يومئذ انه ارتأى رأيا ، وانه ينتوى الخير او ينتوى الشر حسبما يرى ، ولكنه وا أسفاه كان يقوى على الوطنيين بضعفه ، فلم يكن يريد شيئا وانما كان يراد له كل ما يأخذ او يدع من أمر . . .

وبدا لمالت فأوعز الى الخديو أن يتخلص من المأزق بعرض الامر على السلطان ، وحبته ان عثمان رفقى بحمل لقب الفريق ، فلا يجوز لاحد غير السلطان أن ينزع منه هذا اللقب ، وسرعان ما فعل توفيق كما أشار به مالت فزاد الامور ارتباكا وتعقيدا .

ولقد اخطأ مالت خطأ كبيرا فيما اشار به ، فانه جرجر

بذلك تركيا الى الدخول في ذلك النضال ، الامر الذى كانت تحذره الدولتان اعظم الحذر، وان كانت احدهما تخفيه ، بينما الاخرى لا تتحرج من أن تعلنه في كل مناسبة وتبديه ...

أما الوطنيون فقد غضبوا لذلك اشد الغضب ، ورأوا فيه ضربا جديدا من اثم مالت ، فأجمعوا أن يمنعوا تدخل تركيا مهما كلفهم ذلك من وجوه الصعاب والمشاق . وبلغ الغضب برئيس الوزراء ان اعلن في عزم وتصميم : « أنه اذا أرسل الباب العالي أمرا بنقض حكم المجلس العسكرى على الشراكسة السجناء ، فان لن نطيع هذا الامر ، واذا أرسل الباب العالي من قبله مندوبين ، فسوف لا نسمح لهم أن يهبطوا مصر ، وسوف نردهم بالقوة اذا لزم الامر » (١) .

وهذه لاريب ثورة غضب من البارودى نعتها من اخطائه ، فلقد أفضى بهذا التصريح الى مالت ، وهذا أرسله الى حكومته وانه لشديد الاغتياب به اذ يسوقه دليلا على أن الامور قد بلغت غاية الحرج ، ثم انه يسوقه من جهة أخرى دليلا على صحة ما ذكره مرارا وهو تسلط زعماء الجيش واستهتارهم بكل سلطة . ولم ينج عرابى من حملات الكائدين له وحمل مسؤولية هذا التصريح كأنما كان هو قائله ، وأرجف المرجفون أن البارودى انما يعمل بوحي من عرابى الذى يعد الحاكم الحقيقى للبلاد ! ..

الحق أن البارودى قد أساء الى القضية اساءة كبيرة بهذا التصريح . فهو فضلا عما ذكرنا ، انما يتحدى السلطان في ذلك الوقت العصيب فيضيف الى أعدائه عدوا جديدا ، وان الذى يحيط به الاعداء من كل جانب

لجدير به أن يحتال ليستل السخائم من صدورهم ، أو ليكسب من الأعوان والأصدقاء من يكونون له في الشدة قوة وسندا .

. وكانت النتيجة المباشرة لهذا التصريح استحكام الازمة بين الوزارة والخديو ، فلقد رأى توفيق أنه أصبح في الواقع وليس له من الأمر شيء ، فإذا كان البارودي يقف هذا الموقف في وجه السلطان نفسه فكيف إذا جاءت المعارضة من الخديو ؟ وهذا هو المعنى الذي لا يفتأ مالت وأعوانه يوحونه الى الخديو في تلك الازمة العصيبة .

ولو كانت الوزارة أصرت يومئذ على موقفها من العناد والصرامة لحملت قسما كبيرا من التبعة عن تعقد الأمور وتخرجها ، ولكنها ما لبثت أن خطت خطوة حميدة حقا كانت تنطوي على كثير من الكياسة وبعد النظر ، فأنها تقدمت الى الخديو تقترح أن يخفف هو الحكم من تلقاء نفسه دون الرجوع الى تركيا أو غيرها . والوزارة ترضى أن ينفي المحكوم عليهم من مصر الى أى جهة من الجهات دون أن تمس رتبهم أو ألقابهم وإنما تستبعد أسماءهم من سجلات الجيش المصرى ...

وهذا المقترح لاريب دليل صادق على حسن نية الوزارة ورغبتها في أن تنتهى المسألة وتنجو البلاد من كيد الأعداء ، وهى فيما تقدمت به على هذا النحو متساهلة في الواقع أكبر التساهل ، فما دام المجلس العسكرى قد حكم بادانة هؤلاء فإن إبعادهم من البلاد يقتضى إبعادهم من سجلات الجيش ، ولكن الخديو واأسفاه قد تنمر وتنكر ، فرفض أن يجيبها حتى الى هذا الاقتراح ...

وكان مالت من ورائه لا ينفك يوسوس له ويزين

فعل السوء ، وكان جرانفل قد أنكر من مالت ما أشار به على الخديو من دعوة تركيا الى التدخل ، فكتب اليه أن يسير على وفاق مع ممثل فرنسا ، وفي هذا تلميح الى ما كان في سياسته من خطأ ، وكان ممثل فرنسا يسير بوحى من فرسنيه ، ولكن عز على مالت أن يتراجع بعد هذه الخطوات فينقض ما نسجه من غزل بيده ، فانظر اليه كيف يخلع النقاب على صورة قل أن يوجد مثيل لها في سجل السياسة العام فيكتب الى جرانفل قائلا : « اسمحوا لى أن الالحظ انه عند النظر في الخطة التى يجب أن يسلكها الخديو بأزاء حكم المجلس العسكرى يجب أن نلقى نظرة عامة على الحال كلها ، وأن نذكر أن الوزارة الحاضرة تسمى لتضييق نطاق الحماية الانجليزية الفرنسية ، وأن نفوذنا آخذ كل يوم فى النقصان ، وقد يستحيل علينا أن نستعيد سلطتنا العليا حتى تخضد شوكة الحكم العسكرى الذى يرزح القطر نحته الآن ، وفى اعتقادى أنه لا بد من حدوث ارتباكات شديدة قبل الوصول الى حل مرض للمسألة المصرية ، وأن الحكمة تقضى باستعجال هذه الارتباكات لا بتأجيلها » (١) .

وأي كلام يمكن أن نعلق به على هذا الذى يقول مالت وبخاصة تلك الحكمة التى يشير اليها ؟ أهكذا تطفى المطامع على العقول والقلوب حتى تجعل من الحكمة استعجال الارتباكات ؟ ولكن خرافة الذئب والحمل لن تزال أبدا الأساس الذى يقوم عليه منطق الكلام بين القوى والضعيف فى هذا الوجود !

وأي دليل أبلغ من هذا على صحة ما ذكرناه وما يذكره كل منصف عن السياسة الانجليزية تجاه مصر منذ كان لها فى هذا الوادى أطماع ؟ الا أنا لنقرر تلقاء هذا فى غير

---

(١) المسألة المصرية تعريب الاستاذين العيادى وبدران

تردد أن هذه السياسة اللئيمة كانت خليقة بأن تقابل من جانب الوطنيين بكل مقاومة ، بل إنها لسياسة كان يفتخر في مقاومتها يومئذ كل عنف ، وبحب أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنها سياسة كان لا يفتخر معها الاعتدال ولا تمتدح الحكمة ، أن كان الاعتدال والحكمة معناهما اقرار المذلة ومقابلة الغدر واللاؤم بالصفح والمغفرة !

ولكن بعض الناس لا يزالون يأخذون على عرابي وحزبه تشددهم وعدم مصانعتهم خصومهم وبعدون إباءهم الوطني من السيئات التي لا تفتخر ولا تنسى ، وما نظن أن هؤلاء الناس يعلمون ما كانت تبينه السياسة الانجليزية لوطنهم من غدر واذلال ، فمن أصعب الأمور أن يتصور المرء قبولهم الذلة على أوطانهم حتى ينكروا على الوزارة ما فعلت ...

ورأى جرانفل أن يشايع فرسنيه في هذه المسألة ، وكان يرى فرسنيه أن يخفف توفيق الحكم كما ترى الوزارة فتنتهى الازمة ، ولكن كيف يدع مالت الفرصة تمر وهى من صنع يديه ؟ وكيف يطيق أن تخرج الوزارة من الازمة ظافرة فيكون ظفرها في الواقع هزيمة له ؟ لذلك لم يزل بتوفيق حتى وقع على أوراق الحكم بنفى المتآمرين إلى خارج البلاد لا إلى السودان مع عدم استبعاد أسمائهم من سجلات الجيش ، ومعنى ذلك أن النفى مؤقت ...

وتلقت الوزارة اللطمة وتلقته معها البلاد ، وآلم عرابيا وضباط الجيش من الوطنيين هذا الترفق بالمتآمرين ، وقد كان عرابي ومن شايعه على وشك أن يفقدوا رؤوسهم بالامس أو ينفوا إلى أقصى السودان لأنهم شكوا من سوء ما صنع بهم رفقى ...



وأعلنت الوزارة على لسان رئيسها أن لابد من قرار يلقى هذا القرار حتى تمحي الإهانة التي وجهت الى الوزارة والى البلاد في شخصها ، ولكن مالت حذر الخديو أن يجيب وزراءه الى ما طلبوا ، ويستطيع القارئ أن يدرك خطورة هذا الموقف ، فلقد تأكدت القطيعة بين الخديو ووزرائه ، وانعدمت الصلة وتفاهم البلاء ...

وصل نل من الطرفين الى الموقف الذي يفسر فيه كل عمل حسب ما يجري في اطواء النفوس ، ففي كل حركة ريبة ، وفي كل بادرة اهانة ، وكل نية لن تكون الا نية سوء ، وكل جنوح الى السلم لن يؤخذ الا على أنه ضرب من الهزيمة والتسليم ، وكل كلمة نابية أو شديدة لن تفهم الا على أنها نوع من التحدي يراد به اعنات القلوب واحراج الصدور ...

وفي هذا الموقف راح مالت يجنى ثمار غرسه وانه ليعطفر من الفرح كما يطفر الشيطان . كتب الى جرانفل في اليوم الثامن عشر من شهر مايو سنة ١٨٨٢ ، أي بعد قرار الخديو بتسعة أيام يقول : « لقد انقطعت الصلة بين الخديو ووزرائه ووصل الموقف الى أقصى الخطورة » ...

وتقدمت الوزارة لترد على الخديو فخطت خطوة جريئة بالغة الجرأة ، فدعت مجلس النواب من عطلته دون الرجوع الى الخديو لتعرض عليه الامر ، فازدادت الامور حرجا على حرج ، فلقد عد أعداء البلاد هذا العمل من الوزارة بمثابة خروج على الحاكم الشرعي لا يقل في مفزاه عن خلعه من عرشه ، ونسوا أو تناسوا أن الخديو باتباع مشورتهم هو الذي دفع الوزارة حتى أوقعها في مأزق ضيق بحيث لم يبق أمامها الا أن تقر

الخديو على خروجه على الدستور ومشايعة أعداء البلاد  
او تستقيل ، وفي كلا الامرين تفريط منها في حقوق البلاد  
فضلا عن كرامته رجالها ...

وانطلقت الشائعات من هنا ومن هناك ، فالبارودى  
يريد أن يثب الى العرش ، والجيش على أهبة لان يتحرك  
الى عابدين ليرغم توفيقا على قبول مطالب الوطنيين كما  
أرغمه على مثل ذلك فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر  
من العام الماضى ، والخديو يعد العدة للمقاومة ، الى  
غير ذلك من الاراجيف التى كان من طبيعة ذلك الموقف  
أن يخلقها .

ولو كانت الروح العسكرية هى المسيطرة على الحكم  
يومئذ كما أرجف المرجفون لما وقف دون الجيش حائل  
الى القصر وليكن بعد ذلك النصر او الطوفان ، ولكن  
الوزارة رأت أن تحتكم الى نواب البلاد، ولما كانت واثقة  
أن الخديو لن يدعو المجلس دعتة هى ليفصل فى الامر،  
ولا عبرة بالشكل فى سبيل تحقيق الجوهر ...

وسئل رئيس الوزراء عن وجهة نظره فى دعوة المجلس  
دون الرجوع الى الخديو ، فكان جوابه أن الخديو قد  
نشأ الخلاف بينه وبين وزرائه بحيث لا يمكن الاتفاق بينه  
وبينهم ، ولذلك فقد دعى المجلس دون مراعاة سلطته  
فى هذا ، ثم قال : « ان شكوانا من سموه هى أنه سلك  
مسلكا يقضى على استقلال مصر ، وكثيرا ما فعل ذلك  
دون مشاورة وزرائه » (١) .

والحق أن توفيقا كان يود التخلص من هذه الوزارة  
بأى ثمن وكان فيها البارودى الطامع فى عرشه ، وعرابى  
زعيم مصر وقائد حركتها القومية ، الذى يسير بطبيعة  
حركته فى طريق تعدد الخديو طريق الضلال والعصيان

---

M, Egypt. (1)

وتعد كل خطوة فيها ثورة وتكبيرا ، وأى شيء هو ألم  
لنفسه من أن يرى فلاحا من أبناء هؤلاء الدين ماخلقوا  
في رأيه إلا للفأس والطاعة يتربع على كرسى الوزارة ،  
ويتكلم اذ يتكلم باسم الامة ، ويقبل ما يقبل أو يرفض  
ما يرفض باسم الامة ؟ ..

ولقد عاب كثير من الناس على البارودى وعرابى  
مسلكهما تجاه الخديو فى الازمة ، وحجتهن أن الواجب  
كان يقضى على البارودى أن يترك الحكم ما دام الخلاف  
قد استحكمت بينه وبين الخديو ، ولقد يبدو هذا الكلام  
وجيها لمن ينظرون فى النتائج دون تمحيص المقدمات ،  
أما الذين لا يصدرن حكما إلا عن تقص وفهم ، فهم لا  
يدهبون مذهب هؤلاء ، ولا يقيسون قياسهم .

وليست المسألة دقيقة على الافهام حتى تتشعب  
فيها وجوه الراى ، فحسب هؤلاء العائبين على الوزارة  
مسلكها أن يذكروا أن الخديو كان يعمل بوحي من  
الانجليز وعلى ذلك فاجابته أن تكون إلا تسليما لاعداء  
البلاد ، الامر الذى لن يقبله وطنى ..

ولو أن الامر كان خلافا بين الخديو ووزرائه ، وكان  
الخديو يريد وجه الوطن ، فالسبيل واضحة أمامه ،  
وذلك أن يحتكم الى الامة ممثلة فى مجلسها النيابى ،  
ويجعل للمجلس عن طيب خاطر القول الفصل فى الخلاف

وهل كان يحمد من الوزارة أن يكون قصارى جهدها  
الاستقالة من الحكم وانها لفى موقف جهاد ومقاومة  
للسائس الدساسين ومطامع الطامعين ، وان الخلاف  
بينها وبين الخديو فى جوهره لخلاف على السلطة لمن  
تكون ؟ .. كلا ، بل انا لنرى استقالتها فى مثل تلك  
الظروف ضربا من الفرار ومثلا من أبلغ أمثلة الضعف ،  
وبخاصة اذا سلمنا بموقف الخديو من القضية كلها على

النحو الذى تذكره والذى لن نجد دليلا على صحته  
أبلغ مما ذكره كرومر فى كتابه حيث يقول عن الخديو :  
« انه بين للسير ادوارد مالت فى يوم ٦ مايو انه يؤثر أن  
تفقد مصر بعض امتيازاتها على يد الباب العالى وتعود  
اليها السلطة المنظمة على أن تبقى فى مثل تلك الفوضى » ،  
ومعنى ذلك انه كان يريد أن تطلق يده فى مصر فيحكمها  
كما يشاء ولا عبرة فى سبيل الوصول الى هذا الفرض  
بما تفقد مصر مما حصلت عليه من امتيازات خُطت بها  
خطوات واسعة نحو الاستقلال ...

لم يكن أمام الوزارة الا أن تحتكم الى نواب الاسة ،  
وقد لجأت الى ذلك بدعوة المجلس الى الاجتماع ما دام  
الخديو لم يدعه ...

وبوقفت وزارة البارودى لا تتحول ولا تلين ، فكان  
موقفها هذا ثورة لا شبهة فيها ، ثورة قومية كأروع  
وأجمل ما تكون الثورات القومية ، وهو موقف نراه  
جديرا بالاعجاب والتقدير ، وما نحسبه لو كان فى بلد  
غير بلدنا الا كان يعد من المواقف المشهودة التى تذكر فى  
مواطن الفخر والمباهاة ...

وكانت الوزارة قوية بادية الامر لانها كانت معتبرة  
بالنواب واجماعهم على الاخذ بناصرها ولكنها نظرت فاذا  
بينهم تغامز وفى صفوفهم اسرار واعلان ! واذا كبيرهم  
سلطان يدعوهم الى الحكمة والروية ... وكم تحمل  
على الحكمة والروية أعمال ليست منهما بسبب من  
الاسباب !

قال سلطان باشا يومئذ للسير ادوارد مالت : « لقد  
اسقط المجلس شريفا تحت ضغط عرابى ، وان نفس  
الاعضاء الذين الحوا فى ذلك أكثر من غيرهم يتوقون  
اليوم الى اسقاط الوزارة وقد استبان اهم أنهم

خدعوا « (١) ولو اطلع عرابى على الغيب يومذاك لراى  
أن هذه أخف ضربة من ضربات سلطان هذا الذى بدأ  
يتنكر للحركة القومية ، تلك الضربات التى سوف  
يسددها الى قلب مصر فى ضجيج الجهاد وسكرات  
الاستشهاد ...

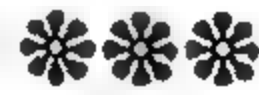
انحاز سلطان الى توفيق منذ ذلك الوقت فطلب من  
النواب الحكمة والروية وما تلقى هذا القول على عواهنه  
فهذا كلامه لمالت الانجليزى عدو مصر اللدود ينبىء عن  
ذلك اذ أنه يكشف الوزارة أمام الكائدين لها من الانجليز  
ويجعلهم يستهينون بما تستند اليه من سلطة الامة .

وكتب مالت الى حكومته فى اليوم الثالث عشر من  
شهر مايو يصفب الحال فى مصر ، أو على الاصح يصف  
مبلغ ما أصابته من نجاح دسائسه الاجرامية ، قال :  
« يظهر أن رئيس المجلس والنواب يميلون الى جانب  
الخديو ولقد سألوا سموه أن يأخذ بالعفو فيصلح  
وزرائه ، ولكن الخديو رفض ذلك... ويصر سموه على  
رأيه فلن يصلح وزارة تحدثه صراحة وتهددته هو  
وأسرته ، واعتدت على القانون بدعوة المجلس الى الانعقاد  
دون الرجوع اليه ، وفى القاهرة قدر غير قليل من القلق ،  
وكثير من الناس يفادرونها » (٢) .

ازاء موقف السلطان وفريق من النواب انخلع عن  
رئيس الوزراء عزمه ، وتزايد اصراره شيئاً فشيئاً ،  
حتى رأت البلاد البارودى يرفع الى الخديو استقالته  
فيرتكب بذلك اثماً نعيبه عليه أشد العيب فقد كان عليه  
أن يستطلع رأى النواب صراحة فى جلسة يعقدونها ،  
فاذا ناصروه كان عليه أن يبقى فى مكانه حتى يقال فيحظى

بشرف الاقالة او ينتصر فيكون له فخر الانتصار ...

لقد رفض النواب ان يجتمعوا في مجلسهم ، اى انهم رفضوا ان يشايعوا الوزارة في تحديها الخديو ، واجتمعوا في منزل رئيسهم ، ولكن هذا امر شكلى لايمس جوهر الموضوع ، فالامر الذى كان يهم الوزارة هو معرفة رأى ممثلى البلاد ، وسواء لديها اجتماعهم في مجلسهم او في اى مكان ، فليس ثمة من فرق بين الاجتماعين الا ان هذا رسمى وذاك غير رسمى ، ولم يكن المجال يومئذ مجال شكليات ، وقد جرى الخديو في مضماره الذى اختاره على الرغم من ارادة البلاد، وهل كان نواب الشعب الفرنسى الذين التقوا في ملعب التنس في مستهل ثورتهم الكبرى لا يعبرون عن رأى الشعب لانهم لم يجتمعوا في قاعة مجلسهم ؟



الحق ان البارودى قد هدم ما فعل جميعا باستقالته هذه ، ولو انه نال شرف الاقالة ، لكان منطقه متسقا ولاضاف بذلك الى نفسه والى وزارته معنى من معانى الالباء وحمل الخديو والموحين اليه وزرا جديدا يضاف الى سابق اوزارهم .

وعجز الخديو عن ان يقيم في مصر وزارة ، فقد اشفق من الحكم الرجال يومئذ واشفق مصطفى فهمى باشا حين عرضت عليه رئاستها عملا باقتراح ممثلى انجلترا وفرنسا اللذين صار لهما الآن حق اسقاط الوزارة الى من يرضيان عنهم في مصر .

وصرح الوزراء على الرغم من استقالة رئيسهم انهم لا يستقيلون الا اذا كان ذلك بأمر من مجلس النواب . هنا يعود عرابى فيشب الى مكان الصدارة من حوادث قومه بعد ان تنحى البارودى ، ولقد كان عرابى في الواقع



فى رآى الناس وفى رآى الاوربيين فى مكان الصدارة دائما  
وان كانت رئاسة الحكومة للبارودى ...  
عاد عرابى فوثب الى الطليعة ، وقد ضاق البارودى  
بالامر ذرعا ، فهو الذى اوحى الى الوزراء بما فعلوا وقد  
عز عليه ان يبعد الوزراء عن مناصبهم بمشيئة غير  
مشيئة الامة ، وتلك خطوة اخرى نضيفها فى غبطة وفخر  
الى سابق خطواته ...



ووقف عرابى فى مكانه لا يتزعزع وما كان اصلبه  
واشد مراسه اذا وقف فى امر يرى انه الحق ، ولقد  
صور المبطلون وقفته هذه انها عودة الى الثورة المسلحة  
وانه يوشك ان يفاجئ البلاد بيوم آخر كيوم عابدين ،  
فما حفل بكلامهم ولا خشى تهديدهم ، وكتبت الحكومات  
الى ممثليها فى مصر ان « يرسلوا الى عرابى فيبلغوه انه  
اذا اصاب النظام خلل فسوف يجد اوربا وتركيا كما يجد  
انجلترا وفرنسا ضده ، وانهم يحملونه تبعة ذلك » (١)  
وتلقى عرابى هذا الكلام رابط الجأش ، وان كان ليفطن  
الى خطورة الموقف واصر ذلك الفلاح الذى لولا ما كان  
من حميته وانفته منذ حداته لكان يجيل الفأس يومئذ  
فى حقول من حقول هرية رزنة ولا يدرى من امر السياسة  
والحكم شيئا ...

وظل الرجل على عناده يكشف عن كرم عنصره فيفهم  
من يريد ان يفهم ان بين اولئك الفلاحين من امثاله الذين  
يجيلون قنوسهم فى صبر وصمت فى حقول هذا الوادى  
رجالا لا ينقصهم الا العلم والحرية ليبهروا العالم ببسالتهم  
ونبوغهم ...

وصرح سلطان وقد اخذ يكيد للبارودى وعرابى معا

« أنه ليس من الممكن تغيير الوزارة مادامت القوة الحربية  
مجتمعة في يد عرابى باشا » (١)

ولم يكن يدري سلطان ان وراء تلك القوة الحربية قوة  
أخرى لولاها ما قام غيرها . لم يكن يدري سلطان ان  
هذه القوة الحربية التى يشير اليها كانت قائمة فى مصر  
من قبل فلم يظهر أثرها وخطرها الا فى يد عرابى دون  
غيره من الرجال ، ولو ان رجال وطنه جميعا التفوا  
حوله ما نالت انجلترا منهم شيئا ولسوف يتدون سلطان  
هذا وامثاله ممن نكبت بهم مصر ، من أكبر عوامل الهزيمة  
يوم التل الكبير .



حلت الازمة بأن أشار ممثلا انجلترا وفرنسا على  
الخديو « بأن يطرح المسائل الشخصية جانبا ، وبما أن  
سموه لم يستطع أن يقيم وزارة جديدة فانهم يطلبون اليه  
أن يجدد علاقته بالوزارة القائمة »

وبقيت الوزارة فى كراسيها ، وانتصرت كلمة الامة  
من جديد على يد ذلك الذى خرج من هرية رزنة ولم يلق  
الا قسطا من العلم فى الازهر ، والذى درج على الرغم  
من ذلك فى مدارج الرقى ، فكان نموه كما تنمو الشجرة  
الطيبة لا كما ينمو العليق الذى لا يرتفع الا على غيره . . .

ولولا ذوو الاطماع من المتربصين بمصر وحرية مصر  
لجنت البلاد من هذا الانتصار أطيب الثمرات ولعزت  
بذلك كلمة الامة حتى ما تذلل بعدها أبدا . . .

ولكن مصر وا أسفاه سوف تجنى من انتصارها هذا  
العلقم والحنظل

## بغى وعدوان

وكيف كانت ترجى لمصر السلامة ، والانجليز وراء الخديو يتربصون ويكيدون ؟ لقد آن لمالت الآن أن يدعو حكومته الى التدخل المسلح فقد حانت الساعة وواتت الفرصة ، ولن يهم انجلترا أن تكون هى المدبرة لكل ما حدث فلن يكون احتجاج الضعفاء الا صرخة ضائعة ولن يكون منطقهم الا ثرثرة ، وشكواهم الا تبجحا .

لم تكن فى البلاد ثورة ولا خاف فيها اجنبى على حياته أو متاعه ، ولكن اعوان السوء صوروها يومئذ صورة منكرة انزعجت منها أوربا أشد الانزعاج ، مع أن هؤلاء كانوا يعلمون حقيقة الامر ويوقنون أن المسألة لا تعدو أن تكون خلافا بين الوزارة والخديو ما كان ليبلغ ما بلغه من الشدة لولا تدخلهم على ذلك النحو الاثيم الذى بينا .

لم تكن البلاد فى مثل تلك الحال من الفوضى التى ذكرها المبطلون ، وحسبنا أن نورد هنا بعض ما جاء فى كتابين أرسلهما عرابى باشا الى مستر بلنت ، وكان ذلك فى أوائل شهر ابريل أى قبل الازمة التى نحن بصدددها بنحو شهر ، قال عرابى : « وفيما يتصل بنا فنحن نشكر على ما أسديت من صنيع يهم مصر وانجلترا معا وانا نأمل أن تكون انجلترا أقوى صديق يعيننا على وضع نظام طيب مؤسس على الحرية وعلى أن نحذو حذو الامم الحرة المتقدمة .

وأما عن نصيحتك التى تعطفت فأسديتها إلينا ، فانا  
نشكرك عليها ، ونرجو منك ان تقول عنا اننا لا نألو  
جهدا فى المحافظة على الهدوء والنظام ، لاننا نعد ذلك  
واجبا من أهم واجباتنا ، وانا لنحاول أن نحظى بالنجاح .  
ونستطيع أن نؤكد لك أن الهدوء الآن يشمل كل شيء ،  
والسلام يسود البلاد كلها ، ونحن نبذل غاية ما فى وسعنا  
ومعنا اخواننا الوطنيون للدفاع عن حقوق من يقيمون فى  
بلادنا ، بصرف النظر عما ينتمون إليه من الأمم ، وانا  
نحترم كافة المعاهدات والاتفاقات الدولية كل الاحترام،  
ولن نسمح لاحد بالمساس بها ما دامت الدول الاوربية  
تحافظ على علاقاتها الودية بنا . . .

أما عما يهددنا به كبار أصحاب المصارف ورجال المال  
فى أوربا ، فانا سنحمل ذلك فى ثبات وحكمة ، ففى رأينا  
أن ذلك الوعيد لن يضر الا أنفسهم وانه ليؤذى تلك الدول  
التي يضللونها .

وان غرضنا الاوحد هو أن تتخلص بلادنا من العبودية  
والظلم والجهل ، وان نرفع بنى مصر الى مستوى يستطيعون  
معه أن يحولوا دون أى رجعة للاستبداد ، الذى كان  
يضع مصر فيما سلف من الأزمنة فى زوايا الاهمال . . .

وان هذا الذى اكتبه اليك هو ما يفكر فيه كل مصرى  
حر العقل محب لبلاده . . .»

هذا ما يقوله عرابى الذى يصوره مالت نزقا جاهلا  
مستبدا ، والذى ظل فريق من بنى قومه حتى يومنا  
هذا لا يجدون له فى خواطرهم من صورة الا ما صور  
الاحتلال ، فاذا ذكرت للرجل منهم عرابيا راح يتلو عليك  
ما لقنه فى المدرسة واأسفاه من أوصاف هى أبعد ما تكون  
عن حقيقة هذا الرجل المظلوم ، ومن أغراض شـشـتار  
بينها وبين ما كان يبتغيه لقومه هذا الزعيم المفترى عليه

أجل ! لا زلنا مع بالغ الاسف نسمع حتى اليوم من بعض المصريين ومنهم من له في الناس مكانته ، قدحا في عرابي ، فاذا جادلناه لا نجد لديه من علم الا أن عرابيا كان طائشا جاهلا ، لا يدري شيئا من شئون بلاده ، الى امثال تلك العبارات المحفوظة التي لا تفتقر لصبي في المدرسة ، واذا كان عذر هؤلاء عن قدحهم أنهم يجهلون تاريخ هذا الرجل ، فانا لن نجد لهم عذرا عن هذا الجهل فذلك هو العذر الذي يوصف بأنه أقبح من الذنب . . .

لينظر هؤلاء فيما بينا من آمال هذا المصلح وفيما قدمنا من أدلة بسالته وحميته ، وليتدبروا في هذا الذي يكتب لصديقه بلنت ، وليسألوا أنفسهم بعد ذلك : ألا يزالون يرون في هذا الرجل جنديا طائشا مفرورا لا يدري من أمور بلاده شيئا ؟

ان هذا الذي يقوله عرابي لبلنت هو ما كان يرجوه المصريون من انجلترا قبل الاحتلال ، وهو الذي ظلوا يرجونه منها بعد الاحتلال حتى يوم الناس هذا ، وكم تكرر في مصر من اشباه ونظائر لهذا الموقف ؟ وكم جاء مثل هذا الكلام على ألسن غير لسان عرابي ، ولكننا نحجز القلم عن الاتجاه الى غير ما نحن فيه وقصارانا أن نقول ان السياسة الانجليزية في مصر هي هي وان تغير الزمن ، واختلفت على موضع الزعامة الرجال . . .

وقد أكد عرابي نياته في كتابه الثاني ومما جاء فيه قوله : « اننا نميل أشد الميل الى التفاهم على روابط الصداقة والمصالح المشتركة بيننا وبين الدول التي تربطنا بهم علاقات ، فانه بالصداقة وحدها يستطيع من لهم حقوق في بلادنا أن يجنوا ثمار المعاهدات والعقود التي نجد من واجبنا العمل على احترامها وحمايتها ، فاذا وقع خلاف فانه لا يؤثر فينا فحسب ، ولا تكون نحن أكثر

تأثرا بها من غيرنا وانما تتأثر به الدول الأخرى جميعا  
وبخاصة إنجلترا ، ولا يخفى على السيسى الواسع  
العقل ما يكون من فوائد لانجلترا من وراء مصادقتنا  
ومعاونتنا فى كفاحنا ..

وفيما يتعلق بالمراقبة فكن على يقين أنه ليس هناك ما  
يحول بينها وبين أداء واجبها حسب الحقوق التى قررتها  
الاتفاقات الدولية . ولم يكن فى نيتنا قط ولا فى نية أحد  
فى هذه البلاد أن يمس حقوق المراقبين أو يعتدى على  
أية معاهدة دولية ...

ولئن كان ممثلو الدول فى بلادنا مخلصين حقا لواجباتهم  
ولمصلح دولهم فلن يجدوا خيرا من معاونتنا فى جهودنا  
القومية الحققة ، وليثبتوا بأعمالهم ما يعدوننا به فى  
أقوالهم ..

لقد صممنا أن نبذل كل ما فى وسعنا لكى يكون لبلادنا  
موضع بين الأمم المتمدنة ، وذلك بنشر المعرفة فى البلاد ،  
والمحافظة على الوحدة والنظام ، والقضاء بالعدل بين  
الجميع ، ولن يردنا شيء عن عزمنا قيد أنملة ، ولن  
يخيفنا وعيد ولا تهديد أو يلويينا عن قصدنا ، ولن نخضع  
إلا لشعوز الصداقة التى نتقبلها ونقرها بكل ما فى  
وسعنا ..

أما عن هدوء البلاد ، فليس هناك أى قلق ، ونحن  
نحاول الآن أن نقضى على ما خلفته لنا الحكومات السالفة  
من مساوئ ...

فلندع الله أن يهدى المفكرين من رجال السياسة فى  
أوروبا الى الصواب ، وعسى أن يعنوا بمعرفة أحوال بلادنا  
وبذلك يؤدون صنيعا الى بلادهم كما يؤدون الى بلادنا  
بتقوية روابط المودة ، نسأل الله أن يهيىء لنا جميعا  
التمتع بنعمة السلام والمودة ...



ويذكر بلنت تعقيبا على كتاب عرابي أن الشيخ محمد عبده كتب اليه كذلك يؤكد له في ذلك الوقت قيام النظام والسلام في مصر . . .

لم تكن البلاد اذن في حالة تدعو الى القلق الا اذا كان الخلاف بين الخديو ووزرائه مشكلة تستدعي حتما تدخل الدول الاوربية لحلها ، فما يتسنى علاجها الا على هذه الصورة .

لم يكن هذا الخلاف الا الذريعة التي باتت انجلترا تتحينها لتخطو الخطوة التي كانت سياستها طوال القرن التاسع عشر متجهة في مصر اليها ، وكانت انجلترا قد صممت أن تقطع العقدة اذا لم يتيسر لها حلها ، فبقطع تلك العقدة تصيب في الواقع غرضين : السيطرة على مصر وهذا قصارى آمالها في الشرق ، والتخلص من مشاركة فرنسا اياها فيما هي فيه من شئون مصر وهذا ما كانت مصلحتها توجب الاسراع في تنفيذه .

والانجليز قوم نبغوا في أن يأخذوا كل شيء والا يعطوا شيئا ، وأن يستبطنوا دخيلة كل عدو او حليف دون أن يكشفوا له عن شيء مما تنطوي عليه نفوسهم ، ولهم في ذلك أساليب يعد نجاحهم فيها من أكبر أسباب تفوقهم . .

لذلك تقدم هؤلاء ليلعبوا احدى لعباتهم السياسية وقد سهلت عليهم سياسة فرسنيه الامر ، فقد رأى هذا أن تبتعد انجلترا وفرنسا عن التدخل المسلح في شئون مصر ، وفاته أنه ان استطاع أن يوجه سياسة بلاده نحو هذا الهدف فما له حيلة في انجلترا ان استعصت عليه أو غدرت به . . .

وتقدم فرسنيه يعرض على انجلترا مقترحات لحل المشكلة ، فطلب على لسان سفيره في انجلترا أن ترسل الدولتان سفنا من أسطوليهما الى مياه الاسكندرية وأن

تطلب الحكومتان الى تركيا ألا تتدخل في شؤون مصر في ذلك الوقت ، ولكن فرنسا لا تعارض اذا حضرت بعثة عثمانية الى مصر بدعوة من الدولتين على أن يكون عملها محدودا وأن تكون تحت مراقبتهما .

ورأى فرسنيه أن تحاط روسيا والنمسا والمانيا وايطاليا بما تتخذه انجلترا وفرنسا حيال المسألة المصرية ، على أن تكون تعليمات تلك الدول الى سفرائها في الاستانة عين تعليمات الدولتين . . .

أما عن الخديو فقد عدلت فرنسا عن رأيها في خلعها ، ذلك الرأي الذي كانت ترى قبل ذلك أنه لو اتبع كان يفضي على كثير من الصعاب . . .

وكان فرسنيه يريد من المظاهرة البحرية أن يلقي الرعب في قلوب الوزراء ليقلعوا عن مقاومة الخديو فينتهي ما كان بينه وبينهم ، ولقد وافق جرانفل على مقترحات فرسنيه في جملتها ورأى أن يبلغ الباب العالي واحتياط للمستقبل بقوله أنه قد تعرض عليه في المستقبل مقترحات أخرى . . .

ولكن فرسنيه لم ير هذا الرأي ، لأنه لم يكن يرغب في التقرب الى تركيا ، ولذلك رفضه يادىء الامر على أنه عاد فقبله بعد الحاج جرانفل وكتب الى سفيره بالاستانة أن يبلغ السلطان أنه « ليس من المستبعد أن تقدم اقتراحات أخرى الى تركيا فيما بعد »

وأراد جرانفل أن يبعد عن نفسه وعن حكومته تهمة الرغبة في التدخل في شؤون مصر ، فاقترح أن تدعى الدول الاوربية الى ارسال سفن الى الاسكندرية تقف الى جانب السفن الانجليزية والفرنسية، وما كان جرانفل جادا فيما يقول فانه كان على يقين أن اقتراحه هذا سيقابل من فرنسا بالرفض ، ولو كانت لديه شبهة أن

ستقبله فرنسا ما تقدم به ، بل لو أن هذا الاقتراح كان من جانب فرنسا لعارضت فيه إنجلترا أشد المعارضة . . . ولو أن إنجلترا كانت جادة في مقترحها هذا لبذلت قصارى جهدها لتحمل فرنسا على قبوله ولكنها اكتفت بأن تبلغ فرسنيه على لسان وزيرها أنها تأسف الا تقرها فرنسا على وجهة نظرها وأنها تعد من الخطأ عدم دعوة الدول الى الاشتراك في تلك المظاهرة ، ولكن بما أن فرنسا قد ذهبت في الموافقة على السياسة البريطانية الى مثل ما ذهبت اليه فان إنجلترا لايسعها الا أن توافق فرنسا على ما ترى . . .

وآمن فرسنيه بنزاحة السياسة الانجليزية ، ولو كان غير فرسنيه في موضع الأمن بها كما آمن هذا ، فلم يكن يدور بخلد أحد يومئذ أن إنجلترا كانت تترقب الفرصة لتنقض على الفريسة وحدها دون فرنسا ولا ظهر من عملها ما يبعث على الريبة . . .

ولكن الانجليز خير من انتصح بنصائح مكيافلى في هذا العالم وخير من حذقها ، ولو قد تاخر الزمن بهذا الرجل لاخذ عنهم مبادئه ولوجد في أساليبهم وخططهم ابلغ أمثلة كتابه . . .

الحق أن هذا المكر كان يدق على فرسنيه وغير فرسنيه من أولى الدهاء والخبرة من الرجال ، وما كان ليفطن الى هذا الا من يسىء الظن بإنجلترا فيكون مبعث فطنته سوء الظن لا حسن الفهم ، ونحن انما نفطن الى مرامي هذه السياسة بعد أن تكشف عنها حجب الدهاء وتعاقبت عليها السنون ، ولقد فطن اليها فرسنيه ورجال حكومته وشعبه الاريب ، يوم وقعت الواقعة وانفردت إنجلترا بضرب الاسكندرية غير حاسبة لاي شيء من حولها حسابا وكانت إنجلترا تبغى من سياستها هذه أن تصرف

نظر الدول عن مصر ، فان دعوة تلك الدول الى مشاركتها في المظاهرة البحرية يظهرها بمظهر من لا غرض له الا الصالح العام في حين أن عملها هي وفرنسا يفضب الدول ويجعلها تميل الى التدخل لتنال حظا من الفنيمة في مصر أو في غير مصر يوم يكون الحساب وتوزع الاسلاب .

وفضلا عن ذلك فقد كانت انجلترا تحذر أشد الحذر أن تفضب السلطان فينحاز الى عرابي وحزبه ضد توفيق ، فيظهر عرابي بمظهر المحافظ على حقوق السلطان صاحب الحق الشرعي في مصر ، ضد الخديو ومشايخه من الطامعين ، وعلى ذلك فكل تهمة بالعصيان توجه الى عرابي امام الشعب المصري انما تذهب أدراج الرياح ...

ولقد فطن مالت الى خطورة هذا الامر وكتب الى حكومته يندرها أن اغفال تركيا من شأنه أن يضم النواب الى العسكريين فيقفوا جميعا صفا واحدا ضد أوروبا أو على الأقل أنه يقوى جانب عرابي وأشياعه .

وكانت انجلترا في الواقع تتبع سياسة حاذقة اكبر الحذق ، فهي تشايع فرنسا في منعها تدخل تركيا ، ولكنها في الوقت نفسه تحرص على ألا تفضب تركيا فقد تضطر اليها يوما ما ، وفي اغضابها ما قد يثيرها فتدخل . وتعمل انجلترا في مصر على يد مالت عملا متصلا لتخويف الخديو ولاذاعة المفتريات عن سوء الحال في مصر ، وذلك لتمهد السبيل الى غاية يفضي اليها منطق الحوادث كما تزعمه وتلك الغاية هي التدخل المسلح على أي صورة ما محافظة على أموال الاجانب وأرواحهم في مصر ، وما عليها الا أن تتحين الفرصة لتنفرد بالعمل ، وهي لن تحجم أن تضع فرنسا امام الامر الواقع كما فعلت بازاء محمد على حين صمم بالمرستون على القضاء عليه ... ولكنها الآن تتظاهر بالنزاهة وتحرص على الظهور بمظهر دولي في سياستها

نحو مصر ، فتقترح اشتراك الدول في المظاهرة البحرية تارة وتقترح دعوة السلطان الى حل الازمة تارة أخرى . . . كل ذلك في مهارة ودقة ولكنها مع الاسف مهارة من تجرد من الشرف فسهلت عليه غايته ، لا لشيء الا لانه يسلك اليها كل سبيل ولا عبرة عنده اى سبيل يسلك . . .

ولما وجدت انجلترا ان فرنسا تصر على استبعاد تركيا والدول جميعا ، كتبت الى الدول قرارا ينفي أية نية من جانبها في احتلال مصر ، وأكدت أنها لم ترد بالمظاهرة البحرية الا اقرار السلام داخل مصر ، وانها سوف تترك مصر وشأنها اذا قضى على ما فيها من القلاقل ، واذا لم تنجح تلك الوسائل السلمية فسوف تتفق انجلترا والدول على ما تراه هي وفرنسا خير سياسة تتبع . . .

وتحدث اللورد دوفرين سفير انجلترا بالاستانة الى وزير الخارجية العثماني في لهجة شديدة قائلا : « انه اذا لم تعمل تركيا ما من شأنه ان يسهل على انجلترا خطتها فسوف تزيد انجلترا عدد القطع في الاسكندرية وتطيل امد بقائها جميعا هناك » .

ولكن السلطان آلمه وأغضبه ان توجد السفن الانجليزية والفرنسية امام الاسكندرية ، فلم يكف عن احتجاجه واعلان سيخطه ، مما زاد الموقف حرجا وتعقدا . . .

وبينما كانت فرنسا وانجلترا تتبادلان الراى على النحو الذى نذكر ، كان الحنق في مصر على الخديو يزداد يوما بعد يوم ، وما زال الناس في قلق وخوف من موقفه ومشايعته الانجليز على هذه الصورة حتى وصلت السفن الى الاسكندرية . . .

ولقد أخذ بعض الناس على الوطنيين أنهم لم يخلعوا الخديو في ذلك الوقت ويتصلوا بتركيا لتعين على مصر غيره ، والواقع أنها مسألة دقيقة ، فمن الناحية الوطنية

كان يرى الوطنيون ضرورة خلعه ، وحببتهم أن السكوت  
معناه التفريط في جانب الوطن ، ولكنهم من ناحية أخرى  
كانوا يرون أن عملهم هذا ينقلب وبالا عليهم في ظروف  
كتلك الظروف التي اذاعت فيها أوروبا عنهم المزعجات  
من الشائعات ...

وفي هذه الآونة وقع في صفوف النواب ما نخجل أشد  
الخجل من ذكره ، فقد انحاز كبيرهم سلطان الى الانجليز  
بعد أن تودد الى الخديو كما أسلفنا ، وشايعه عدد من  
النواب ، ولم يكن للوطنيين من عاصم في هذه المحنة الا  
الاتحاد والتبأت ، وكانما تأبى الايام الا أن تجعل من أبناء  
مصر بعضهم لبعض عدو ، وكان ذلك لكثرة ما يتكرر  
منهم ، من باعهم التي فطروا عليها ، ولطالما نكب هذا  
الشرق المسكين بتخاذله وانقسام أبنائه بعضهم على بعض  
مع أنهم يرون أبدا أن الظالمين الطامعين فيهم من أهل  
القرب في الكيد لهم بعضهم أولياء بعض ...

وكان انحياز سلطان والمستضعفين من النواب الى  
انجلترا أولى ثمرات المظاهرة البحرية ، فان سلطانا حينما  
علم بها من الخديو فكر وتدبر فرأى ان المستقبل للخديو  
واللانجليز ، فلما حضرت السفن اطمأن الى الانجليز وأثر  
أن يبادر بالانحياز اليهم لتكون له الحظوة والمكانة عند  
أولى الجاه والباس يوم يتخلصون من عرابي على أية  
صورة ...

وامثال سلطان هذا انما يعملون لاشخاصهم فحسب ،  
وعلى ذلك فهم عبيد القوة وان تعاظموا ، وهم أضعف  
الناس وان تطاواوا ، وهم احرس الناس على عرض الدنيا  
وان تظاهروا بالنبل والعفة ، وهم انما يدلون بجاه من  
يركعون اليهم من الاقوياء ادلال الخادم بسييف سيده ،  
وسمري يوم يكافأ سلطان بالذهب لا يحصى له عدا وينفي



عرايى من الارض وتصادر املاكه التى رزقه الله ، ولا يبقى له الانجليز فى مصر صاحباً ولا ولداً . . .

ونشط مالت وأعوانه من جديد يذيعون أسوأ الانباء عن مصر وبخاصة عن عرايى وحزبه ، حتى لقد وقف جرانفل فى مجلس اللوردات فى اليوم الخامس عشر من شهر مايو سنة ١٨٨٢ يتوعد مصر ويتهدهدها، ويصرح فى غير حياء منه مما يكذب به على العالم أن النواب والامة جميعاً فى جانب الخديو !

وكانت اكبر دعوى يدعيها مالت أن فى ازدياد نفوذ الحزب العسكرى اكبر خطر على حياة الاوربيين وأن نفوذ هذا الحزب قد بلغ أقصى ما يصل اليه من زيادة ، والواقع أن مالت لم يكن يهتم ما قد يتعرض له الاوربيون من خطر حسب مزاعمه ، وانما كان يهتم الوصول الى غرضه بأى ثمن ولو ذهب فى سبيل ذلك بعض الارواح ، تجد الدليل على ذلك فى رده على جرانفل حين سأله قبل ارسال الاسطول هل يكون فى ذلك العمل خطر على الانجليز والفرنسيين فى مصر فقد أجابه قائلاً : (١) « يشرفنى أن ابلىغ فخامتكم انى انا وزميلي الفرنسى نرى أن ما فى وصول الاسطول المشترك الى الاسكندرية من الفائدة السياسية كبير جداً ، يفوق فى أهميته الخطر الذى يمكن أن يصيب بسببه من فى القاهرة من الاوربيين » .

ويعلق روثستين على هذا السرد الذى أخفته الحكومة الانجليزية بقوله : « أن الذى نريد أن نقوله هو أن هذه الرسالة اكبر دليل على سياسة السير ادوارد مالت وبره بالانسانية . ولا ريب أنه لم يكن يقصد اظهارها ، وان الاذن بنشرها فيما بعد لما يؤخذ مرة أخرى على

---

(١) المسألة المصرية لروثستين .

مقدرة اللورد جرانفل السياسية ، وان فيها دليلا واضحا على ان كل ما كانوا يخافونه من الاخطار التي يتعرض لها الاوربيون بسبب السيادة العسكرية كان كله زورا وبهتانا ولا غاية منه الا تهيئة السبيل للتدخل المسلح . ومهما يكن من شيء فان الامر لا يخرج عن احدى اثنتين : فاما ان تكون هذه المخاوف كلها لا اصل لها ، وعندئذ تبين لنا مقدرة السير ادوارد مالت السياسية ، واما ان تكون قائمة على اساس ثابت وعندئذ تبين لنا مقدار براه بالانسانية . وسواء اكانت هذه ام تلك فان ما قاله السير ادوارد مالت كاف للحكم عليه بأنه من احط طبقات السياسة الدسائس .

وكان بلنت لا يزال يسعى سعيه في انجلترا ، فلما أعلن جرانفل تصريحه أبرق بلنت الى عرابي في اليوم السادس عشر من مايو يقول : « ذكر لورد جرانفل في البرلمان ان سلطان باشا والنواب قد انحازوا الى الخديو ضدك فان كان هذا غير صحيح فاطلب الى سلطان باشا ان يرسل الى تكديبا ، اذا تضامنتم فلا خوف عليكم . . . الا يمكنكم اقامة وزارة يرأسها سلطان ؟ على أية حال عليكم بالتثبت » وأبرق الى سلطان في الوقت نفسه يقول : « اعتقد ان كل من يحبون مصر يجب ان يتحدوا ، لا تختلف مع عرابي ، ان الخطر جسيم » .

وكذلك أبرق بلنت الى كل من بطرس باشا وابويوسف ومحمود باشا الفلكي والشيخ محمد عبده والشيخ الهجرسي وعبد الله نديم يقول : « هل الحزب الوطني في جانب عرابي الآن ؟ الحكومة الانجليزية تدعى غير ذلك . اذا اختلفتم ضمتكم أوروبا » .

ورد سلطان على بلنت فقال : « زال الخلاف الذي كان بين الخديو والوزارة ولم يبق له اثر . كلنا متفقون

على المحافظة على الامن والسلام وعلى مناصرة الوزارة  
الحاضرة » .

وتلقى بلنت كذلك برقية من الشيخ الامبابة شيخ  
الجامع الازهر نصها : « من الشيخ الامبابة شيخ  
الاسلام ، سوى الخلاف بين الوزارة والخديو ، والحزب  
الوطني راض عن عرابي ، والجيش والامة متحدان » .

وابرق اليه الشيخ محمد عبده بما لا يخرج عما جاء  
في برقية الشيخ الامبابة ، كما يشير الى ذلك بلنت في  
كتابه ...

ولكن امل بلنت ما لبث ان خاب ، فان مجيء السفن  
الى الاسكندرية قد القى في روع الخديو انه اليوم قادر  
على ان ينزل بالوطنيين والعسكريين ما يشاء من انتقام ،  
وطالما تمنى توفيق ان تواتيه الفرصة فيشفى غليل نفسه  
من هؤلاء الذين كانت يده مكفوفة عنهم وانه ليكاد يتميز  
من الحنق عليهم ...

واخذ سلطان ومعه فريق من المستضعفين كما ذكرنا  
يمالئون الخديو وينكرون لأمسهم على نحو كم تمنينا  
لو خلا منه تاريخ القومية المصرية ...

وادی انقلاب سلطان ومن أخذ مأخذه من أشباه الرجال  
الى ازدياد حرج الوزارة ، وسهل على أعداء البلاد ما كانوا  
مقبلين عليه يومئذ من عدوان واثم ...

وود مستر بلنت لو اتحد المصريون في تلك الآونة التي  
لم يكن لهم فيها من امل الا اجتماع كلمتهم ، وانه ليعلم  
ما كان يدبر لهم من كيد ، والواقع انه ان كان الاتحاد  
قوة في كل وقت فقد كان ضرورة كذلك في هذا الوقت .  
ومن هذا يتبين لنا مبلغ ما جره على البلاد سلطان ومن  
معه من أمثال هؤلاء الذين لم يخل منهم جيل في تاريخ  
هذا البلد المنكود ، أولئك الذين يكونون عدة الفاصب

أبدا ومطيته الى مطامعه ، دون أن يخالج ضمائرهم أى ندم ، أو أن يميل بهم عن نهجهم شعورهم أنهم يقتربون أشنع الآثام ويأتون أقبح ضروب الاجرام .

وضاقت بالوزارة السبل ، بل لقد أخذت كل سبيل عليها ، وحزبها الامر فما تفنى فيه حيلة ، فها هو ذا الخديو أداة في يد الانجليز ، وها هم اولاء بعض النواب يظهرون بمظهر الانقسام والتخاذل ...

واضطرب الوطنيون ممن يشايعون الوزارة ، واخذ يتسرب الوهن الى النفوس وتناصرت وساوس اليأس على حجج العقول ، فزين لبعض الوطنيين أن يتخلصوا من الخديو فيأخذوه غيلة سرا أو علانية فما لهم مما هم فيه مخرج غير هذا .

لم يعمل سلطان بما أشار به بلنت في برقيته ، فانه لم يبق يومئذ على حب بلاده ، وانما غدا من الامعات الطامعة ، ولقد رأى الدنيا مقبلة على الخديو مدبرة عن عرابي ، فآثر أن يكون له على الخديو يد فينال عنده الحظوة في غد كما أسلفنا ، ولكنه ظل على الرغم من ذلك يتذبذب بين الجانبين شأنه في ذلك شأن كل امعة ، فبينما نراه يعارض الوزارة في موقفها من الخديو اذا به يرسل تلك البرقية التي أشرنا اليها في اليوم السادس عشر من شهر مايو الى بلنت ردا على برقيته .

اما الوزارة فقد رضيت أن تخطو في ذلك الموقف العصيب خطوة نحمدها لها كل الحمد ، بل انا لا نجد من عبارات الشناء ما يفى بما فعلت في ظرف كهذا الظرف لم تهتم الوزارة بما عسى أن يفسر به عملها من ذلة وخوف ، فتوجه الوزراء الى الخديو ، وأعلنوا لديه ولاءهم له وعبروا عن رغبتهم في الوئام ، فمصلحة الوطن مقدمة على كل اعتبار، واحباط كيد الكائدين هو الواجب

الوطنى الذى لا يقدم عليه واجب غيره ، ويقال ان سلطان  
توسط فى ذلك فأخذ دور الشفيع ليتصل بكل من  
الجانبين بسبب ، ولعل هذا يفسر رده على برقية بلنت  
آثرت الوزارة مصلحة البلاد فقبلت أن توصف بالمذلة  
من أجل مصر ، وكان موقفها موقف القائد الشجاع الذى  
يفعل ما يعتقد أنه الصواب دون أن يبالي بما عسى أن  
يقول الناس ، فينسحب ليجمع قواته ويعيد النظر فى  
خطئه غير مكترث بما قد يفسر به الانسحاب فى ذاته .

يقول روئستين فى كتابه « المسألة المصرية » (١) وكان  
السيخط على الخديو آخذا فى الازدياد ولولا الخوف من  
انتقام الدولتين لخلع توفيق ، ولكن كثيرا من النواب قد  
عارض فى ذلك الامر وانقسم المجلس على نفسه ، فانحاز  
رئيسه سلطان باشا الى جانب العدو دفعة واحدة وأخذ  
يعمل على اسقاط الوزارة ، ورأى غيره من الاعضاء أن  
يسعوا مرة أخرى للتوفيق بين الطرفين وتخفيف الازمة  
بشيء من التساهل . وبينما هم كذلك اذا بالاسطول  
الفرنسى قد وصل فى ١٥ مايو واذا باللورد جرانفل قد  
بعث فى اليوم نفسه الى السير ادوارد مالت برقية  
مضمونها أنه فضلا عن المظاهرة البحرية فانا نحفظ  
لأنفسنا الحرية فى أن نستخدم الوسائل ماثرا ضروريا  
لاقرار النظام والمحافظة على سلطة الخديو . وقد قرر  
عرابى ورفاقه أن يعملوا بمشورة القائلين بالسعى مرة  
أخرى للتوفيق بين الطرفين فذهبوا بأجمعهم الى الخديو  
وعرضوا عليه خضوعهم التام ، وذهبوا كذلك الى مالت  
وأكدوا له أنهم سيبدلون غاية جهدهم فى حفظ السكينة  
العامة . يا أسفا عليهم ! لقد ظهروا فى مظهر مؤلم للنفس

---

(١) اسم الكتاب الحقيقى . The Ruin of Egypt. : تغريب

مصر .

وقد يكون غير مشرف لهم ثم هم لم يجنوا من ورائه  
شيئا على الاطلاق ...

على أن موقف الوزارة لم يخل على أية حال من فائدة ،  
فقد أراد الوزراء بما فعلوا أن يبطلوا حجة القائلين  
بوجوب التدخل لتفاهم الخلاف بين الخديو ووزرائه ،  
وهم أن لم ينجحوا وأصر الخديو على انحيازه الى أعداء  
البلاد ، أظهره بمظهر المتجنى الذى لا يريد أن يفسر لهم  
حتى فى مثل هذا الموقف ما زعم أنه كان من دواعى  
الخلاف ، وهذا أسلوب سياسى جدير بكل اعجاب ...

ولا يضح أن يقول قائل انه كان أولى بالوزارة إلا  
تغضب الخديو من أول الامر . لا يصح أن يقال ذلك بعد  
الذى بيناه من مكر السياسة الانجليزية ، فالنية مبيتة  
من قبل على التهام مصر ، ونعود فنكرر ما قلناه انه لو  
لم يوجد عرابى لعمل الانجليز على خلقه ...

وكان الذين ينكرون على الوزارة اغضاها الخديو من  
أول الامر يريدون أن يقولوا انه كان على الوزارة أن ترضى  
بالحكم المطلق وواد الدستور ، وتسلب الشراكية ،  
واذلال مصر بالقضاء على حركتها القومية الناشئة حتى  
لا يغضب الخديو ، أعنى أنه اذا خير الوطنيين بين التمسك  
بالدستور واغضاب الخديو ، وبين واد الدستور وارضاء  
الخديو ، كان عليهم أن يقبلوا الوضع الثانى والا كانوا  
طائشين مفسدين فى الارض . وهذا كلام لا يستحق أن  
يوضع موضع المناقشة ...

لقد سلكت الوزارة المسلك الوطنى الذى يتفق وهذه  
الحركة الوطنية الدستورية التى بدأت فى مصر منذ عهد  
اسماعيل فكانت حركة طبيعية اقتضاها تطور الاحوال  
وعملت على وجودها عوامل كالتى عملت فى كافة الامم  
التى سبقت مصر الى الدستور والحرية ، ولقد بينا



اتجاه الوزارة وقدمنا الادلة على صدق وطنيتها وعلى ما كانت تتوخاه من ضروب الإصلاح . . .

وما كان التجاؤها الى الخديو تنازلا منها عن مبادئها فهذا ما لا يتصوره عقل والا كانت الحركة من بدايتها الى نهايتها لعب لاعب ، وانما أرادت الوزارة الوثام والصفاء وازالة ما تركه حادث المؤامرة الشركسية في نفس الخديو من غضب ، فهو نوع من الاعتذار والتودد تقتضيه مصلحة الوطن اتقاء لخطر محقق بالبلاد . . . أما الدستور وسلطة الامة وما يتصل بها من مبادئ الحرية والقومية فدون التنازل عنها ، بل دون التساهل فيها بذل الرقاب وكان توفيق خليقا الا يميل الى المعتدين من غير دينه ، ولقد كان لهذا الاعتبار الديني شأنه العظيم في النفوس يومئذ ، وكان كذلك خليقا ان يدرك ان عدوانهم على مصر هو في ذاته عدوان على السلطان صاحب الحق الشرعى وصاحب الولاية عليه . . .

ولكن توفيقا لم يعد يبالي بالسلطان فلقد اطمأن الى قوة الدولتين وبخاصة انجلترا ، وكان الى جانبه مالت يوحى اليه ما يشاء ويزين له ما يريد ويقوى عزمه كلما آنس منه تخاذلا عما كان يدفعه اليه ، ولا ريب ان موقف الخديو كان يزداد بذلك حرجا امام البلاد وامام السلطان مهما سندته الدولتان . . .

وأوحى مالت الى الخديو الا يثق بما يقول وزراؤه ، وما كان توفيق في حاجة الى هذا الذى يوحى به مالت ، فهو يتطلع الى الساعة التى يلطم الوزارة فيها لطمة تشفى ما بنفسه من غل . . .

ولم يطل نرقبه تلك الساعة ، ففي اليوم التاسع عشر من شهر مايو أوعزت الحكومتان الى ممثليهما أن يشيرا على الخديو بأن يغتنم فرصة وصول السفن الى الاسكندرية

فيطيح بالوزارة ، ويعهد بتأليف وزارة جديدة الى شريف  
باشا أو الى سواه ممن تتوفر فيهم مثل ثقتها في شريف  
ورد المثلان بأن المسألة ليست من السهولة بحيث  
يصنع الخديو ذلك ، فلن تقوم في البلاد وزارة غير الوزارة  
القائمة ما دام للحزب العسكري ما له فيها من نفوذ  
وسلطة ...

واقترح مالت أن يشير على عرابي وثلاثة من أشهر  
رجاله بمفادرة مصر ، وبدأ فعلا يسعى الى ذلك فاختار  
أحد موظفي القنصلية الفرنسية ليفاوض عرابيا لأن هذا  
كان يعرف العربية ، ولكنه رفض أن يلعب هذا الدور،  
ففوتح سلطان فقبل في غير خجل ، وذهب يشير بذلك  
على عرابي فعظمت دهشة الوزير ! ورفض أن يسمع  
بقية الحديث ، وأعلن اصراره على عدم ترك مصر مهما  
يكن من الأمر ، وأكد أنه لن يترك منصبه فضلا عن  
موطنه في تلك الظروف .

ووصل هذا الحديث الى الضباط فقابلوه بالاستياء  
حتى لقد صرح أحدهم على مسمع من أحد رجال القنصلية  
الفرنسية أن الجيش يمزق عرابيا اذا هو اعتزلهم يومئذ  
واخذت الوزارة تتأهب لملاقاة ما كان ينذر به الموقف  
من جسيمات الحوادث ، وصمم الوزراء ألا يقرؤا أى  
تدخل لانجلترا وفرنسا وأن تكون اجابتهم على أى انذار  
رسمى أنهم لايعترفون بسيادة غير سيادة السلطان .

وتزايد انحياز الراى العام الى عرابي بقدر ما تزايد  
سخطه على الخديو والاجانب ، ومن انحاز اليهما من  
الامعات والمستضعفين ، وعاد بعض الدين أشفقوا من  
الحزب الوطنى ينضمون اليه في تلك الساعة الرهيبة  
وشاعت في البلاد دعوى المحافظة على حقوق السلطان  
أمير المؤمنين وحامى حمى المسلمين ...

وهنا نسأل الذين يستريبون في شجاعة عرابي وزعامته : أيرون دليل جبنه في اصراره هذا على البقاء في مكانه مخلصا لواجبه ؟ لقد كان من اليسير عليه أن يسافر الى القسطنطينية أو الى أوروبا متحيزا الى السلطان أو الى انجلترا وكانت انجلترا ترحب بذلك كل الترحيب وتطرب له أشد الطرب ، ولكن ما هكذا يفعل الرجال ...

لقد صمم عرابي على البقاء حيث هو كما صمم سعد زغلول على البقاء في مكانه مخلصا لواجبه حين طلب اليه في موقف من مواقف جهاده أن يذهب الى عزبته ليقوم بها تحت مراقبة مدير الاقليم ، وأثر عرابي أن يواجه المحنة والبلاء كما أثر سعد أن ينفي من مصر ، ولكن الأمة التي وضعت على رأس سعد من أجل ذلك أكاليل الفار ، لا يزال فريق من أبنائها ينسبون الى عرابي البطل أسباب الهزيمة والعار !..

وصمم عرابي على امتشاق الحسام ليجاهد في سبيل مصر أشق الجهاد وأعظمه وليكن بعد ذلك ما يكون فاما نصر ، واما فناء ، أما مغادرة مصر في ساعة العسرة ، فذلك هو الهرب الذي لا يفعله الا الجبناء ...

ولما فشل مالت في طريقته الشخصية اتفق وزميله الفرنسي فأرسلا الى حكومتيهما يطلبان أن تطلق يديهما كي يتقدما الى الحكومة المصرية رسميا بمذكرة تنص على ابعاد عرابي من مصر هو وكبار العسكريين على أن تؤيد المذكرة بعمل ايجابي في حالة ما اذا رفضت ، ومما ذكره مالت قوله : « ان الموقف الحالي قد سببه الوزراء ، والناس يعتقدون أن انجلترا وفرنسا لن ترسلا جنودا ، وان معارضة فرنسا تجعل تدخل الترك مستحيلا » (١)

وأرسل عرابي كتابا الى بلنت في اليوم الحادى والعشرين من شهر مايو ، ومما جاء فيه قوله : « ان جميع الاهالى ليطوف بهم الحزن لمجىء السفن الانجليزية والفرنسية وهم يرون فى هذا العمل ما يبيت من سوء للبلاد كما انهم يرون فيه عدوانا لامبرر له ولا ضرورة تدعو اليه . على أن المصريين قد صمموا على ألا يسلموا للدولة التى تريد أن تتدخل فى شؤونهم وفى ادارة البلاد الداخلية ، وهم كذلك قد جمعوا عزمهم على الاحتفاظ بالامتيازات التى ثبتتها المعاهدات ، ولن يسمحوا لاحد بانتقاص هذه الامتيازات أو مسها مادام فيهم رفق ، وهم فى الوقت نفسه حريصون على المحافظة على مصالح الاوربيين وحياتهم وممتلكاتهم ماداموا لا يتعدون الحدود التى رسمتها لهم القوانين ، ونحن جميعا نبذل ما فى وسعنا فى أداء واجبنا ، وعلى الله اتكالنا فى الدفاع عن حقوقنا وبمعونته سننال غايتنا ، وتنحصر غايتنا فى اسعاد الوطن ونشر الامن والسلام بين سكانه ، ولا زلنا نأمل فى عدالة اوربا الا تتعدى علينا ، بل انا على خلاف ذلك نرجو أن يحسنوا سلوكهم معنا لان فى هذا مصلحتهم وهو يؤدى الى تحقيق رغباتهم ، وجدير بانجلترا ألا تثق بوكلائها هنا فانهم قوم لهم مآرب خفية شخصية يتفنون تحقيقها ، ونرى أن نجاحهم فى تحقيق مآربهم يعود بالضرر على بلادهم وعلى حكومتهم ، وفى هذا القدر ما يكفى الآن وسيأتيك القدر بما يجد من الانباء » (١)

ولكن ماذا كان عسيا أن يفعل بلنت وقد نشط مالت فى اذاعة أسوأ الاخبار عن مصر واحباط كل سعى يؤدى الى نجاتها ؟

يقول بلنت فى كتابه مشيرا الى برقيات ما جاءه عنها

---

(١) S. H. Blunt. P,

من ردود : « ولكن جاء الصباح فذهبت آمالي أدراج الرياح واثقل قلب فوزى هزيمة ، فقد كنت قضيت الليل بمنزلى بلندن فى شارع جيمس رقم ١٠ وأرسلت فى طلب الصحف فوجدت فيها جميعا برقية لشركة روتر وفيها نص البرقية التى أرسلتها الى أعضاء المجلس فى مصر ، وقلت لهم فيها أن أوربا ستضم مصر ، وفيها أن شيخ الاسلام تبرأ من الرد الذى جاءنى باسمه ، ووجدت فى صحيفة ذى ستاندارد برقية من مراسلها بالقاهرة ، مؤداها أن سلطان باشا صرح له أن يكذب البرقية التى أرسلتها والتى نشرت بالتيمس ، وأن برقية سلطان هذه إنما كتبت تحت تأثير الارهاب العسكرى » ...

وعلى أى حال فما كان يغنى عن بلنت صدقه وحسن مسعاه ، وقد رسمت السياسة الانجليزية الخطة التى ننتهجها ولقد كانت الحكومة الانجليزية على علم بكل شئ ولذلك فما كانت بها حاجة الى دفاع بلنت وأنبائه

وهل كانت انجلترا تتحرى فى المسألة وجه الصواب حتى تسير على هدى ما تعلم؟ حسب الانجليز أن يحققوا أطماعهم التى طال بهم العمل على تحقيقها فى مصر ، ذلك هو الواقع الذى لا يغيره جدال مهما طال ، وليجر بعد ذلك بلنت فى مضماره ماشاء ، وليطلق هذا الشاعر الذى يعطف على حرية المصريين وآمالهم العنان لخياله حسبما يريد ، فلن يؤثر ذلك فى مجرى الحوادث ، ولن يغير شيئا مما عقد النية جلادستون وجرانفل عليه ..

والسياسة على أى حال شئ ، والشعر والاحلام شئ آخر ، وكثيرا ما سخر السياسة من أمانى دعاة الانسانية وضحكوا ملء أفواههم من هؤلاء الذين يحلمون فيتخيلون أحلامهم حقائق راهنة كما يتخيل الاطفال !  
تلقت الحكومة المصرية ، وتلقى الخديو فى اليوم الخامس

والعشرين من شهر مايو المذكورة المشتركة الثانية وفيها  
تطلب الدولتان : « أن يخرج عرابى باشا من مصر مع  
احتفاظه بلقبه وراتبه ، وان يبتعد كل من عبد المال باشا  
وعلى فهمى باشا الى داخل القطر مع احتفاظهما كذلك  
بلقبهما وراتبيهما وأن تستقيل الوزارة الحالية من  
الحكم » ...

ومن أعجب الامور أن ممثلى الدولتين قد عزيا هذا  
الطلب الى ما نصح به سلطان باشا لرئيس الوزارة ،  
فقد جاء نصه كما يأتى : « ان ممثلى فرنسا وبريطانيا  
العظمى الموقعين على هذا يحيطان علم عطوفتكم بأنه من  
حيث أن عاطفة الوطنية حملت سعادة سلطان باشا رئيس  
مجلس النواب وكذا رغبته فى تأييد سلم مصر ورفاهيتها  
على عرض الشروط الآتية على عطوفتكم محمود سامى باشا  
رئيس مجلس النظار اذ رأى أنها الواسطة الوحيدة لوضع  
حد لحالة الاضطراب فى مصر » ... ثم أوردنا بعد ذلك  
الشروط أو الانذار ... ولقد أنكر الوزراء وساطة  
سلطان باشا كما أن سلطان تنصل منها ...

قال الشيخ محمد عبده (١) « حصلت مذاكرة فى المذكرة  
التي قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار  
فوضع سؤال : هل يمكن لنا أن نجمع المجلس ؟ فأجاب  
سلطان : أظن ان ذلك لا يكون الا بأمر الخديو فنسأله فى  
ذلك ولاريب أنه بوافق عليه ، فقال له أحد النظار :  
الخديو الذى كنت تطلب خلعه ان لم يكن قتله قبل أيام ؟  
قبل هذا جاء كلام فى الخديو فى جلسة فطلب سلطان  
باشا قتله وأبى عرابى وكان سلطان يقول : اقتلوا الشعبان  
سلالة الجناة الناهبين الدين باعونا للأجانب ... هذا  
هو سلطان الذى كان رئيس الحزب الوطنى وهو لا يريد

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده صفحة ٢٤٢



الآن الا مجاملة الخديو ، ذلك الخديو الذى لا يبنى الا  
بيع البلاد للأجانب (١)

اجتماع مجلس النواب حق للشعب ، ونحن نوابه ولا  
بد لنا ان نطلب النواب الى القاهرة حتى لو اراد عرابي  
ان يوافق ماطلب من ابعاده ارضاء للسياسة الاجنبية  
فليفعل ، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما  
ادى اليه الخلاف ...

سلطان رجع عن رأيه الى رأى الحاضرين مع الحيرة  
فيما وعد به الخديو والقنصلين وفيما اضطر اليه من  
موافقة الثائرين « ...

قررت الوزارة في غير تردد رفض هذه المذكرة  
المشتركة الثانية وأبلغ هذا الرفض الى ممثلى الدولتين  
ومما جاء فيه قول الوزارة : « ان سعادة سلطان باشا  
صرح أمام الوزراء عند انعقاد مجلسهم بأن أعاد على  
رئيس مجلس الوزراء ذكر محادثة جرت بينه وبين قنصل  
جنرال فرنسا ، وأنه لم يبدأ بذكر مقترحات او اشارات  
لايعنيه ان يقدمها ولا يبدئها باسمه الشخصى ، ولا بصفة  
كونه رئيس مجلس النواب فان هذا المجلس غير ملتزم  
الآن ، أما الطلبات المدونة فى اللائحة التى قدمها قنصلا  
انجلترا وفرنسا فتتعلق بمسائل داخلية تختص بالامور  
الادارية التى اعترفت الدول الكبرى دائما بأن حرية  
العمل فيها من خصائص الحكومة المصرية ، ولا يمكن  
لحكومة الجناب الخديوى ان تولج فى باب المناظرات  
والمباحثات فى هذه القضايا بدون التعدى على الفرمانات  
السلطانية والمعاهدات الدولية التى حددت مقام مصر  
الخصوصى وبدون نقض القوانين الشورية لهذه البلاد

(١) يعلق الشيخ رشيد على هذه العبارة بقوله « أى بحسب رأيه »  
أعنى رأى سلطان .

التي هي أعظم كفالة تتكفل ببقاء الحال على ما هو عليه «  
وأصر الوزراء وفي مقدمتهم عرابي على موقفهم ، هذا  
الموقف الوطني الجليل ، وأيدهم كبار الضباط وأعلنوا  
أنهم معهم ولو أدى الأمر إلى القتال ...  
ولكن ماذا عسى أن يفنى عن الوزارة جلال موقفها في  
هذه الازمة العصيبة ، ولم يمض يوم واحد حتى قبل  
توفيق مذكرة الدولتين ، وأعلن ذلك في غير تخرج من  
هذا الفعل على شناعته البالغة ؟  
ولم يجد البارودي بعد ذلك مناصا من الاستقالة ،  
فكتب استقالة الوزارة على النحو التالي :  
« القاهرة في ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢ :

ان جنابكم العالي قد بلغنا عند وصول الدونميتين :  
الانجليزية ، والفرنسية بأنكم حررتم إلى الأستانة بطلب  
التعليمات ، ولما كنا منتظرين ورود خطاب من الباب  
العالي وإذا بقنصلي فرنسا وبريطانيا الخبري قدما  
لحضرة رئيس مجلس نظاركم لأثحتهما بتاريخ ٢٥ مايو،  
وبناء على أوامر جنابكم العالي اجتمعنا والتام مجلسنا  
وقرر هذا الخطاب المرفق مع هذا ، وعندما توجهنا إلى  
جنابكم العالي لاستشارتكم أخبرتمونا بأنكم قبلتم لأثحة  
وكيلي فرنسا وبريطانيا العظمى ، وهذا القبول مبين  
لما أجمع عليه رأي كل النظائر اجماعا كلياً ، فان قبول  
تدخل الدول الأجنبية في هذه القضية يمس بحقوق  
الحضرة السلطانية ، وبناء على ذلك نتشرف بأن نقدم  
لجنابكم استعفائنا جميعاً » ...

ولم يتردد الخديو، وكان وراءه مالت، في قبول استقالة  
الوزارة قائلا انه يقبلها لان هذه هي ارادة الامة ، وفيما  
عدا ذلك فانها أمور بينه وبين السلطان الذي يحترم  
حقوقه دائما . وتنفس الخديو الصعداء ، ظانا أن الأمر

انتهى الى غايته ، ولم يعلم أن صنيعة هذا كان معجلا  
بالكارثة ، بل لقد كان هذا الصنيع في ذاته هو الكارثة ،  
فلولا ما كان من ركونه على هذه الصورة الى الجانب ،  
ما أقدمت انجلترا على تنفيذ ما بيتته طويلا من غدر  
بالبلاذ ...

ومع ذلك فان كارثة الاحتلال لازالت على السنة بعض  
المصريين تنسب الى عرابى ، ذلك الرجل الذى تلفتت  
القلوب اليه وقد اشتدت الازمة وازفت الآزفة تأمل على  
يديه النجاة من الخطر المحدق ...

ان القضية كلها يمكن تلخيصها وقد قرب دوى  
العاصفة فى كلمة قصيرة ، هى أن خلافا داخليا وقع فى  
مصر بين الخديو المتمسك بالحكم المطلق وبين زعماء  
الشعب المتمسكين بالحكم الدستورى ، فانتهر الانجليز  
هذه الفرصة لتحقيق نياتهم المبيتة من قبل هذا الخلاف  
ولم يشأ الخديو أن يتنازل عن مبدأ الاستبداد فركن الى  
الاجانب ليتخلص من الوطنيين ، وعمل هؤلاء الثعالب  
على زيادة الخلاف وعلى راسهم مالت كبير شياطينهم ،  
حتى كانت المذكرة المشتركة الثانية وهى الضربة التى  
تصيب الحركة القومية فى مقتل ، فلم يجد عرابى وأعوانه  
بدا من دفع هذا العدوان الفاجر عن البلاذ انفة وحفاظا  
ولو ذهبت أرواحهم فى سبيل ذلك ...

فليت شعرى كيف كان ينتظر منهم أن يفعلوا غير ذلك  
فى موقف كهذا الموقف ؟ ألا فليحترموا عقولهم أولئك  
الذين يردون سبب الاحتلال الى عرابى ، أن كانوا  
يرجون لانفسهم ولوطنهم وقارا ...

## عبراجه ملاذ البلاد

كان لقبول استقالة البارودى أسوأ وقع فى البلاد  
جميعا ، واحس الناس فيها نذر الخوف وبوادرا العاصفة  
وقر فى نفس كل وطنى أن الخديو اليوم فى قبضة  
الاجانب وبخاصة الانجليز وان مالت هو الذى يحركه  
ويوحى اليه ما يريد ...

ولم يعد خافيا على اقل الناس دراية مفزى قبول  
الخديو المذكورة الثانية ومفزى قبول استقالة الوزارة .

واظهر توفيق صرامة لم يالفها الناس منه ، فاصر  
على قبول استقالة الوزارة على الرغم من احجام شريف  
ومصطفى فهمى وغيرهما عن تاليف وزارة جديدة ...

وبادر توفيق بارسال امر منه الى المديرين قال فيه :  
« بما ان هيئة النظار الحاضرة استعفت وصار قبول  
استعفائها فليكن معلوما ذلك لديكم لتصرفوا جهودكم  
وقدرتكم فى المحافظة التامة منكم ومن مامورى المديرية  
الموكلة لادارتهم والدقة والانتباه لحسن سير الاشغال  
والمصالح المتعلقة بكم ، كما أنه من حيث أن السفن  
الحربية الاجنبية التى حضرت الى الاسكندرية لم يكن  
حضورها الا بوجه سلمى فقط ، ولم يكن هناك شىء  
آخر خلاف ذلك ، فليس هناك لزوم لارسال احد من  
عساكر الامدادية الذين صار طلبهم أخيرا بمعرفة

الجهادية ، بل ان الموجود منهم تحت الحضور لهذا الطرف يصير اعادته لبلده ، والذي تحت الحضور من البلاد يتنبه بصرف النظر عن حضوره ، واعلان المراكز والاقسام بالتنبيه على مشايخ وعمد البلاد بهذا المضمون للعلم بعدم الافتضاء لجمع عساكر ، وانتباهه الى لا شغاله وزراعته بدون اشتغاله في غير ذلك ، هذا وان الامور المهمة التي كان قد جرى العرض عنها لنظارة الداخلية يجب ان يعرض عنها من الآن لمعيتنا الى ان تشكل هيئة نظاره جديدة كما هو مطلوبنا .

وهذه اوامر من الخديو تعد بالغة الخطورة ، فهو يهون من حضور السفن الاجنبية ، ثم يريد ان يحبط الدفاع الوطنى وذلك بمنع ارسال الجنود التي كانت وزاره البارودى قد استدعتهم من الجيش الاحتياطى ، قبل استئصالها ، وهو يحث الناس على الاشتغال بالزراعة دون غيرها اعنى الا يلبوا اذا دعا داعى الجهاد وفوق ذلك جميعه فهو يستبد بالامر كى يلقي في روع الناس انه السيد الوحيد الذى يجب طاعته في البلاد .

واى رضاء بالاحتلال والتمهيد له يكون اصرح مما يفعل توفيق باوامره هذه في وقت كذلك الوقت الذى يحدق فيه الخطر بالبلاد .

انما يريد توفيق ان يعترض طريق ثورة مشروعة في مصر مبعثها تدخل الاجانب في شئوننا الداخلية توطئة لالتهامها ، وان يظهر عرابيا ومن معه بمظهر العصاة المتمردين ، الذين يعمل هو ومن يعضده من الاجانب على قمعهم والقضاء عليهم وليس اكثر من هذا الذى يفعل مما لا لة للعدو واندماجا في سياسته . .

ولكن ما لبث توفيق ومؤيدوه ان تبينوا ان الامر ليس من السهولة كما تصوروا ، وان امامهم من الصعاب

ما ينوء من حمله أقدر الرجال . . .

وكان مالت قد تصور الامر هينا كما تصوره توفيق ،  
فقد أبرق الى جرانفل في اليوم التالي لسقوط الوزارة  
يقول : « رأى الوزراء أنهم اذا رفضوا الشروط التي  
قبلها توفيق فانهم بذلك يبيتون في ثورة مكشوفة بدلا  
من ثورتهم المستترة وهذا موقف أشفقوا منه ، وعلى  
ذلك فان سقوط الوزارة يرجع الى المسلك الخامس  
الذي سلكه سموه » (١) .

واطمأنت كذلك الحكومة الفرنسية وظنت ان مصر قد  
ماتت فيها روح المقاومة بسقوط الوزارة السامية وكانت  
انجلترا قد عادت الى مراوغتها في اليوم الرابع والعشرين  
من مايو اى قبل سقوط الوزارة بيومين فاقترحت على  
فرنسا ان تحاط الدول علما بما تراه انجلترا من علاج  
للحال وهو ان يكون جيش تركى على أهبة الاستعداد  
للذهاب الى مصر ، فكتب ممثل فرنسا في لندن الى  
جرانفل قبل سقوط البارودى بيوم يقول : « أبرق الى  
مسيو دى فرسنيه ان مجلس الوزراء الذى عرض عليه  
مقترحكم قد أجمع رايه على أنه ليس في الموقف الجالى  
ما يبرر الالتجاء الى قوة تركية ، فقد وصلتنا مذكرة  
من قنصلنا العام بمصر في اليوم الخامس والعشرين من  
هذا الشهر وفيها ان الوزارة في سبيلها الى الاستقالة  
وأن عناصر المقاومة في طريقها كما يتضح الى الانحلال ،  
وعلى ذلك فلدينا كل ما يدعو الى انتظار ما عسى أن  
تضير اليه الحوادث » (٢) .

ولكن مالت ما لبث ان أبرق الى حكومته أنه قد طلب  
الى شريف باشا أن يؤلف وزارة فرفض ذلك مصرحا



بأنه لا يمكن إقامة حكومة في مصر طالما يقيم بها العسكريون، ثم قال مالت : « ولكن الخديو يحاول الآن إقامة وزارة ولو أن أمله ضعيف في أن يوفق إلى وزارة ذات كفاية أن كان ثمة من أمل في إمكان قيام وزارة ما » (١) .

وعاد مالت يقترح أن يستعان بالسلطان ليعيد النظام في مصر وذلك بأن يرسل ضابطاً من لدنه في أقرب وقت « وكذلك يرى توفيق أن مبعوثاً تركيا يمكنه أن يسمع العسكريين صوته وأن يعيد إلى مصر الهدوء » .

والحق أن سقوط الوزارة السامية قد هز البلاد من أعماقها ، وبات الناس يتوقعون الاعتداء في كل لحظة ، ولم تبق في البلاد هيئة أو طبقة إلا أسخطها مسلك الخديو . قال عرابي في مذكراته (٢) : « وما طير البرق خبر استعفاء الوزارة واحتجاجها على قبول الخديو لللائحة انجلترا وفرنسا حتى بلغ الاضطراب في جميع بلاد القطر مبلغاً عظيماً وأخذ القلق من النفوس مأخذاً جسيماً ، فكثر اللفظ وزادت بواغث الايجاس والخوف ثم حضر إلى العاصمة جميع أعيان البلاد ومستخدمي الحكومة وقدموا لنا مئات العرائض بواسطة مديريهم محتجين فيها على عمل الخديو هذا وطالبن أحد أمرين : إما رفض اللائحة المشتركة المذكورة ، وإما عزل الخديو الذي قبل تدخل الأجانب في أحوال البلاد الداخلية » .

ويتبين لنا مبلغ ما لقي توفيق من عسر في الاجتماعين اللذين عقدهما في الصباح وفي المساء برئاسة بسراي الاسماعيلية في اليوم التالي لسقوط الوزارة ، ففي اجتماع الصباح حيث شهدته النواب وكبار العلماء والأعيان وكبار الموظفين ، عرض الخديو الوزارة على

M. E. Cromer.

(١)

(٢) من نسخة من مذكراته المخطوطة تحت يدي ص ٢ الجزء الثاني .

شريف باشا فاعتذر واصر على اعتذاره ، وحضر أثناء الاجتماع قنصل فرنسا العام ينبىء الخديو بأن برقية وردت عليه من حكومته تأمل فيها فرنسا أن يقبل شريف باشا الوزارة وستعضده الحكومة الفرنسية بكل جهودها ولكن شريفا ظل على احجامه وخوفه ... ثم اشترط أن يقبل الوزارة الحربية معه عمر باشا لطفى محافظ الاسكندرية فرفض ذلك عمر باشا ، وعرض الخديو رئاسة الوزارة على عمر فأشفق منها ...

وفي اجتماع المساء صرح الخديو المجتمعين بأنه سوف يشكل الوزارة برئاسته وستكون له وزارة الجهادية ثم عاد يبين للمجتمعين ما حدا به الى قبول مذكرة الدولتين ، وهدد الخديو وتوعد وقال انه مع عفوه عما مضى لن يسمح بعصيان أو مخالفة في المستقبل ، ثم أراد ان يخفف من وقع البوارج الحربية فعاد يؤكد أنها ما جاءت إلا لاغراض سلمية ...

وكل ذلك يدل على مبلغ ما أحاط بتوفيق من حيرة كما يشير الى شدة شعوره بما يجد في نفسه من حرج مما فعل ، وان تظاهر أنه لا يبالي بشيء ...

وتكلم طلبه باشا عصمت أحد الزعماء العسكريين ، فقال يرد على تهديد الخديو : « اننا مطيعون جميعا للجناب السلطاني الشاهاني وللجناب الخديو ، ولكن هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها ، ولا حق للدولتين في طلب تنفيذها ، فهي تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالي أن ينظر فيها ويستحيل علينا قبول أحد رؤيسا للجهادية خلاف رئيسنا أحمد عرابي باشا » (١)

---

(١) مذكرات عرابي المخطوطة : وقد أورد كرومر هذه الحادثة في كتابه وزاد عليها أن طلبه قال ان السلطان هو السلطة الوطنية التي يقرونها .

وفي هذا الكلام تحد صريح للخديو يدل على مبلغ ما كان في نفوس العرابيين من استياء منه ، ومن حماسة وطنية أوقد جذوتها مسلكه بانحيازه الى الاجانب . وزاد الموقف خطورة أن ورد على الخديو برقية من كبار رجال الجيش والشرطة بالاسكندرية بقولون فيها انهم لا يطمئنون لغير عرابي ناظرا للجهادية وانه اذا مضت اثنتا عشرة ساعة ولم يعد عرابي الى منصبه فهم غير مسئولين عما تفضي اليه الحوادث ...

وكان مالت لاريب فرحا لوقوع توفيق في مأزق كهذا ، فان ظاهر الامر يؤيد قوله ان تسلط الجيش هو سبب كل خوف ، وان كانت حقيقة الامر تقطع بأنه هو وكلفن كما بينا اصل كل المصائب ...

ويذكر كرومر في كتابه « ان سلطان باشا وبعض النواب أخبروا الخديو في حضور القنصلين الفرنسي والانجليزى انه ما لم يوافق على اعادة عرابي وزيرا للجهادية فان حياته يحف بها الخطر » .

وعلى الرغم من ذلك ، كما ذكر كرومر أيضا ، فان الخديو أصر على رفضه كما جاء في تقرير مالت ...

وفي نفس اليوم الذي عقد فيه الخديو اجتماعيه عقد اجتماع شعبي في دار سلطان باشا وقد شهدته كبار العلماء والنواب ، كتب عرابي يصف هذا الاجتماع فقال : « في ليلة السبت ٢٧ مايو سنة ١٨٨٤ دعيت الى منزل محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، فذهبت اليه ومعى اخوتى على باشا فهمى ، وعبد العال باشا حلمى ومحمد بك عبيد ، وغيرهم من الاخوان ، فلما وصلنا المنزل المذكور وجدناه غاصا بأعضاء مجلس النواب ومعهم قاضى قضاة مصر الشيخ عبد الرحمن نافذ والشيخ عبد الهادى الابيارى امام الجمعية ، وحصل

الاتفاق على ملازمة الراحة والسكون وان الخديو يرفض  
اللائحة الثنائية ويأمر برجوعى الى نظارة الجهادية  
والبحرية ، أو يعزل عزلا ، وفى أثناء ذلك حضر بحديقة  
المنزل جماعة من الضباط والنبهاء من الملكية وغيرهم  
وصاحوا بقولهم : اعزلوا الخديو الذى دعا الاجانب  
للتدخل فى امرنا وتهديدنا بأساطيلهم ...

ثم خرجت بمن معى من الضباط وتوجهنا الى منزل  
محمود باشا سامى فوجدنا كثيرا من الذوات هناك  
ينتظرون ماعسى أن يحدث من مخبات الدهر فقابلنا  
عبد الله باشا فكرى الذى كان أستاذا أو مربيا للخديو  
فى صفره وقال لنا : ان قتلتموه ؟ فقلت له : من تعنى ؟  
فقال : أعنى الخديو ، ألم يقتل ؟ فقلت له : اننا لا نقتل  
أحدا بغير حكم شرعى فلا يليق بك أن تتكلم بهذا الكلام  
ثم توجه كل منا الى منزله «

وفى اليوم الثامن والعشرين من مايو ، أبرق الصدر  
الاعظم الى الخديو ينبئه بأن « مبعوثا من لدن السلطان  
يرسل الى مصر اذا تلقى السلطان طلبا رسميا بذلك » (١)  
وكان ذلك ردا على ما أرسله توفيق الى الأستانة فى اليوم  
التالى ليوم استقالة الوزارة من أبناء مؤداها أن الجند  
غير راضين عن اسقاط الوزارة وان الوزارة احتجت فى  
استقالتها على تدخل الدولتين ... واشترطت تركيا  
هذا الشرط لايفاد المبعوث خوفا من انجلترا وفرنسا ان  
تغضبا اذا هى تدخلت من تلقاء نفسها ...

وسأل توفيق القنصلين ماذا يصنع فيما جاءه من  
الصدر الاعظم ؟ وأبرق مالت الى حكومته يقول : « لقد  
ذكرت للخديو انه اذا كانت حياته معرضة للخطر، فلست  
أستطيع أن أنصح بشيء يخالف الخطوة التى يقترحها

---

M. E. Cromer. (١)

إذا ظهر أنها هي فرصة الخلاص الوحيدة ، واقتصر  
مسيو سينكويكس على قوله انه سيطلب رأى حكومته ،  
ثم تركنا الخديو بدون أن نفضى اليه بأكثر من هذا ،  
مع أن الخديو كان يلح علينا بضرورة ارسال رد عاجل  
الى الصدر الاعظم «

ووصف مالت موقف توفيق فى ذلك الظرف بقوله :  
« ان موقف الخديو موقف مؤلم أعظم الالم ، فهو مهدد  
بالقتل ، ثم اننا صرفناه عن الذهاب الى الاسكندرية  
حيث كان فى الوقت متسع لهذا ، وكذلك لم نخل بينه  
وبين الالتجاء الى الجهة التى يأتية منها تأييد ذو أثر ،  
ولذلك فهو والحال كما أذكر خليق بأن يشعر شعور  
المرارة تلقاء ما يبدو له الآن من عواقب اتباعه نصحننا  
واعتماده على تأييدنا «

وهكذا نرى مالت يضبط ضغطا شديدا على حكومته  
لتعجل بالتدخل المسلح المنشود ، وكان من أثر ذلك أن  
كتب جرانفل دون أن ينتظر مشورة الحكومة الفرنسية  
الى اللورد دوفرين فى الأستانة يقول : « ان حكومة جلالة  
الملكة ترى الضرورة ملحة بالآ يضيع السلطان شيئا من  
الوقت دون أن يرسل أمرا به يؤيد الخديو ، ويرفض  
الاتهام الذى عزته الوزارة الساقطة الى سموه ، ويأمر  
كبار العسكريين الثلاثة ، وكذلك رئيس الوزارة السابق  
إذا دعا الحال ، بأن يحضروا ليشرحوا مسلكهم فى  
القسطنطينية «

ويتضح من ذلك ان الحكومة الانجليزية تخطو خطوة  
سريعة نحو الانفراد بالعمل وتنفيذ خطتها فى التهام مصر  
ولا نجد فى تفسير سياستها خيرا من قول كرومر فى هذا  
الظرف تعليقا على الموقف « ان النتيجة على أى حال لم  
تكن بعيدة ، فانه كان يتضح يوما بعد يوم أن عرابى لن

يخضع الا بالقوة ، فاذا لم تتبع القوة المطلوبة أى جهة أخرى فان هذا العمل يلقي بالضرورة على عاتق انجلترا» هذا هو الذى كانت ترمى اليه السياسة الانجليزية من جميع مراوغاتها واقتراحاتها ، ولسوف تنفرد عما قريب بضرب الاسكندرية ، وحجتها فى ذلك تأييد سلطة الخديو تجاه عرابى الثائر الذى تحركه الاطماع والمآرب الشخصية !

واشتد خوف الاجانب فى مصر حين فهموا ان الخديو عاجز عن تأليف وزارة ، فذهب وفد من القناصل الى عرابى فى الثامن والعشرين من مايو ، وقد أشار عرابى الى ذلك فى قوله : «ولما تعاظم الخوف حضر لمنزلى جميع قناصل الدول ماعدا قنصلى انجلترا وفرنسا يطلبون منى التأمين على رعاياهم فأجبتهم بأنى قد استعفيت ولا صفة لى تخولنى تحمل هذه المسئولية العظيمة ، فقالوا ان الجيش لا يخالف ارادتك ، وانت رئيس الحركة الوطنية فلا نأمن على رعايانا وأنفسنا الا باعطائك لنا كلمة الشرف بحفظ رعايانا ، فلأجل طمأنينتهم وتسكين روعهم كتبت تلفرافا الى جميع مراكز العسكرية بصفة انى رئيس الحزب الوطنى أرغب اليهم فيه ان يلتزموا الهدوء والسكينة وأن يحافظوا على راحة العموم ، وخصوصا رعايا الدول الاجنبية ، وأن يعاملوا الجميع بحسن المعاملة وكمال المجاملة »

وقابل هؤلاء القناصل الخديو ورجوا منه أن يعيد عرابى الى الجهادية حفظا للأمن فى مصر وتفاديا للأخطار أما الوطنيون فقد اشتد قلقهم وقد مضى بومان والخديو عاجز عن اقامة وزارة ، ونشط سلطان باشا ، وأكثر من مقابلة الخديو ، وفى نفس اليوم الذى قابله منه القناصل ، ذهب سلطان الى سراى الاسماعيلية



وتحدث مع الخديو طويلا ، ولكنه وجد منه تصميمًا على موقفه ...

واجتمع بمنزل سلطان باشا عدد كبير من النواب والعلماء والأعيان وكبار ضباط الجيش ، واتفقوا على أن يذهب وفد منهم إلى الخديو يرجو منه أن يعيد عرابي وزيراً للحربية ، ففي ذلك ضمان الأمن والسلامة

وذهب وفد مؤلف من سلطان باشا وحسن باشا الشريعي وسليمان أباطة إلى سراي الاسماعيلية وقابلوا الخديو وعرضوا عليه ملتمسهم أن يعيد عرابي إلى الوزارة فرفض الخديو وأصر على رفضه ، وبعد طول توسلهم وتوسط سلطان باشا أجابهم الخديو إلى طلبهم قائلاً : « بما أنكم أتيتم طالبين تقليد نظارة الجهادية لسعادة عرابي باشا حيث أنكم تظنون أن هذا التعيين يساعد على حفظ النظام فلا مانع من اجابتكم » ...

وان اتفق هذا العدد الكبير من رجالات الأمة على إعادة عرابي حتى يطمئن الناس ويتحقق الهدوء لدليل لا شبهة فيه على أن الرجل فضلاً عما تحقق له من الزعامة قد أصبح بحق ملاذ البلاد ، أما الخديو فلم يعد في رأي الناس إلا أداة طيعة في يد مالت يصرفه كيف شاء ...

أشار إلى ذلك روئستين في كتابه بعد أن أشار إلى احتجاج ضباط الجيش ورؤساء الشرطة في الاسكندرية على الخديو بقوله : « وسرعان ما وصل نبأ هذا الاحتجاج إلى أهل القاهرة فقام إلى الخديو وفد مؤلف من رؤساء الأديان المختلفة ، علماء الاسلام ، وبطريق الأقباط ، وحاخام اليهود ، وطلب إعادة عرابي وزملاءه ، فكان ذلك مظهرًا من مظاهر ارادة الأمة غير متوقع بالمرّة ... وعندما قدم سلطان باشا على الخديو مهرولا يكاد يقتله الخوف ، وتوسل إليه أن يرجع النظر إلى مناصبهم

والا كانت حياته في خطر ، نقول عند ذلك أذعن توفيق وأصحابه البررة ، وأعيدت الوزارة ، وأرسلت الأوامر الى الأقاليم بالفناء أوامر التسريح السابقة . . . ولم تدم هذه المأساة الهزلية أكثر من ثلاثة أيام ، ولكنها كانت كافية في اظهار شعور الأمة الحقيقي . وان في السرعة التي أرسلت بها الأوامر الى الأقاليم لوقف جميع وسائل الدفاع لبياننا لسبب كره الدبلوماسيين البريطانيين عرابي ورفاقه ، فقد رأوا أنه ما دام هؤلاء قابضين على أزمة الأمور فلا يحتمل أن تقع مصر غنيمة باردة في أيدي المعتدين » .

ولكن مالت لم يروقه هذا المظهر فكان مما افتراه فيما أبرق به الى حكومته ما جاء في قوله : « في هذا المساء توجه رؤساء رجال الدين وفيهم البطريك ، والحاخام ، كما توجه النواب جميعا والعلماء وغيرهم الى الخديو وسألوه أن يعيد عرابي وزيرا للجهادية ، فرفض الخديو ، ولكنهم توسلوا اليه قائلين : لئن كان الخديو مستعدا ليضحى بحياته فينبغي ألا يضحى بحياتهم هم ، وان عرابي يهددهم جميعا بالموت ان لم يحصلوا له على موافقة الخديو ، وان حرس القصر قد ضوعف ، وان أوامر صدرت اليهم بأن يمنعوا مفادرتهم القصر طلبا لرياضته المعتادة ، وأن يطلقوا النار اذا حاول أن يشق طريقه بالقوة . . . ولم يجد الخديو أمام هذه الظروف الا الأذعان لا لينجى نفسه بل لينقذ المدينة من سفك الدماء »

الى هذا الحد يبلغ افتراء مالت فيصور توفيقا سجيناً في قصره ويجعله عرضة لان يطلق حرسه النار عليه ، وهذه رواية لم يوردها غير مالت بين جميع من كانت لهم صلة بهذا الموقف من القناصل ومن المؤرخين . ومن

الامور البديهيّة انه لم يحجم عن أن ينقل مثل هذه الشائعات المفزعة الى توفيق نفسه ليملأ قلبه رعبا ، ويوحى اليه أن يطلب النجدة ...

وفي مساء اليوم الثامن والعشرين من مايو ، أصدر الخديو أمرا الى عرابى باشا باعادته الى وزارة الجهادية والبحرية هذا نصه : « وثو أنكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التي استعفت ، ولكن مراعاة لحفظ الراحة والامن رأينا بقاءكم على نظارة الجهادية والبحرية وأصدرنا امرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا باجراء ما فيه انتظام أحوال العسكرية بالطريقة الكفيلة لحفظ الامن العام على الوجه المرغوب كما هو مقتضى ارادتنا »

يقول عرابى فى مذكراته : « حضر لى رئيس مجلس النواب سلطان باشا وحسين باشا الشريعى وسليمان باشا أباطة وسلمونى أمر الخديو القاضى برجوعى الى نظارة الجهادية والبحرية ، وأخبرونى بأنهم لما وفدوا على الخديو وجدوا جميع القناصل فى حضرته ما عدا قنصلى فرنسا وانجلترا وأنهم طلبوا من الخديو صدور أمره برجوعى الى نظارة الجهادية والبحرية لاجل اطمئنان العموم ، فكان القناصل مع النواب على رأى واحد ، وحينئذ كفرح الضباط والجنود وجميع الوطنيين وسروا بذلك سرورا عظيما ...

وبعد ذلك توالى اجتماع قنصلى انجلترا وفرنسا الجنرالين بالخديو ليلا ونهارا ، ثم انى أصدرت منشورا الى قناصل الدول ، وتكفلت لهم فيه بتأييد الامن والراحة لجميع سكان القطر المصرى وطنيين وأجانب مسلمين وغير مسلمين ، وطلبت من الخديو لزوم جمع العساكر لاستكمال الآليات على مقتضى القدر المقرر فى الفرمانات السلطانية فأجابنى بالموافقة على ذلك ، وصدر أمر

الجهادية بجمع عساكر الامدادية نمرة ٢ ، ونمرة ٣ ،  
استعدادا لما عسى أن يطرأ من الحوادث »

واخذت الطمأنينة تحل محل القلق في نفوس الناس ،  
الا من كانوا يفطنون الى حقيقة الموقف ، فليست المسألة  
مسألة الخلاف بين توفيق وعرابي ، وانما المسألة هي  
نوايا السياسة الانجليزية ! ولذلك ما كانت أية تسوية  
داخلية لتجدي فتىلا والانجليز متربصون ، ومالت  
يسعى جهده لتعكير الماء كي يسهل عليه الغدر ...

والواقع أن تعلق الناس بعرابي الى هذا الحد واطمئنان  
الوطنيين والاجانب اليه ، أقوى رد يدفع به باطل مالت  
وأشياعه ممن خوفوا أوربا من نفوذ الحزب العسكري  
وأندروها بالويل والثبور ، فها هم اولاء الناس من  
وطنيين واجانب لا يجدون لهم ملاذا غير عرابي ليطمئنون  
على حياتهم وأمنهم ...

وكان عجز الخديو كذلك عن اقامة وزارة ابلغ فشل  
لسياسة مالت ، فان طوائف الامة تؤيد الجيش ما عدا  
سلطان ونفرا من النواب ، وما تلتف الامة حول الجيش  
ورئيسه عرابي الا لانه اليوم في نظر الجميع أكثر مما  
كان من قبل أمل البلاد في انقاذها من التدخل الاجنبي ،  
وهل يقول أحد ان الامة كانت في صف توفيق بعد قبوله  
المذكرة المشتركة الثانية ؟

اذن فالقضية تزداد وضوحا يوما عن يوم. فهذه امة  
تطلب الحرية ، ولكن انجلترا وعلى رأسها جلادستون  
زعيم الحرية تتهمها بالتمرد والفوضى ، كي تتقدم  
لالتهامها ، كما اتهم الذئب الحمل في تلك الخرافة التي  
يقصونها على الاطفال بأنه يعكر عليه الماء ، والذئب في  
رأس المنحدر ، والحمل في أسفله ؟ !

وما أرذل موقف مالت بعد التفاف الامة حول عرابي

على هذه الصورة ، وما أكثر ما يكشفه الموقف من صفاقته ولؤم طبعه . . . يقول روئستين : « لاشك أن السير ادوارد مالت قد ساءه الاخفاق الذي لقيه وهو يحاول التخلص من وزارة سامي ، ولو أنه كان على شيء من الشعور بكرامة النفس لاستعفى وقتئذ من عمله . ولكن الرجل لم يكن يريد المحافظة على كرامة نفسه ، وإنما كان يريد أحداث تدخل مسلح ، فإذا لم تؤده الى ذلك طريق سياسة سلكها ، فلا بأس بأن يعيد الكرة ويسلك طريقا أخرى تكون أقصد وأهدى الى وجه النجاح . لذلك لم يكن الاخفاق الذي لقيه الا ليزيده اقبالا على العمل ومضيا فيه ، فقد كتب عن رجوع الوزارة (١) الى رئيسه في ٣٠ مايو يقول : ان القوم يعدونه ايدانا باخراج المسيحيين من مصر ورجوع الأرض التي يمتلكها الاوربيون أو يرتنونونها ، كما يعدونه ايدانا بالغاء الدين العام » . . .

وكيف كان يطيق مالت أن يضمن عرابي الأمن في مصر؟ وكيف كان يطيق أن ينجح عرابي فيما تعهد به ؟ ان معناه بطلان كل حجة له ، بل بطلان حجته الوحيدة التي لا يفتأ يردددها الا وهي اختلال الأمن في البلاد وقلق الاجانب على أموالهم بسبب تسلط العسكريين . . .

لذلك يبالغ مالت في وصف ما يدعى من سوء الحال في مصر ولا يكتفى بما ذكره فيما أورده روئستين ، بل انه يبرق الى حكومته في نهاية شهر مايو قائلا : « ربما وقع تصادم في أي وقت بين المسلمين والمسيحيين (٢) » ولنا عودة الى هذه البرقية الخبيثة عند كلامنا على مأساة الاسكندرية . . .

---

(١) يقصد رجوع عرابي الى الوزارة .

(٢) M. E. Cromer.

ويذكر مالت فيما يذكره لحكومته أن البلاد في حالة  
ذعر ، وان الاوربيين يفادرون القاهرة أفواجا ، وان  
الوزارات جميعا ما عدا وزارة الجهادية تكاد تكون معطلة  
الاعمال ، الى غير ذلك من المفثريات الفاجرة ...  
ويشايح مالت انجليزى آخر ، هو كوكسن قنصل  
انجلترا في الاسكندرية الذى رأيناه يلعب دور الشيطان  
يوم عابدين ، فقد أبرق قبل اليوم الاخير من مايو  
يقول : (١) « ان كل يوم نتأخره يزيد روح العسكريين  
الخطرة كما يزيد تحديهم المتواصل للنظام » ...  
ويقول كذلك وما أبعد ما يقول عن الحق : « ان ضباط  
الجيش يحصلون بالقوة على توقيعات من الناس على  
عريضة بطلب عزل الخديو . وان رئيس مجلس النواب  
طلب الى الاعضاء ان يستقروا في بيوتهم لكي يخلصهم  
من ارغام الجند اياهم على التوقيع » (٢) ..  
وللقارىء ان يتدبر في قول كوكسن : « ان كل يوم  
نتأخره » ومعنى ذلك أنه كان كصاحبه مالت يستعجل  
دولته بالعدوان الفادر على البلاد ...



## بين عرابي والسلطان

ذكرنا أن الحكومة العثمانية أجابت الخديو بأنها مستعدة لإرسال مندوب إلى مصر إذا جاءها من مصر طلب رسمي بذلك ، ويقول كرومر في كتابه : أن هذا الطلب الرسمي أرسل فعلا إلى الأستانة ، ومهما يكن من الأمر فإن السلطان في اليوم الثاني من شهر يونيو سنة ١٨٨٢ عين مصطفى درويش باشا مندوبا عثمانيا ساميا وأمره بالسفر إلى مصر رئيسا لوفد يعالج الحال فيها، ولعل السلطان كان يرى أن هذا الوفد أو هذه البعثة التي اشتهرت باسم بعثة درويش باشا كانت كفيلة بوضع الأمور في موضعها الصحيح ، وإزالة أسباب الشكوى من جميع الجوانب على أساس الاستفادة من الخلاف بين الفريقين ابتغاء تثبيت سلطة الدولة في مصر ...

ووصل درويش باشا ووفده إلى الإسكندرية في اليوم السابع من يونيو ، وقد أقلهم إليها اليخت السلطاني « عز الدين » ، وكان من أهم أعضاء الوفد الشيخ أحمد أسعد أحد ذوى الحظوة والمكانة عند السلطان عبد الحميد ، وبلغ عدد أعضاء البعثة ورجال حاشيتها ثمانية وخمسين ....

ويجدر بنا قبل الكلام على بعثة درويش أن نأثي على تاريخ الصلة بين عرابي والسلطان منذ بدأت بينهما ،

لما لذلك التاريخ من أهمية لعلاقته بما كان من أمر درويش ومسلكه نحو الخديو ونحو عرابي ...

كانت أولى خطوات عرابي نحو الاتصال بالآستانة تقابله مصادفة في اليوم السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٨٤ بأحمد راتب باشا ، أى بعد يوم عابدين بشهرين وبضعة أيام ، وقد ذكر عرابي نبأ هذه المقابلة في موضعين : الأول في مذكراته ، والثاني في حديثه مع مستر بلنت بالشيخ عبيد في اليوم الثاني من شهر يناير سنة ١٩٠٤ أى بعد عودته من منفاه بأكثر من عامين وقد أثبت بلنت هذا الحديث في آخر كتابه ...

قال عرابي في مذكراته : « وفي ١٦ أكتوبر تقابلت مع أحمد راتب باشا أحد رجال الوفد العثماني ، وأحد رجال المايين المقربين من جلالة السلطان الأعظم في محطة الزقازيق ، وكان قاصدا بندر السويس ليبحر منه الى الحجاز لمأمورية فوق العادة ، فركبت معه في عربة واحدة وعرفته بنفسى ، ثم أخبرته بكل ما أجريناه من أول الامر الى آخره ، واننا لم نشق عصا الطاعة كما يدعى الاوربيون ، بل طلبنا الاصلاح باسم الذات الشاهانية ، وبذلك علم الصغير والكبير بأن لنا سلطانا شرعيا هو صاحب السيادة العظمى على البلاد المصرية وان الخديو هو نائب عن جلالته فقط ، من بعد أن كانوا لا يعرفون لهم حاكما شرعيا غير الخديو . ولما وصلنا الى رأس الوادى حضر الضباط والصف ضباط ، وأصطفوا صفنا واحدا تعظيما واجلالا للذات المشار اليها ، وهتفوا بقولهم : يعيش السلطان ، ثم ودعناه والتمسنا منه عرض اخلاصنا وطاعتنا على الحضرة السلطانية حين عودته الى الآستانة العلية ، وقام به القطار بين أصوات المودعين والدعاء له وللذات الشاهانية »

وقال في حديثه مع بلنت : « ولما جاء على باشا نظامى الى القاهرة ومعه احمد راتب باشا من قبل السلطان ، انزعج الخديو مخافة ان يحدث تحقيق ، ولما كان محمود سامى قد عاد الى نظارة الجهادية فقد امرنا ان نفادر القاهرة ، فذهبت الى رأس الوادى وذهب عبد العال الى دمياط ، وبقي على فهمى فى القاهرة ، ولم ار على نظامى ولا كانت لى صلة به ، ولكن حدث ان كنت فى الزقازيق ذات يوم فى زيارة صديقين لى هما : احمد افندى الشمسى ، وسليمان اباطة باشا ، وبينما كنت راجعا بالقطار الى رأس الوادى ، تصادف ان كان احمد باشا راتب فى طريقه الى السويس ليبحر منها فى رحلة الى مكة ، ووجدت نفسى فى العربة التى كان يجلس بها ، وتبادلنا التحية كشخصين يجهل كلاهما الآخر وسألته عن اسمه ، وسألنى عن اسمى وحدثنى عن رحلته وعن اشياء اخرى ، ولكنه لم يشر الى بعثته للخديو ، وكذلك لم أساله عنها . ولكنى أخبرته عن ولائى للسلطان بصفته رئيسا لديننا وقصصت عليه جميع ما حدث فقال خيرا ما فعلتم ، وتركته عند رأس الوادى ، وقد ارسل الى مصحفا من جدة ولما عاد الى استانبول كتب الى يخبرنى انه ذكرنى بخير عند السلطان ، وبعد ذلك تلقيت كتابا املاه السلطان على الشيخ محمد صفر يخبرنى فيه (١) بما تعلم . »

اما عن بعثة على نظامى فان عرابى لم يكن له بها صلة لولا ما كان من لقائه احمد راتب باشا على الصبورة التى ذكرناها ، وكانت بعثة نظامى هذه هى الوفد العثمانى الاول وقد وصلت مصر فى اليوم السادس من أكتوبر

---

(١) حرف بلنت هذا الاسم وحقيقته محمد ظافر كما جاء فى مذكرات عرابى الخلية .

سنة ١٨٨١ ، وسميت بعثة درويش بعد ذلك بالوفد  
العثماني الثاني ...

نزل أعضاء الوفد الاول بقصر النزهة ضيوفا على  
الحكومة ، واستقبلهم الخديو في اليوم التالي مرحبا  
بهم في قصر الاسماعيلية ، وأبلغوه تحيات السلطان ،  
وثنائه على ما يبذل الخديو من همة في تحسين أحوال  
البلاد ، وأفهموه أن الغرض من مجيئهم هو تأييده  
وتثبيت حكمه في مصر... وعبر الخديو أمامهم عن عظيم  
شكره للسلطان وولائه له ، ورد لهم الزيارة في قصر  
النزهة ...

وزار على نظامي باشا ديوان الجربية في مقرها بقصر  
النيل ، وكانت مقر الآلى الثاني واستقبله البارودى  
بالحفاوة ، وألقى نظامي باشا خطابا بالتركية على الضباط  
والجند حثهم فيه على طاعة الخديو وترجمه لهم  
البارودى ، وأجاب طلبه عصمت بقوله : « ان العساكر  
المصرية جموعا وأفرادا على قدم الطاعة والانقياد لولى  
أمرنا الخديو المعظم ، يتلقون أوامره بالامتثال ، ويقفون  
عند حد نواهيه ، فان كلا منا يعلم ان أول واجب على  
الجند هو اطاعة ولى الامر والاذعان لما يأمر به ، وما منا  
الا محب للجناب الخديوى ميال بكليته الى الامتثال  
لاشارته »

وصافح نظامي باشا الضباط جميعا وأثنى على ما  
يظهرون من ولاء وحسن نظام .

وزار نظامي باشا شيخ الجامع الازهر وتقيب  
الاشراف وبعض كبار العلماء فلقى منهم جميعا ثناء على  
الجيش وشهدوا بحسن نياته وولائه للسلطان وللخديو ،  
وكان زعيم الجند أحمد عرابى اثناء ذلك في رأس الوادى  
فلم يره نظامي .

ويبدو عجيبا أن نظامي لم يحاول أن يتصل بعرابي،  
ولعل مرد هذا إلى أن السلطان لم يكن يؤيد يومئذ  
الحركة الدستورية في مصر ، فقد حارب عبد الحميد  
مثل هذه الحركة في بلاده وذلك بتعطيل القانون الاساسي  
العثماني واغلاق مجلس النواب وتشيتت انصار  
الدستور والحرية ...

وكانت بعثة نظامي في الواقع مظاهرة سياسية ، أراد  
بها الباب العالي أن يستعيد نفوذه ويثبت سلطانه في  
مصر ، وقد قوبلت كما أسلفنا بمظاهرة سياسية مثلها  
من قبل الدولتين ...

أما خطوة عرابي الثانية نحو الصلة بالاستانة فتتلخص  
فيما جرى من مكاتبات بين بعض رجال السلطان وبين  
عرابي ...

وقد أشار بلنت في كتابه إلى هذه المكاتبات بقوله بعد  
أن ذكر ما كان من لقاء بين راتب وعرابي « وقد أدى  
ذلك إلى مكاتبات بينهما ، وتحت يدي أصل وثيقتين  
هامتين وقعت عليهما ضمن اضية كبيرة من الاوراق  
اثناء محاكمة عرابي وهما كتابان أرسلتا إلى عرابي بعد  
تأليف وزارة سامي بنحو ثلاثة أسابيع أي في فبراير سنة  
١٨٨٢ وهي الوزارة التي كان عرابي فيها وزيرا للجهادية ،  
أما أولهما فمن أحمد راتب ، وأما الثاني فمن الشيخ  
أحمد ظافر أحد كبار شيوخ الدين بالقسطنطينية الذي  
كان في ذلك الوقت يقوم على شئون المكاتبات السرية  
للسلطان ، وقد كتبت هاتان الرسالتان بأمر السلطان  
شخصيا » . ثم أورد بلنت بعد هذا نص الرسالتين .

ويذكر عرابي في مذكراته أن الاصل التركي للرسالتين  
ضبط بعد موقعة التل الكبير وترجمتا إلى اللغة  
الانجليزية ثم أورد عرابي تعريبيهما عن الانجليزية ...

أما عن قصة هاتين الرسالتين فيقول عرابي : « ولما رأينا كثرة تردد السير مالت قنصل انجلترا الجنرال على الخديو ليلا ونهارا واستسلام الخديو لما يوحى به اليه علمنا أن انجلترا طامعة للاستيلاء على وادى النيل الخصيب عملا بقاعدة التوازن الدولي لتضارع بعملها هذا عمل فرنسا في استيلائها على ولاية تونس الحضراء ، فكتبنا بذلك للحضرة السلطانية ، وحيث لم يكن لنا واسطة في الآستانة تبلغ عنا مقاصدنا للسدة الشاهانية اتخذنا الشهم المقدام الصادق الأمين على راغب قبودان أحد شبان ضباط البحرية المصرية رسولا ، وكلفناه بإبلاغ عريضتنا الى الحضرة السلطانية بواسطة الشيخ محمد ظافر شيخ السادة الشاذلية وشيخ الحضرة السلطانية فصدع بالأمر وأوصل الرسالة الى الشيخ المذكور . وكذلك بلغ أحمد راتب باشا ما أوصيناه به بعد عودته من مأموريته الحجازية الى دار السعادة .

فكتب لنا الشيخ ظافر بما صدر به النطق الشريف ، وكذلك فعل أحمد راتب باشا ، وكان الحامل لهذين الخطابين السيد أحمد أسعد أفندي وكيل الفراشة النبوية عن الحضرة السلطانية الذي حضر أخيرا بمعية درويش باشا ، وهاك ترجمتهما عن اللغة الانجليزية من تاريخ المستر برودلي وتاريخ المستر بلنت لان أصلهما التركي ضبط بعد واقعة التل الكبير وترجم الى اللغة الانجليزية » .

وأشار عرابي الى المكاتبات بينه وبين السلطان في موطن آخر ، وذلك أثناء سجنه في مقر الدائرة السنية قبيل محاكمته ، فقد كتب وهو في السجن ملخصا لقضيته كلها ليستعين به محاميه مستر برودلي في الدفاع عنه ، ولقد أثنى برودلي على حضور ذهنه وترتيبه



الحوادث ترتيباً منطقياً حسن السياق على الرغم مما كان يحيط به . قال عرابي في هذا الملخص (١) وقد تكلم عن بعثة درويش ما نعر به كما يأتي : « أشعر الآن أن من واجبي نحو مصر ونحو نفسي أن أذكر في وضوح عند هذه النقطة اتصالي بصاحب الجلالة السلطان أثناء الحوادث الأخيرة في هذا البلد . لقد بدأت على هذه الصورة : أرسل طلعت باشا الشركسي في نوفمبر سنة ١٨٨١ في رسالة الى القسطنطينية من جانب الخديو . وقد كلف أن يصور للوزراء الاتراك وللسلطان أن مصر في حالة ثورة ، وأن هناك اقتراحاً لإنشاء إمبراطورية عربية وأن أحمد عرابي والحكومة البريطانية قد اتفقا فيما بينهما على هذا الأمر . . . . . وقد أحدثت هذه الإشاعات التي نشرها طلعت أثرها في الآستانة ، ولم يكن لنا وكيل هناك يدفع هذه الأباطيل ، فاضطرت أزاء ذلك الى الاتصال بالعالم الورع الشيخ محمد ظافر كاتم سر السلطان ومشيره الديني ، ذلك الذي عرفته بشهرته ولم أقابله شخصياً قط . فكتبت اليه وحمل رسالتي اليه على راغب مفنداً جميع المزاعم التي عزيت إلينا ، وطلبت اليه أن يشرح للسلطان صادق ولأئى ، وشدة تعلقى بالمبادئ الأساسية لديننا المقدس ، تلك التي تجعل من واجبنا أن نطيع أمير المؤمنين .

ولقد رد علينا هذا الشيخ في سرور فحمل على راغب السالف ذكره كتاباً باللغة التركية ، قال فيه أنه ألقى بين يدي السلطان ما تضمنه كتابي ، وأن السلطان أظهر اقتناعه بولائى ، وأنه يأمرنى أن أظل على طاعتى ، وأضاف الشيخ أن جلالة السلطان يطلب الى أن أدافع عن بلدى بكل ثمن ضد الاحتلال ، والأمر كان نصيبه نصيب

---

How we Defended Arabi. By A.M. Broadley. (١)

تونس ، وانه لايعنيه اسماعيل او حليم او توفيق ، وما يعنيه الا الرجل الذى ينفذ ما يأمر به ، وكتب الى بمثل هذا احمد راتب باشا الذى قابلته مقابلة شخصية طويلة عندما كان بمصر ، والذى جاء كتابه الى مع كتاب ظافر»

هذه قصنة الرسالتين الخطيرتين بين عرابى وبلاط السلطان ، او تاريخ الصلة بين عرابى والسلطان قبل بعثة درويش ، ولقد راجعت الرسالتين كما أثبتهما عرابى فيما بين يدى من مذكراته المخطوطة على الترجمة الانجليزية التى أثبتها بلنت فى كتابه عن الاصل التركى فوجدت التشابه بينهما تاما ، ولذلك آثرت أن أوردتهما للقارئ فى عبارة عرابى فيما يلى :

ولنبدا بكتاب الشيخ محمد ظافر ، قال : « ناظر الحربية المصرية، سعادتلو أفندم... قد قدمت الخطابين الكريمين الواردين منكم الى جلالة السلطان وجلالته علم من فحواهما جميع عواطفكم الوطنية وتيقظكم وخصوصا وعودكم بمساعيكم لحفظ مصالح جلالته بكل اخلاص وامانة ، فانها وقعت لدى جلالته موقعا حسنا ، حتى ان جلالته امرنى أن أبين لكم سروره ورضاه واكتب لكم كالاتى :

حيث ان حفظ الخلافة واستقامتها فرض على كل واحد منا ، فيجب على كل مصرى السعى بمزيد الاهتمام وراء تثبيت سلطتنا لمنع خروج مصر ووقوعها فى قبضة الاجانب الطامعين كما وقعت ولاية تونس فى ايدى الفرنسيين فنحن وضعنا ثقتنا فيكم يا ولدى لاستعمال قوتكم وعمل كل ما فى الامكان لمنع حدوث شىء مثل ذلك . فكن على حذر دائما ولا تغض النظر طرفة عين عن هذه النقطة المهمة ، ولا تتركوا أية طريقة او وسيلة من وسائل الاحتياطات والطرق المتخذة فى عصرنا هذا ، واضعا

نصب عينيك دائما الغرض الذى ترمى اليه ، ألا وهو الدفاع عن ملتكم وبلادكم ، وخصوصا يجب عليكم أن تشابروا، على حفظ ثقتنا بكم والروابط التى تربطكم بنا.

تلك البلاد هى بلاد مصر التى لها أهمية عظمى لدى انجلترا وفرنسا وخصوصا لدى الاولى . ويوجد شرذمة من أصحاب الدسائس والفتن فى الآستانة يمالئون هاتين الدولتين ويشتغلون من زمن بعيد بمشروعاتهم الفاسدة التى تؤدى الى الخراب وسوء المصير . ومنذ رأوا من صالحهم ازدياد تلك الدسائس والفتن فى مصر ، وجهوا عنايتهم الى ذلك بنشاط وغيره فرغبة جلالته الخاصة هى أن تحذروا من أولئك الخونة الأشرار ومكائدهم ، وتراقبوا أعمالهم بعيون ساهرة لا تنام !

وبناء على التلغرافات والاخبار المرسلة من الخديو توفيق باشا أحد أعضاء الجمعية الموما إليها نرى أنه ضعيف ومتقلب ولاحظنا أيضا أن كل تلغراف من تلغرافاته لا يؤيد الآخر بل جميعها على طرفى نقيض . وأزيدكم معرفة بأن على نظامى باشا وعلى فؤاد بك قد أثريا عليك ثناء جمىلا لدى الحضرة السلطانية وكذا أحمد راتب باشا فقد قص على جلالته موضوع الحديث الذى دار بينكما فى عربة السكة الحديدية ما بين محطتى الزقازيق والمحسمة ، وبما أن جلالته يضع عظيم ثقته فى أحمد باشا راتب ، فقد كلفنى بهذا السبب أن أظهر لكم ثقته فيكم واخبركم بأنه حيث أن جلالته يعتبركم رجلا ذا استقامة وأمانة فهو يطلب منكم قبل كل شىء منع وقوع مصر فى قبضة الأجانب وألا تتركوا لهم حجة تمكنهم من التدخل فى شئون مصر ...

هذا وان التعليمات التى ستصدر الى راتب باشا فى هذا الشأن ستكتب لكم على حداثها ...

وقد كتب خطابى هذا وخطاب أحمد راتب باشا بأمر  
جلالته بمعرفة أحد كتاب جلالته الخصوصيين وبعد أن  
وقعنا عليهما بأختامنا في حضرته العلية ختمنا على الظرفين  
هذا وأعلمكم بصفة خاصة وسرية أن جلالة السلطان  
لا يقول على اسماعيل ولا حليم ولا توفيق بل يقول على  
الرجل الذى يفكر في مستقبل مصر ويثبت الروابط التى  
تربطه بالخلافة ويحترم جلالته الاحترام الواجب ويعمل  
بمقتضى الفرمات السلطانية بلا تعطيل ولا تغيير ويؤيد  
سلطته المستقلة فى الآستانة وخلافها ولا يعطى رشوة  
لأولئك الموظفين الخائنين ولا يحيد قيد شعرة عن طريق  
واجباته ويكون له دراية تامة بدسائس أعدائنا الأوربيين  
وأعمالهم التى يقصد منها ايقاع الفتن والمشاغبات ،  
ويكون واقفا لهم بالمرصاد ، ويحافظ على بلاده وملته  
من أن يمسها سوء فمن يفعل ذلك يرض جلالة متبوعنا  
الاعظم ويكن مقبولا لدى جلالته .

وانى أرجوكم الا تؤاخذونى فى عدم كتابة تفصيلات  
أخرى بخطابى هذا ، حيث ان أحمد راتب باشا حضر  
مند ثلاثة أيام فقط ، ومع ذلك فى المدة القصيرة نظرا  
للأقوال التى صرح بها عن حسن مقاصدكم الشريفة  
واخلاصكم لجلالته اظهر عظيم ثقته فيكم . هذا وقد  
وصلنى بالامس الخطاب الذى أرسلته لى واتعشم بإمكان  
ارسال خطابى لكم فى بريد الاسبوع الآتى متضمنا تفصيلات  
أكثر . وعلى كل حال فاحذروا من وقوع أى خطاب من  
الخطابات التى ترسلونها فى أيدي الغير واجتهدوا فى  
الحصول على مراسل خاص بيننا تثقون به ، وأما فى  
هذه المرة فالأوفق هو تسليم رد هذا الخطاب ليد حاملة  
٤ ربيع الآخر سنة ١٢٩٩ محمد ظافر

ونورد بعد ذلك كتاب أحمد راتب باشا ونصه كما

أثبتته عرابى كما يأتى :  
الى ناظر الحرية المصرية احمد عرابى بك (١) : قد  
بلغت جلالة السلطان الاعظم الحادثة التى حصلت بيننا  
بالسكة الحديدية ما بين محطتى الزقازيق والمحسمة عند  
عودتى من الآستانة ، وقد أحدثت تلك الحادثة سرورا  
عظيما عند جلالتة وأمرنى أن أبلغكم محظوظيته الملوكانية  
وانى بلغت جلالتة المعاملة الحسنة التى عوملت بها ،  
والاكرام الذى راته عيناي مدة وجودى بالمحروسة ،  
وجلالته أظهر عظيم محظوظيته حتى أن الرضا الذى  
حصل عنده أقنع جلالتة بحسن ولائكم وعبوديتكم  
أضعافا مضاعفة ...

هذا وقد سعى أناس فى جعل جلالتة يفكر انكم كنتم  
تسيرون على خطة مخالفة للطريق القويم ولا أدري كيف  
ذلك ، ونجحوا فى تغيير فكرة جلالتة نحوكم . وأما الآن  
بعد أن أوضحت لجلالتة حقيقة المسألة أقسم لكم أن  
جلالتة متأسف جدا لكونه سمع للأقوال الكاذبة  
والمختلفة التى بلغت عنكم ، والذى يثبت لكم ذلك هو  
أن جلالتة أمر بأن أحرر هذا لكم وأوضح لكم فيه  
الخواطر الآتية :

لا أهمية فيمن يكون خديو مصر ، ويجب أن تكون  
افكار والى مصر ومقاصده وسيرته خالصة من الشوائب  
بحيث أن جميع حركاته تكون متجهة لصيانة مستقبل  
مصر ولتوطيد عرى العلاقات الوثيقة مع عرش الخلافة ،  
وفى الوقت نفسه يجب عليه أن يظهر الفيرة التامة  
والاخلاص فى تأييد حقوق البلاد ويلزم أن يتصف بهذه  
الصفات كل من يتربع من الولاة على الأريكة الخديوية .  
اسماعيل باشا وأسلافه أولئك رشوا غالى باشا

---

(١) كذا « احمد عرابى بك » فى مذكرات عرابى وفى كتاب بلنت .

وفؤاد باشا ومدحت باشا ونائبهم الخائنين في الباب العالي ، وبعد أن أغمضوا عيون أولئك الموظفين المذكورين اجترأوا على ظلم المصريين وفرض الضرائب الثقيلة عليهم ومعاملتهم بالضغط والقسوة ، وزيادة على ذلك فإنهم تداينوا ديونا ثقيلة وجعلوا المصريين يئنسون تحت نير العبودية . واليوم حالتهم في نظر الدنيا تستدعى رافتنا الخاصة بهم ، فالمركز بأكمله في غاية من الضعف ويحتاج إلى البحث الدقيق وراء الدواء الشافي العاجل ، وعليه يهكم قبل كل شيء منع ماعساه أن يؤدي إلى التدخل الأجنبي وألا تحيدوا عن الطريق الحق القويم ولا تصفوا إلى الخلافات التي تسبب الخدعة ، بل يجب عليكم في كل الأحوال منع حدوث المؤامرات الأجنبية التي يقصد منها إثارة الفتن بكل بقطة وهذا هو غاية جلالة السلطان العظمى ...

وبما أننا سنكتب بعضنا في المستقبل يلزمكم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لعدم وقوع خطاباتنا في أيدي الغير ، واسهل طريقة وآمنها يمكنكم اتخاذها الآن هي أن تعطوا رسائلكم إلى الرجل الصادق الأمين الذي يحمل هذا ، وآخر من الشيخ محمد ظافر ، وأزيد على ذلك أنه من الضروري إرسال ضابط سرا يكون عالما بأحوال مصر ويكون بين أحد أصدقائكم الذين تضعون ثقتكم فيهم ليقدم إلى أعتاب جلالة السلطان تقارير مسهبة حقيقية عن أحوال البلاد، هذا وأرجوكم رد هذا بمعرفة الرجل الذي يحمل هذا الخطاب ... في ٤ ربيع الآخر سنة ١٢٩٩ الموافق ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٢ ، ياور جلالة السلطان أحمد راتب « ...

من هذا يتبين لنا أن الصلة كانت وثيقة بين عرابي والسلطان قبل مجيء بعثة درويش، وهو أمر له خطورته



البالغة ، فقد كان عرابي في نظر من يعلمون هذه الصلة من شيعته المدافع عن حرية المصريين وعن حقوق السلطان ضد انجلترا وفرنسا ، في حين ظهر الخديو بمظهر الناقم على المصريين ما يطلبونه من حرية والماليء لسياسة الدولتين المعتدتين وخاصة انجلترا . . . . . ولسوف تكون هذه الصلة أهم ما يدفع به محاميه عنه تهمة التمرد والعصيان يوم يساق هذا المجاهد السيء الحظ الى المحاكمة . . . . .

ولقد اشار عرابي الى أهمية هذه الصلة في تقريره الذي كتبه في السجن قبيل المحاكمة فقال بعد أن أتم تاريخ هذه الصلة الى ما بعد بعثة درويش : « لم يستنكر السلطان أبدا ما فعلنا ، لا في أثناء تلك المفاوضات ولا فيما بعدها حتى وقتنا هذا ، بل ان السلطان أيد أفعالنا بالقول وبالعمل ، فكيف أكون مع ذلك متمردا ؟ ! اليس يعد السلطان في نظر الأمة الانجليزية صاحب السيادة على مصر ؟ !

وانا لا نجد في بيان أهمية هذه الصلة خيرا مما كتبه بلنت في صدها قال : « ان هاتين الرسالتين وثيقتان لهما من عظيم الأهمية التاريخية أنه اذا قدر لمذكراتي ان تطبع يوما فيجب أن تلصقا بها بنصهما وحروفهما ، وانهما لتفسران كثيرا مما سيحدث بعد ذلك في يونيو أثناء بعثة درويش ، وكذلك تقيمان الدليل على أنه اذا كان عرابي أخذ على عاتقه وقتل وأثناء شهور الحرب مسئولية حكم مصر حكما ديكتاتوريا فان ذلك لم يكن بغير مبرر قوى من وجهة النظر الاسلامية ، وهذا المبرر هو أوامر الخليفة امام دينه في أن يدافع عن القطر في وجه الدول الأوروبية . وترينا الوثيقتان كذلك لماذا لم يكن عبد الحميد ميالا في شهر أغسطس الى أن يطلق على

عرايى لفظ المتمرد ، وكيف بلغ من السخف نعته بذلك  
عند المحاكمة ...

وعلى أى حال فينبغى ألا يؤخذ من ذلك أن عرايى قد  
جعل من نفسه أداة للسلطان فى أى شىء يتصل بالإدارة  
الداخلية المستقلة لوطنه ، أن موقفه فى هذه المسألة كان  
ثابتا لا يتزعزع ، فقد كان يكره الترك وكان على وجه  
اليقين يرد بقوة السلاح أى تدخل حربى من جانب  
القسطنطينية ، وأن كتاب الشيخ محمد عبده للدليل قوى  
على صحة هذا الذى أقول (١) ، وهو يشاكل جميع ما أفضى  
به الى عرايى نفسه ... لهذا كان موقفه من بلاط  
ال خليفة موقفا متقلبا عرضة للتغير ، ولقد كان له  
صديقان هناك فى شخص أحمد راتب ومحمد ظافر ،  
ولكن كان له كذلك أعداء أشداء »

نعود بعد ذلك الى بعثة درويش لنبين مبلغ ما كان  
فيها مما نحن بصددده من صلة بين عرايى والسلطان ثم  
لننظر فى الغرض منها وأثرها فى مجرى الحوادث بوجه  
عام ...

لخص عرايى علاقته وعلاقة أشياعه بدرويش فى هذه  
الفقرة التى جاءت ضمن تقريره الذى كتبه فى سجنه  
قال : « وكان أن وصل درويش باشا عند ذلك الوقت ،  
وبعد أن أجرى تحرياته عن مسلك الجيش أعلن أنه يرى  
أن الجيش كان مطيعا دائما وأنه حافظ على النظام العام  
وأنه لا ملامة توجه اليه وبناء على ذلك فتد طلب من  
السلطان نحو مائتى وسام للضباط وللمدنيين ، وطلب  
لى الوسام المجيدى من الطبقة الأولى »

---

(١) يقصد الكتاب الذى أرسله اليه الشيخ محمد عبده بتاريخ ٥  
ابريل يقص عليه فيه حادث المؤامرة الشركسية ، وفيه أظهر الشيخ  
مبلغ كراهية المصريين للاتراك .

وقد أنعم فعلا على عرابي بهذا الوسام الجليل الشأن  
أبرق مستر كارتريت وكيل قنصل الاسكندرية الى  
اللورد جرانفل في اليوم الخامس والعشرين من يونيو  
يقول (١) : « سيدى اللورد ... أخبر الخديو السير  
أوكلند كلفن أن السلطان منح سموه منحة من الجواهر  
علامة على الرعاية وحسن النظرة الى مقامه ، وأضاف  
سموه أن السلطان مع الاسف قد أنعم على عرابي بالوسام  
المجيدى الاكبر ، وأنه أنعم على سلطان باشا بوسام  
رومىلى بيلربى

ولكن الخديو يقرر أن جميع جهود درويش باشا في  
تسكين ثائرة عرابي باشا بالملاينة أو بالقوة قد منيت  
بالفشل التام ، وأن درويش نفسه يتخذ المسألة لهوا  
وهزرا ، ويتمسك عرابى الآن بأن ما يتضمنه هذا الانعام  
الاخير عليه من الرضا والعفو لايدع ثمة ضرورة لان يتخذ  
خطوات أخرى يبرر بها سلوكه ، ويبدو من درويش باشا  
أنه يتراجع عن أن يبذل أية محاولات أخرى للتأثير عليه»

ويتضح من هذه البرقية مبلغ ما وصل اليه توفيق  
من الحقد على عرابى والخوف من نفوذه ، وأنه ينظر الى  
المسألة كلها نظرة شخصية

ولاريب أن توفيقا على الرغم مما أنعم به عليه ، يظن  
الى معنى الانعام على عرابى ، فهو تأنيب عملى لتوفيق  
على صلتته بالدولتين ، وهو فى الوقت نفسه دليل على أن  
السلطان يريد أن يقول انه يرى فى عرابى المدافع عن  
حقوقه فى مصر ...

وقد وصل الوسام ومعه فرمان من السلطان فى اليوم  
الرابع من يوليو وسلمهما الخديو بيده لعرابى ، معبرا

---

(١) مجموعة الكتاب الاثري الانجليزى الخاصة بمصر وهى تحت  
يدى وقد وردت هذه البرقية فى P. II «1882» Egypt No. 17

له عن رضائه عنه وثنائه عليه لاخلاصه في أداء خدماته وانتباهه الى واجبه ، وشكره عرابي شكرا حارا على هذا العطف ، كما أبرق عرابي الى الأستانة يرفع شكره الى السلطان ، وجاءته برقية تتضمن رضاء السلطان عنه وثنائه على حسن سلوكه واخلاصه لواجبه ...

وقد أظهر عرابي كياسة ولباقة في استلام الوسام ، وذلك أنه أبى أن يتسلمه الا من الخديو حتى لا يكون في تسلمه من مندوب السلطان معنى التحدي للخديو (١)

ولم يستشر توفيق في الانعامات جميعا ، وقد وزعها درويش مباشرة على أصحابها باسم السلطان (٢) ظن السلطان أنه يستطيع أن يستعيد نفوذه في مصر بالتفرقة بين الفريقين المتنازعين فيها : توفيق ومن يشايه ، وعرابي وأعوانه ...

لهذا جعل رئاسة الوفد لدرويش المعروف بالقوة وبكراهية العناصر الحرة ، وجعل فيه أسعد مشييره في شئون من يتكلم العربية من رعاياه ومرجعه في دعوة الوحدة الإسلامية ، واتفق الباب العالي وأسعد على « شفرة » خاصة للمكاتبات لا يعرفها درويش ، وأفهم أسعد أن يلاين عرابي ويلقى في روعه أن السلطان راض عنه وعن حزبه كل الرضاء ، فلا بأس عليه مما عسى أن يجد من غلظة من جانب درويش ، وطلب كذلك الى أسعد أن يطلع السلطان على حقيقة شعور المصريين وخاصة علماء الأزهر ، فكان أسعد في الواقع رقيبا على درويش الذي لا يأمن السلطان أن تصله هدايا توفيق ... ويذكر جون نينيه فيما كتبه عن مذبحة الاسكندرية وقد مهد لها بالكلام عن بعثه درويش أن درويشا كانت

(١) محضر التحقيق مع عرابي اثناء محاكمته

Blue Books E. No. 17 — P. 48

(٢)

لديه أوامر سرية بأن يعمل على خلع توفيق إذا أمكنه ذلك توطئه :نعميين حلیم ...

وأرسل الخديو مندوبا يستقبل الوفد في الميناء وهو ذو الفقار باشا ، وأرسل عرابى رسولا بصفته المهيمن يومئذ على الحكومة إذ كان وصول الوفد بعد سقوط البارودى بعشرة أيام ، وقد أحسن درويش لقاء المندوبين جميعا ، الأمر الذى أسخط الخديو أشد السخط ...

وخرج درويش من الميناء يقصد سراى رأس التين ، فاذا بالتوارع التى مر بها هو ووفده ملأى بالمصريين وقد جاءوا يحيون الوفد ، وترجمت لدرويش بعض الهتافات مثل قول المنادين (١) : « اللايحة انلايحة » ، ورد الباقيين : « مرفوضه مرفوضة » .. ومثل قول المتظاهرين : « أبعدوا السفن الاجنبية » ..

ووقعت في نفس درويش ووفده موقعا مهيبا هذه المظاهرة القوية ووجدوا أنفسهم أمام دليل قوى باهر على قوة الحركة الوطنية في مصر ...

وكان عبد الله نديم قد سافر الى الاسكندرية قبيل وصول الوفد فخطب في الناس خطبا حماسية ، كانت عظيمة الاثر في اذكاء الروح الوطنية واثارة شعور الوطنيين على المذكرة المشتركة والسفن الاجنبية ...

وزار الوفد ضريح السيد البدوى بطنطا وهو في طريقه الى القاهرة . وقد سافر اليها في اليوم التالى بقطار خاص ، وفي القاهرة نزل الوفد بسراى الجزيرة ...

ومما يذكره جون نيينه عن هذا السفر قوله : ان أعوان الخديو أرادوا أن يحولوا بين مندوب عرابى وبين الركوب صحبة درويش في عربته ، فأخذه درويش

---

(١) يقصدون المذكرة المشتركة .

بذراعه وأدخله معه في العربية ، وكذلك يذكر نبيه أن  
جماعات من المصريين حيت الوفد في كل من دمنهور ،  
وكفر الزيات وطنطا ...

وتلقاهم الخديو سراي الاسماعيلية مرحبا مظهرا  
عظيم الحفاوة بهم ، ثم رد الزيارة لدرويش باشا سراي  
الجزيرة وهناك أظهر له استيائه من حسن لقائه مندوب  
عراي ، ومن جفاء لهجته في مخاطبته اياه في سراي  
الاسماعيلية فطيب درویش خاطره مظهرا أنه ما جاء الا  
لتثبيت سلطة الخديو ...

وأظهر درویش في القاهرة عظيم دهشته وشديد  
نفوره مما رأى من حماس الناس وجراتهم وخاصة علماء  
الازهر الذين أظهروا عطفهم الشديد على عراي ومبادئه  
ولم يستثن منهم الا الشيخ الامبای شیخ الجامع الازهر  
والشيخ العباسي والشيخ البحراوي والشيخ السادات (١)  
الذين أثروا الانحياز الى الخديو ...

وذهب وفد كبير من العلماء الى درویش باشا ،  
يحملون مكتوبا موقعا عليه منهم ومن عدد عظيم من  
الناس يطلبون فيه رفض الانذار الاجنبی وخاصة ما جاء  
فيه عن ابعاد عراي ...

واغلظ درویش في مخاطبة الشيخ الذي تكلم باسم  
العلماء وهو الشيخ محمد خضر وانتهره قائلا: « أمسك  
لسانك فما جئت هنا لاستمع الى النصائح من أحد ،  
وانما جئت الأمر أو امرى » ، ثم صرفهم في جفاء وخشونة  
وفي الوقت نفسه أعطى الحلة العثمانية لشيخ الاسلام  
ولبعض العلماء ...

وحسب درویش أنه بذلك أخاف العلماء ، ولكن ما  
لبث أن تبين له خطاه ... فقد اجتمع طلاب الازهر في



اليوم التالي بسبب ما علموا من اهانة علمائهم ، وتعددت الاجتماعات في جهات من المدينة ، وبدأ الناس يظهرون خوفهم وسخطهم على الوفد التركي ، وخاصة ان عددا كبيرا من الاعيان ارسلوا اليه يحتجون على مسلكه نحو رجال الدين ...

ورأى درويش ان عليه ان يصلح ما افسد ، وأيقن ان لهجة الامر والنهي لم تعد تجد في مصر جوا ملائما لها ، وفطن الى انه تلقاء أمة جادة ، خلعت منذ يوم عابدين عن اعناقها اغلال العبودية ومضت قدما في سبيل الكرامة القومية ...

وكان الرجل غافلا يظن أنه كفيل - وهو مندوب السلطان - أن يلقي الرعب في قلب كل امرئ مهما علا مقامه ، وفاته أن مصر اليوم غيرها بالامس ، لان فيها حركة وطنية تغلغلت في أقاليمها وشملت جميع طبقاتها .. وفي يوم السبت الموافق اليوم العاشر من يونيو، أرسل درويش في طلب عرابي ومحمود سامي ، وكان حتى ذلك الوقت يظهر أنه لا يحب ان يراهما ...

وقد اورد جون نينيه حديث هذا اللقاء واخذه عنه بلنت قائلا انه يشق في صحته كل الثقة ، اما نينيه فيذكر أنه اخذه عن عرابي (١) ، وأنه سمع مثله من البارودي على أن الشيخ محمد عبده قد ذكر عن هذا اللقاء ما لا يختلف في جوهره عن حديث جون نينيه .

قال جون نينيه : « أظهر درويش المودة لعرابي ولسامي وأجلسهما بجانبه تكريما لهما ثم قال : نحن هنا جميعا أشبه باخوة ونحن أبناء السلطان ، وأنا بلحيتي هذه البيضاء أقوم منكم مقام الاب ، وهدفنا

(١) اهل عرابي الحديث من بعثة درويش اهملوا ملحوظا فيهم .  
اليها الا في عبارة مقتضية في مدركاته المخطوطة

جميعا واحد وهو مقاومة الدخيل والعمل على رحيل الاساطيل ، التى هى اهانة للسلطان وتهديد لمصر ، ثم ذكر أنه يجب عليهم أن يعملوا جميعا لهذه الغاية وخاصة عرابى والوزارة ليظهروا حماسهم نحو مولاهم وان خير ما يفعل فى ذلك هو اعتزالهم مناصب الجندية ولو فى ظاهر الامر فقط ، ولكى يرضى عرابى السلطان ينبغى أن يسافر الى الآستانة ليقيم هناك بعض الوقت وأجاب عرابى على ذلك بقوله : أنه مستعد لان يعتزل ولكن الظرف دقيق ولما كان قد أخذ على عاتقه تبعة عظمى هى حفظ النظام والامن فانه لا يرضى بأنصاف الحلول ، وأنه اذا اعتزل فانما يعتزل حقا ، ولكنه لن يفعل ذلك الا اذا أخلى كتابة من كل تبعة ، لانه لا يقبل أن يكون مسئولا عن أشياء لم تكن له يد فيها ، لقد اتهم بأساءة التصرف والاستبداد والارهاب وغير ذلك ، ولذلك فهو لا يدع منصبه الا اذا أبرئت ذمته كتابة من جميع هذه التهم ، وسوف يذهب الى القسطنطينية بعد هدوء الحال فردا عاديا ليقدم ولاءه للسلطان . . . ولم يكن درويش يتوقع هذه الاجابة ولذلك فقد كرهها ، وتغير وجهه ، ولكنه قال : دعنا نعد المسألة منتهية ولتبرق فى الحال الى محافظة الاسكندرية وقائد حاميتها أنك اعتزلت ما أنت مكلف به ووضعته فى يدى وانك وكيلى منذ اليوم ، وعندما يجتمع القناصل والخديو يوم الاثنين فى عابدين سأعطيك ما يعفيك من كل تبعة . . . ورفض عرابى رفضا باتا أن يجيبه الى ذلك قائلا : انه ما لم يصل اليه هذا الاخلاء فانه محتفظ بمنصبه وبمسئوليته . . .

ولم تقدم فى هذا الاجتماع قهوة أو سجائر ، وقد أكد لى محمود سامى بعد ذلك هذا الذى أورده عن الاجتماع « . . .

نجد في هذا الحديث شواهد جديدة على بسالة  
عرايى وصراحته في القول ، وعدم فراره من المسئولية ،  
وحضور ذهنه وحسن تخلصه ، وفطنته الى ما يدور  
حوله ، وما أبعد ذلك عما يرميه به الجاهلون والمبطلون  
من سذاجة وجهل وتهور وعدم دراية بالامور ...

ولقد شك الخديو في نيات درويش وأوجس في نفسه  
خيفة منه ، فمنحه خمسين ألفا من الجنيهات فضلا عن  
جواهر تساوى نصف هذه القيمة ، وقد أبدت كثير من  
المصادر نبأ هذه الرشوة ، وما كان أغنى توفيقا عنها  
فان درويش لم يكن في وسعه أن يصنع بالخديو شيئا  
ولم يستطع أن يزعج عرايى من مكانه ...

وقد أرسل صابونجى (١) رسالة من القاهرة بتاريخ  
اليوم الحادى عشر من يونيو الى بلنت فى انجلترا ، وجاء  
فى هذه الرسالة أنباء لها أهميتها عن الحال يومئذ بوجه  
عام ...

فمن ذلك الذى ذكره صابونجى ، ان الشيخ عيش  
أحد علماء الازهر أفتى بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكما  
للمسلمين بعد أن باع مصر للأجانب باتباعه ما يشير به  
القنصلان ، ولذلك وجب عزله ، وان مصر تؤيد عرايى ،  
الأقباط والمسلمون على السواء ، وليس يخرج على عرايى  
من المديرين وعددهم أربعة عشر الا ثلاثة ، وان الشيخ  
الامبائى شيخ الاسلام ، تمارض كيلا يخرج فى حضور  
درويش بين الخديو والحزب الوطنى ... وكذلك ذكر  
صابونجى أن عرايى يصمم على الجهاد والمقاومة الى آخر  
رمق من حياته قائلا : « اننا اذا متنا جميعا فسوف

---

(١) هو القس لويس صابونجى ، كان سكرتيرا وصديقا لبلنت ، وكان  
يسرف الانجليزية وقد رافقه الى انجلترا ثم ارسله الى مصر قبل  
يوم سفر درويش الى القاهرة .

يدخلون بلدا خربة وسوف يكون لنا مجد الاستشهاد في  
سبيل وطننا » .



ويشير صابونجي الى موقف سلطان فيقول انه اعتزل  
عرايى وانحاز الى توفيق منذ مجيء السفن ، وليس مع  
سلطان من النواب الا تسعة وهم جميعا ومعهم الخديو  
يتهمون بالخيانة ويطلق عليهم اسم الخونة ...

والازهر علماءه وطلابه ما عدا أربعة من شيوخه في  
جانب عرايى والحركة القومية ، ويخطب فيهم نديم خطبا  
حماسية مستشهدا بالقرآن والحديث وأحداث التاريخ  
والناس جميعا يستنكرون المذكرة المشتركة حتى ان  
الصبية في الأزقة والنساء في نوافذ المنازل يرددون  
التهتاف الذى بات مألوفا وهو : « اللايحة .. اللايحة ..  
مرفوضة .. مرفوضة » ...

ولندع الكلام الآن عن درويش ، فسوف تبين لنا  
قاصده ونواياه فيما يأتى من الحوادث حتى يرحل هو  
وفده من مصر فى اليوم التاسع عشر من شهر يوليو  
سنة ١٨٨٢ ، أى بعد ثمانية أيام من الاعتداء القادر  
على البلاد ...

## مأساة الإسكندرية

بدأت هذه المأساة في يوم الأحد الموافق الحادى عشر من شهر يونيو سنة ١٨٨٢ فى صورة مشاجرة بين أحد الوطنيين واسمه السيد العجان وبين مالطى من ساكنى الثغر ، هو من رعايا الانجليز ...

كان الوطنى صاحب حمار ركبه المالطى وقتا طويلا متنقلا من مقهى الى مقهى حتى انتهى به المطاف فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر فى حانة قريبة من « قهوة القزاز » على بعد خطوات من مخفر اللبان بآخر شارع « السبع بنسات » ، وظهر منه أنه لاينوى دفع أجرة ركوبه ، فلما طالبه صاحب الحمار ، لم يدفع له الا قرشا واحدا فاختلفا على الاجر واستل المألطى سكيننا وطعن به صاحب الحمار عدة طعنات فأرداه قتيلًا ...

وخف رفاق القتل ليمسكوا بالقاتل ولكنه هرب الى بيت قريب ، وسرعان ما رأى الوطنيون الذين تجمعوا عقب الحادث ، طلقات الرصاص تتهاوى عليهم من بعض النوافذ والابواب القريبة ، فسقط بعضهم بين قتيل وجريح ، واجتمع الوطنيون للانتقام ، فأخذوا ما اتفقوا لهم من العصي والحجارة والكراسى وانهالوا على كل من يصادفهم من الاجانب ضربا لا يخشون أى عاقبة .. واستمرت المعركة حتى الساعة الخامسة مساءً

وكان الوطنيون يستنفرون اخوانهم للقتال صائحين :  
« جاي يا مسلمين ! جاي ! بيقتلوا اخواننا » (١)

ونهبوا بعض الدكاكين ، وامتدت الفتنة الى الشارع  
الابراهيمى والى شارع الهماميل وشارع المحمودية والى  
جهة الجمرك والمنشية وشارع الضبطية (٢) وسقط في  
هذه الشوارع جرحى وقتلى من الاجانب والوطنيين .  
وقد ذكر جون نينيه ، الذى شهد المعركة بنفسه ،  
أن عدد القتلى بلغ ٢٣٨ ، منهم ٧٥ من الوطنيين و ١٦٣  
من الاجانب ...

كان لهذه المأساة خطر أى خطر في الظروف القائمة  
حينذاك ، وقد حاول كل حزب أن يتهم الآخر بتدبيرها ،  
فالانجليز والخديو يعزونها الى الوطنيين ، وهؤلاء يعزونها  
الى الانجليز والى عمر لطفى محافظ المدينة ومن ورائه  
توفيق ...

وظل الحال كذلك حتى قدم عرابى للمحاكمة بعد التل  
الكبير فما استطاع خصومه أن يثبتوها عليه وهم  
أصحاب الجاه والنفوذ ..

ورمى محاميه مستر برودلى بالتهمة خصوم عرابى  
من المصريين والى ذلك ولعله انما أراد به أن يبعد  
الشبهة عن بنى جنسه من الانجليز ...

وفي سنة ١٨٨٣ ، تجددت قضية هذه المأساة في  
مجلس العموم البريطانى ، اذ تقدم اللورد راندلف  
تشرشل يحمل حملة عنيفة على وزارة جلادستون ،  
فاتهم الخديو ومحافظ الاسكندرية عمر لطفى بأنهما  
المدبران للمأساة ، وقد جمعت أدلة اتهمه في كراسة من  
كراسات الكتاب الازرق الانجليزى هى الكراسة « مصر

(١) أثبت هذه العبارة جون نينيه في كتابه بنطقها العربى  
(٢) رأس التين .



رقم ٤ سنة ١٨٨٤ .

ويجدر بنا أن نتبين وجه الحق في هذه المأساة ، لما كان لها من عظيم الخطر في مجرى الحوادث ، فننظر هل كانت مبيتة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن بيتها ؟ وماذا كان غرضه من هذا الفعل الاثيم ؟ ..

كان اجماع الانجليز عقب المأساة على أنها مبيتة ، وذلك لانهم أرادوا أن يلصقوها بالحزب الوطنى ، فلما عجزوا عن ذلك راح كتابهم ومؤرخوهم ومنهم كرومر يقولون ان الحادث من الحوادث التى تقع فى المدن كل يوم وانه ابن وقته فلا تبيت هناك ولا غدر من أحد... .

اما ان هذا الحادث فى ذاته ابن وقته فذلك ما يقبله العقل فى غير صعوبة بل ما يرجحه على الفرض الثانى ، وأما ان الفتنة على الصورة التى ذكرناها كانت كذلك بنيت وقتها ، فذلك ما يصعب تصويره ، على أن المسألة ليست مسألة تصور ، إنما هى مسألة حقائق ، فلننظر فيما يحيط بها مما يصح أن يساق مساق الحقائق أو مساق الأدلة الصحيحة ...

قرر مستر جويس المهندس الانجليزى ، أن أحد باعة المخضر قال له صباح السبت : اشتر وكل فان النصارى سيدبحون غدا ، ويقول هذا المهندس أن مثل هذه العبارات قيلت لغيره من الاجانب ...

وقال انجليزى آخر يدعى هيوارت : « أعتقد كل الاعتقاد بناء على ما لدى من معلومات استقيتها من عدة مصادر أن مذبحه ١١ يونية كانت نتيجة لخطه مدبرة » . وقال ثالث يدعى الكسندرفيس : « بناء على معلومات تلقيتها تباعا ، كونت رأيا قاطعا هو أن المسألة قد دبرت من قبل وقد بدأت فى عدة أماكن فى وقت واحد تقريبا . وقال مستر جورج بلافاتشى : « ان معركة يوم الاحد

مع الماطيين تلك المعركة التي دبرها من قبل أعوان البوليس  
قد أدت الى تلك المناظر العنيفة المرعبة مناظر الفتك  
والقتل التي كنا نحن شهودها وضحياتها ، وان هذه  
الحقيقة الا وهي انبعاث الاضطرابات من ثلاثة امكنة  
مختلفة لدليل على أنها كانت مدبرة من قبل « ... »

ويقول فيلبوليس : « كنت في السوق يوم ٨ يونية  
الساعة الثالثة بعد الظهر فشاهدت كثيراً من البدو  
يحملون بنادق ، وكانوا يضعونها في مخازن لتخفظ فيها  
كما يبدو ، وفي اليوم التالي بينما كنت جالسا في مقهى  
اقترب مني أحد العرب وهو صديق لي وطلب الى أن  
أخذ حذري ، لان العرب كانوا سيقتلون الاجانب اما  
في ذلك اليوم أو في اليوم الذي يليه » .

وكتب لورد جرانفل الى نائب قنصل الاسكندرية  
مستر كارتريت يقول : « أناني مسيو سينادينو أحد  
اعضاء مصرف يوناني بالاسكندرية ان كل ما لديه من  
المعلومات يميل به الى الاعتقاد بأن الاضطرابات الأخيرة  
بالاسكندرية كانت من قبل مدبرة » ... »

وكتب اليه بعد ذلك يشير الى هذه الرسالة مضيها  
الها قوله : « لقد ذكر ان رسالة أرسلت الى كل قنصل  
من الاجانب كي يحضر الى بيت المحافظ ، وانهم بناء  
على ذلك اخترقوا المدينة في وقت الاضطرابات ، وقد  
تبين من البحث بعد ذلك ان رسالة كهذه لم يرسلها  
محافظ الاسكندرية »

ويقول دكتور جويس : « اني أرى ان هذه المذبحة  
دبرت من قبل ، وليس هذا شأنها فحسب ، بل لقد  
نفذت في مهارة ، وان الذين خاضوا غمارها كانوا في  
الوقت نفسه يبحثون عن أسلاب ، ولقد جمعوا في الواقع  
بين العاملين في وقت واحد »

ويقول مستر ستونتون : « عند نزولى الى البر  
ومرورى فى عربة بشوارع المدينة رايت الناس فى الطرقات  
المؤدية الى الحديقة العامة هادئين جدا لا يبدو عليهم شىء  
من الشر ، ولما بلغتنا انباء الاضطرابات بعد ذلك بثلاث  
ساعات وشهدت مئات من الوطنيين مسلحين جميعا  
بالعصى والمدى ، استقر رأيى على أن الفتنة مدبرة »

وقرر مستر جروسجيان ، ذلك الذى اختاره اللورد  
جرانفل ليجمع أدلة تفضى الى ادانة عرابى باشا ، أنه  
وصل الى أن الحوادث مدبرة ولكنه لم يصل الى شىء  
يلصقها بعرابى (١) ...

نورد بعد ذلك بعض ما قاله جون نينيه ، وهو رجل  
سويسرى أقام بمصر أكثر من أربعين سنة منذ أن قدم  
فى عهد محمد على فى عمل يتصل بزراعة القطن ، وقد  
خالط أهل مصر من جميع الطبقات وعرف أحوالها  
معرفة وثوق كأنه من أهلها ، وقد شهد مأساة الاسكندرية  
وكان يتنقل فى أركان شوارعها أثناء القتال متباعدا حذر  
الفيلة ، قال بعد أن وصف ما أحدثه مجيئ السفن من  
هياج : « لقد نظر الاوربيون الى ذلك كأول عمل من  
أعمال الحرب وأصبح سلوكهم نحو الوطنيين ينطوى على  
التهديد... وقد أزعج الهياج الاوربيين وخاصة الانجليز  
والمالطيين فاتصلوا بقناصلهم يسألونهم عن الوسيلة التى  
يحمون بها أنفسهم اذا وقع الاضطراب ؟ وقد أخبرهم  
مستر كوكسن بأن عليهم أن يحموا أنفسهم ، وقد علم  
فى أواخر مايو أو فى أوائل يونيو أن أسلحة أرسلت من  
اليونانيين فى الاسكندرية » . وقال جون نينيه يصف

---

(١) وردت هذه الأقوال جميعا فى كراسات الكتاب الأزرق الانجليزى  
وقد ذكرها اللورد تشرشل أثناء اتهامه الخديو وعمر لطفى مستخرجا  
اياها من مجموعة الكتب الزرق الخاصة بمصر .

القتال : « ولكن على بعد نحو مائتي باردة كان الدهماء يتحركون كالبحر ورأيت بطلقات نارية تنبعث من بعض النوافذ ، واتجه القتال سريعا الى حيث كنا نقف ، ولذلك تراجعنا حتى اذا كنا على مقربة من مدرسة لازارست ، رأيت أمام أحد المقاهي عددا من اليونانيين مسلحين بالفدارات وقد أخذوا يطلقونها على الناس في غير تمييز عقب مرورنا بهم مباشرة . . . . وعند ذلك رأيت عربية في داخلها أحد رجال المستحفظين جريحا أو ميتا ، ولعله هو الذي طاف بالندير . ذلك لانني رأيت في أثره عددا من المسلمين وبعضهم من السود والبدو قادمين من عدة جهات يحملون عصيهم . . . ثم اتسع نطاق القتال واطلاق النار واتخذت طريقى الى بيتى »

ويقول أحمد رفعت بك ، وهو من كبار الموظفين وقد كان السكرتير العام لمجلس الوزراء في وزارة البارودى : « ان هناك شيئا واحدا يحمل على اليقين وذلك ان هذا الحادث كان مدبرا من قبل ، فقد قام الدليل على ان عددا من «النباييت» قد وزع على الدهماء قبل يوم ١١ يونية بأيدي بعض العناصر الخفية ، وان هذه النباييت ظهرت في وقت واحد في عدة أماكن في المدينة في نفس اللحظة التي قتل فيها أحد المالطيين حمارا لسبب تافه (١) » ويقول الشيخ محمد عبده : « في هذه الحالة رأى مستر كوكسن نازلا من بيت أحد المالطيين بلباس ملكى ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربا خفيفا عندما أراد أن يركب » (١)

يضاف الى ما سلف برقية مالت في أواخر مايو التي

---

(١) أثبت لورد تشرشل تقرير أحمد بك رفعت في اتهمته . . وقد أكد رفعت كلامه في محضر استجوابه عند محاكمته .  
(٢) ذكر ذلك جون نيينه كما ذكره بلنت . .

سبق أن أشرنا إليها وهي قوله : أن تصادما سوف يقع قريبا بين المسلمين والمسيحيين (٢) ، ولقد أشار الشيخ محمد عبده الى هذه البرقية في تلك الورقة التي كان يدون بها بعض ملاحظاته بقوله : « مسألة تسليح الأجانب وإيهام مستر كوكسن أن حوادث ستحدث » ...

هذه كلها أدلة تقطع معها أن هذه المأساة كانت مبيتة قبل وقوعها ، وأنه لو لم يكن حادث السيد العجان ، والمالطى ، لوقعت المأساة عقب أى حادث من نوعه أو من أى نوع آخر ...

وإذا كانت المأساة مدبرة على هذه الصورة فجدير بنا أن ننظر من دبرها ، وسبيلنا في ذلك أيضا أن نورد الحقائق التي تنهض أدلة على ما نذهب إليه ...

ولما كان عمر لطفى باشا هو محافظ المدينة وقت وقوع المأساة فخليق بنا أن نبدأ به فنستعرض ما كان من مسلكه أثناء ذلك الحادث ، فمن هذا يتبين لنا مبلغ ما يقع على كاهله من تبعه ، أن كان الأمر فيما يتصل به أمر خطأ أو تقصير ، ومبلغ نصيبه من الجريمة أن كان أمر إجرام وتدبير ...

وان أول ما نذكره عن عمر لطفى أنه كان بصفته محافظ المدينة المسئول عن الأمن والنظام فيها كما نذكر أنه منذ استقالة الوزارة لم يكن لاحد عليه من سلطان الا الخديو ، وذلك حسب الأمر الذى أصدره الخديو عقب استقالة الوزارة بعرض ما كان من اختصاص وزارة الداخلية على القصر ...

ونذكر بعد ذلك أن عمر كان من أنصار الحزب الوطنى حتى منتصف شهر مايو ، ثم انحاز الى الخديو فيمن انحازوا اليه بعد ذلك ، والدليل على ذلك أن الخديو

عرض عليه منصب وزير الجهادية بعد سقوط وزارة البارودى .. على أنه ظل الى ما بعد سقوط الوزارة يتظاهر بالولاء للحزب الوطنى فيحضر حفلات هذا الحزب بالاسكندرية ويحرص على الصلة بكبار رجاله ...

وتذكر بعض المصادر الهامة نبأ برقية من الخديو الى عمر لطفى على أعظم جانب من الخطورة بعربها فيما يأتى « لقد ضمن عرابى الامن العام ونشر ذلك فى الجرائد ، وقد تحمل مسئولية ذلك أمام القناصل ، فاذا نجح فى ضمانه ، فان الدول سوف تثق به وسوف نفقد بذلك اعتبارنا ، يضاف الى ذلك ان أساطيل الدول فى مياه الاسكندرية وان عقول الناس فى هياج وان الحرب قريبة الوقوع بين الاجانب وغيرهم ... والآن فاختر لنفسك هل تخدم عرابى فى ضمانه أم هل تخدمنا » (١) .

وكان عرابى فعلا قد أخذ على عاتقه مسئولية الامن بعد اعادته الى وزارة الجهادية وأعلن ذلك رسميا فى الصحف بعد الاتفاق عليه مع الخديو ...

ويذكر عرابى باشا فى تقرير كتبه لبلنت قوله : « قبل كل شئ أرسل الخديو الى عمر لطفى محافظ الاسكندرية ليحضر الى القاهرة بقطار خاص يوم ٩ يونية ، وقد تحدث معه الخديو عقب وصوله مدة طويلة ، وأعطاه ما يلزمه من التنبيهات لاحداث فتنة فى الاسكندرية » .

وكانت شرطة المدينة تحت رئاسة عمر لطفى ، وقد اشترك هؤلاء فى الجرائم بدل أن يعملوا على القضاء عليها

---

(١) أكد أحمد رفعت هذه البرقية وقد ذكرها رندلف تشرشل فى اتهامه ، كما أكدها بلنت فى كتابه ، وذكرها الشيخ محمد عبده ويذكر برودى فى رد منه على كتاب من تشرشل أن اثنين من المسجونين السياسيين أثناء المحاكمة ذكرا له هذه الصلة وأن أحدهما عرفها . ن أحد موظفى التلغراف بالقصر نفسه ..



كما يقضى بذلك أول واجب عليهم ، واشتراك الشرطة في المأساة ثابت من تقارير أشخاص لهم خطرهم ومن هؤلاء مستر جروسجيان السالف ذكره ، وقد كانت مهمته كما اختاره مالت بإشارة من جرانفل أن يجمع الأدلة على اشتراك عرابي في الجريمة ، وقد قال جروسجيان ان الشرطة اشترت قبل الحادث بأيام قليلة عددا كبيرا من النبايت وانها وزعتها على عدد من سفلة البدو ، وكان توزيعها من بيت قريب من مقر الضبطية ، ولم تتخذ اجراءات ضد موزعي تلك النبايت... كما يذكر جروسجيان أن عشرة من الاطباء الاجانب قرروا أن جراح المصابين جميعا كانت اما من النبايت ، واما من الحراب ، وكانت هذه هي أسلحة الشرطة ...

وقرر مستر جويس المهندس بالاسطول الانجليزى : « ان المستحفظين أو الخفراء قد أخذوا بنصيب فعال في الفتنة ، فكانوا يقتلون المسيحيين حين لا يفعل الوطنيون ذلك ، وينظرون في سكون في حالة اعتداء الوطنيين » .

وذكر مستر هيوارت وهو من رجال المال وقد اقام سبعة عشر عاما في الاسكندرية : « ان الشرطة بدلا من ان تقضى على الفتنة عملت على زيادتها ، وان معظم الجراح كانت من أيديها ، وانها كانت توزع النبايت على العرب وان بعض الاوربيين كانوا يلجأون الى الضبطية ، فكانوا يذبحون على مقربة منها أو بداخلها ، وانه لولا حضور الجيش في النهاية لتفاقم الخطب وان الاجانب يدينون بأرواحهم لرجال الجيش ...

ولقد وقف عمر لطفى موقفا سلبيا من هذه الاحداث يتضح ذلك في قول جون نينه : « تصادف أن قابلت عمر لطفى في الساعة الثالثة ، وكان يمشى بملابس عادية ومعه بعض رجال الشرطة فسألته : لماذا لم تفعل شيئا

لايقاف الفتنة ؟ فقال : انه كان مع القنصل الانجليزى وقد اعتدى عليه ، فقلت : ولماذا لم تذهب بملايسك الرسمية وتستصحب نحو خمسين رجلا من رجال الشرطة الفرسان لتقضى على الفتنة ؟ فأجاب بأنه لم يعثر على قنديل رئيس الشرطة ، فسألته : ولماذا لم يفعل الجند شيئا ؟ فقال : انهم لم يتلقوا أوامر فلا يستطيعون التحرك فسألته : وماذا فعل القناصل ؟ فقال : انهم عقدوا اجتماعا ، فقلت : ولماذا لم تبرق بما حدث الى الخديو والى عرابى باشا ؟ فأجابنى فى خشونة قائلا : « وما شأنك والمسألة عن هذا ؟ » .

ويقول روئستين : « ابتدأت الفتنة حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر واستمرت حتى الساعة الخامسة . حدث هذا كله ورجال البوليس كانوا تارة لا يفعلون شيئا وتارة يشتركون فى الفتك والقتال ، أما عمر لطفى فكان فى أثناء ذلك قد استحوذ على مكتب التلغراف ليكون على اتصال بالخديو ، ولم يخبر سليمان سامى قائد الحامية بشيء عن الفتنة الا بعد مضي الساعة الرابعة . وحتى فى هذه الساعة قد أمر بأن يقود الجنود عزلا من السلاح على أن الرجل تولى الأمر بنفسه فبرز فى الساعة الخامسة وأحمد ثورة المذبحة »

ويقول عرابى : « ان عمر باشا وهو المحافظ لم يرسل الى أى نأبأ عن الحادث مع أنه يعلم انى اخذت على هاتقى حفظ الامن والنظام فى البلد كله »

وفى الوقت نفسه كانت الصلة بين عمر لطفى وتوفيق مستمرة أثناء الحوادث كما يشهد بذلك أحمد رفعت بناء على ما وصل الى علمه من موظفى التلغراف بالقصر ولقد كتب وهو فى السجن انه يستطيع أن يثبت ذلك لكنه بالضرورة لم يتمكن من شيء ...

وقرر كذلك جون نينيه أن مصلحتي التلغراف في الاسكندرية والقاهرة قد شغلتا طوال الوقت بالاتصال بين الخديو وعمر لطفى .

ويقول الشيخ محمد عبده في تقرير له كنبه في منفاه بسوريا : « حفا ان أكثر من اتهموا ومن قبض عليهم بعد الحادث بيوم كانوا يصيحون بقولهم : « لا لوم علينا فان سعادة المحافظ نفسه هو الذى كان يأمرنا بأن نضرب وأن نسرق » (١)

وجاء كذلك في تلك الورقة المرقمة التى كان يثبت بها ملاحظاته قول الاستاذ : « وعلى القرب من زيزينيا رؤى عمر لطفى فسأله سائل : كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك ؟ فقال : لست بقائد وهذا لا يعنينى... فسأله : ولماذا لم تحضر بلباسك الرسمى على حصانك شاهرا سيفك فى حراسة خمسين من عساكر المحافظين وبذلك كان ينتهى الامر ؟ فأجابه : انصرف ليس هذا من شأنك وهل أنت محافظ البلد ؟ » ..

وجاء فيها أيضا قوله : « لم يصل الخبر عرابى الا الساعة الرابعة والرابع بعد الظهر مع ان القليل من موظفى التلغراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت للعمل الا فى تلغرافات المحافظ ، حتى ان رسالتين هامتين من أحد الميرالايات فى الاسكندرية لم تقبلتا لاشتغال الكثرة بتلغرافات المحافظ »

وقوله : « ذهب نينيه عند قنصل روسيا وحدثه بما رآه من المحافظ فتعجب وقام للمخاطبة مع اخوانه القناصل ، وبعد ذلك كتب للخديو ودرويش وعرابى ، وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر »

(١) عرشنا هذه العبارة من كلام الشيخ عن تقرير تشرشل الذى احتواء الكتاب الازرق رقم ٤ سنة ١٨٨٤ مصر .

وقوله : « سليمان سامى كان مستعدا لارسال  
العساكر اذا ورد له الامر من نظارة الجهادية ولكن لم  
يكتب أحد بذلك الى النظارة لان الامر بيد المحافظ » .  
وقوله : « عمر لطفى باشا طلب انزال جند انجليز  
لعجز عرابى عن حفظ الامن » .

وقال أحمد رفعت : « ولما كنت فى الاسكندرية بعد  
الحادث باثنى عشر يوما سمعت الناس يقولون فى صوت  
واحد : ان المحافظ عمر لطفى هو الذى أدى بتفاقم  
الامر الى هذا الحد لانه كان حاضرا ولم يصدر أى امر  
لايقافه »

هذا ما يتصل بموقفه السلبى من الاحداث ، ذلك  
الموقف الذى ينطوى على أشد الريبة ، وانه ليصعب على  
المرء أن يتصور أن محافظا فى مدينة ما يرى القتال بين  
الناس ثم يقف منه مكتوف اليد كما وقف عمر لطفى من  
حوادث الاسكندرية ، ثم لا يتهم بأنه ان لم يكن مدبر  
الجريمة ، فهو على الاقل راض عنها لانها جاءت وفق  
ما يريد ...

على ان جون نينيه يذكر نبأ عظيم الخطورة عن هذا  
المحافظ ويقول انه سمعه من سكرنير سيمور أدميرال  
الاسطول ومؤداه ان عمر لطفى ذهب الى ذلك الادميرال  
فى قارب بعد المأساة بأربعة أيام وطلب اليه أن ينزل  
جنودا بالاسكندرية لان عرابى لن يقوى على حفظ الامن  
وقد رأينا أن الشيخ محمد عبده يشير الى شىء مثل  
هذا فى مذكرته ، كما ان أحمد رفعت بك يذكر مثل  
هذا النبأ فيقول : ان الخديو وقت الحادث أبرق الى  
لطفى أن يستعين بجنود من الاسطول لا بفرق من الجيش  
المصرى ، كأنما يستعجل توفيق الاحتلال ويخشى أن  
تفلت الفرصة من يده .

ومن أخطر ما يتصل بموقف عمر لطفى أنه كان يعلم قبل المأساة أن الأجانب يسلحون أنفسهم ، ثم لم يتخذ أى إجراء احتياطى لما عسى أن يؤدى إليه هذا التسليح ، ولا هو أبلغ عرابى بشيء من هذا أو أبلغ الخديو ليتصل بعرابى ، وكان علمه بهذا التسليح حقيقة ثابتة ، فقد ذكر كوكسن فى رسالة منه الى مالت فى اليوم السادس من يونية أنه يعد العدة للتسلح ، ثم قال : « ويصح أن أذكر أن محافظ المدينة زارنى منذ أيام وكان معى بعض زملائى وأبلغنى أنه علم أن الأجانب يسلحون أنفسهم » (١) ولننظر بعد ذلك فى موقف الخديو من هذه المأساة ، ولنبين ما عسى أن يكون من صلة بينه وبين عمر لطفى ، وما عسى أن يكون من مغزى لهذه الصلة بينهما ...

ذكر اللورد راندلف تشرشل فى قرار اتهامه الذى أثاره فى مجلس العموم البريطانى فى سنة ١٨٨٣ ، أن الخديو توفيق ، اتصل ببعض البدو فى مديرية البحيرة وخاصة قبيلة أولاد على ، وذلك عن طريق مدير الاقليم ابراهيم توفيق ، وكان الخديو يرمى الى غرضين : اتخاذ هؤلاء البدو قوة له يقاوم بها قوة الجيش ، ثم الاعتماد عليهم فى أحداث فتن وقلقل تظهر الوزارة بمظهر العجز أمام دول أوربا ، وقد أنفق الخديو على ذلك نحو عشرين ألفاً من الجنيهات وزعت على مشايخ هؤلاء البدو ، واستقبل توفيق هؤلاء الشيوخ فى مقره وأكرم مشواهم واتفق معهم على أن يدخلوا عدداً من أتباعهم القاهرة عن طريق الجيزة وكان يريد أن تقع الفتنة فى القاهرة ، ولكن هؤلاء البدو تخاذلوا عن القاهرة لما رأوا من يقظة الحكومة ، على أن عمر لطفى قد استعان ببعض هؤلاء البدو فى مأساة

الاسكندرية (١) ...

وذكر بـلنت في كتابه هذه المؤامرة وأكدها ، وكذلك ذكر أحمد رفعت بك في تقرير كتبه في سجنه ...

ويقول روثستين : « في هذا اليوم وقعت بالاسكندرية مذبحه الاجانب التي دبرها الخديو ومحافظ المدينة عمر باشا لطفى ، وقام بها رجال البوليس وجماعة من الفتاك المستأجرين ، وهى مثل صحيح لما يعع في زمننا هذا من مذابح اليهود المدبرة ...

لقد كان الخديو يعلم حق العلم أن هيجة صغيرة تقع بمصر انما هى ضالة السياسة البريطانية التى ما برحت تنذر بأشد الويل للاجانب اذا لم يقضى على «الفوضى» التى يؤيدها حزب سامى وعرابى بنفوذه «العسكرى» . وفى ٣١ مايو ، وليس قبل ، أنهى السير ادوار مالت الى اللورد جرانفل أن المسلمين والمسيحيين قد يصطدم بعضهم ببعض وقتنا ما ، وقد رأينا أن ذلك ادى الى تعزيز الاسطولين ...

ومع هذا فان الخديو باطلاع مستشاريه الاجانب ، او بغير اطلاعهم قد عقد العزم على أن يتعجل تلك الفتنة المنشودة بشيء من الكياسة ولطف الحيلة اذا كان سير الحوادث الطبيعى لا يعجل وقوعها . ولكن ترى أين تقع هذه الفتنة ؟ انها اذا وقعت فى القاهرة فلا تؤمن عاقبتها على الاطلاق . ففى القاهرة عرابى ورفاقه ، وفى القاهرة الجيش الذى يستطيع أن يقطع دابر الفتنة فى طرفه عين ، أما اذا وقعت فى الاسكندرية فانها يكون لها شأن آخر . فمحافظ المدينة هو عمر باشا لطفى الذى كان

(١) الكتاب الازرق . مصر رقم ٤ - ١٨٨٤ ص ٢ ، وجاءت الادلة على استعانة الخديو بالبدو فى رقم ٧ ص ٧٨ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٤١ .



وطنى الميل زمنا ما ، والدى رشحه الخديو لنظارة  
الحربية فى فترة اليوم التى أعقبت استقالة وزارة سامى  
فأصبح من مصلحته أن يعمل على سقوط عرابى .

وقال اللورد تشرشل بعد أن أشار الى برقية توفيق  
الخطيرة الى عمر لطفى : « ان لى أدلة على انه أثناء  
الاسبوع التالى ، أرسل حيدر باشا ابن عم الخديو مرتين  
الى الاسكندرية ، وكان يلقاه الخديو عقب عودته تحت  
ستار الليل ، وقد ثبت أن حيدر هذا نفسه كان حاضرا  
بالاسكندرية يوم الفتنة ومنها سافر الى القاهرة عقب  
الحادث مباشرة »

وأورد أحمد رفعت بك مثل هذه الرواية عن حيدر  
باشا وزاد عليها أنه سحب الخديو بعد ذلك عند سفره  
الى الاسكندرية ...

ولا يفوتنا ونحن فى صدد الكلام عن صلة توفيق  
بالمأساة أن نشير الى برقيته الخطيرة الى عمر لطفى ،  
التى طلب اليه فيها أن يختار لنفسه ، هل يكون معه ،  
أم يكون مع عرابى ...

كذا لا يفوتنا ان نشير هنا الى ميله لانجلترا وقبوله  
المذكورة المشتركة الثانية والى رغبته فى التخلص من  
عرابى وحزبه بأى ثمن ...

وقد ذكر أحمد رفعت بك فيما ذكره عن المأساة بعد  
نفيه من مصر : « فى يوم الاحد الموافق ١١ يونية كان  
المندوب العثمانى درويش باشا ، الذى وصل الى مصر  
قبل ذلك بثلاثة أيام ، يقطع فى عربته الطريق بين قصر  
الجزيرة وجسر قصر النيل وكان قد لقى فى مقره عرابى  
باشا والوزراء المستقيلين لقاء طويلا ، وكان متجها الى  
قصر الاسماعيلية حيث كان يقيم الخديو ليفضى اليه  
باتفاق كان يؤدى كما قيل الى صلح بين الخديو والوزراء

وعلى مقربة من الجسر قابله طلعت باشا سكرتير الخديو ، وقد أرسله سيده ليلفه بأن فتنة وقعت في الاسكندرية وأنها استمرت ثلاث ساعات وان الأوربيين والمسيحيين كانوا يقتلون أينما وجدوا ، وقد أدى طلعت الرسالة في مظهر المنتصر وظهر عليه سرور شديد ، وكأنما كان يريد أن يقول ان عرابي الذي عمل من أجله ما عمل كان سبب ما حدث ...

وأرسل درويش باشا احد الضباط المرافقين له في العربية ليعود من فوره الى عرابي ولما كنت حاضرا فقد أفسحت لرسول درويش مكانا في عربتي واخذته الى بيت محمود سامي حيث كان عرابي حاضرا في ذلك الوقت . وشاعت الانباء سريعا في المدينة ، وقد انزعج لها الناس جميعا ، وأستولى الحزن على عرابي وصحبه أما في قصر الخديو وحده فكان الفرح واضح المعالم « وقد جاء في تقريره وهو بالسجن ما لا يخرج عن هذا ، وقد ذكر في نهايته أنه يستطيع أن يثبت ما يقول بشهادة شهود لا يمكن أن تحوم حولهم شبهة ...



ومما هو جدير بالاعتبار أن الخديو عين عمر لطفى باشا على الرغم من سلوكه أثناء الفتنة رئيسا للجنة التحقيق التي كلفت بالبحث عن المسؤولين ، وكان أول شيء يجب أن يعمل لو سارت الامور سيرا بريئا أن ينحى عمر لطفى لكي يستطيع سؤاله عن أسباب تقصيره ، ذلك التقصير الذي لا يستطيع أن يمارى فيه أحد ...

وكان الفرض من لجنة التحقيق الصاق تهمة المذابح بعرابي وحزبه ، فلما لم يتيسر ذلك بأى وجه انسحب الانجليز كما سنرى من لجنة التحقيق ، ونصح الخديو

لعمر لطفى أن يطلب اجازة بحجة السفر الى خارج  
القطر للراحة

وبقى عمر لطفى بمصر حتى أعلنت الحرب ، ولما  
عزل عرابى فى اليوم السادس والعشرين من شهر يوليو  
عينه الخديو وزيرا للحربية مكانه

ومما يذكر فى صدد هذا أن حيدر باشا كذلك قد ظفر  
بمقعد بين الوزراء ...



ننظر بعد ذلك فيما كان من أمر عرابى وحزبه تلقاء  
هذه الفتنة ، ولنبدأ بما ذكره روثستين فى هذا الصدد  
قال : « وأعجب ما يتصل بهذا الحادث وأغربه أنهم  
حاولوا فيما بعد أن يجعلوا لعرابى يدا فيه مع أنه قاسى  
من جرائه ما لم يقاسه غيره . فزعموا أنه ناسج برد  
المرامرة لحمته وسداه ، والأمن بالمذبحة ، والناهى رجال  
الحامية عن التعرض لها . ولكن التهمة تطايرت بشكل  
يرئى له عندما أدركوا أن اللجاج فى الامر قد يزيع الستار  
عن قاموا حقيقة بتلك الفظيعة المنقطعة النظر . ثم  
ظهرت الحقيقة على الرغم من ذلك كله ، وكان الفضل  
فى ظهورها راجعا الى جهود المستر بلنت . وفى سنة  
١٨٨٣ بسط اللورد رندلف تشرشل لاعضاء البرلمان  
الامر بأجمعه » :

ونحسب أن المسألة واضحة كل الوضوح فى بعد  
عرابى وحزبه عن هذه المأساة فمما لا ريب فيه أنها موجهة  
ضدهم ، فقد ضمن عرابى الامن ولايمكن أن يطعن نفسه  
بنفسه فيأتى بما يهدم كل ما يدعى ، كذلك ما كان من  
الممكن أن يقف سليمان سامى قائدحامية المدينة مكتوف  
اليدين من المأساة لو أنه أحيط علما بها وقد علم أن  
تبعة الامن ملقاة على عاتق عرابى ...

وقد أرسل كوكسن برقية الى مالت عقب اعادة عرابى الى الوزارة يصف الاسكندرية فقال : « كل شىء هنا هادىء ، والسلطات المحلية تؤكد لى أنه لا خوف من وقوع اضطراب ، وقد تلقت فرق الجيش ردا من القاهرة اتفقت بناء عليه أن تظل ساكنة فى الوقت الحالى »

ولم يكن لعرابى من سلطان على عمر لطفى اذ كان هذا بعد استقالة البارودى يتلقى الامر من الخديو مباشرة ، وقد ثبت أنه لم يتصل بعرابى عند وقوع المأساة حتى يمكن أن يقال ان عرابى تراخى فى الاشارة عليه بما يجب أن يعمل

هذا وقد أعاد الجيش الامن الى المدينة بأمر من عرابى بمجرد ان علم بالنبأ ، ومما هو جدير بالنظر أنه لم يحدث بعد ذلك فى المدينة حتى وقعت الحرب أى شغب منذ ان تدخل الجيش وفطن الحزب الوطنى الى الدسيسة

ولقد كان وقع النبأ اليما فى نفس عرابى ونفوس أصحابه ، حتى ان عرابى ظل صامتا مكتئبا بضبط بيده على قلبه ويتنهد تنهدات طويلة (١)

واهتم عرابى بالتحقيق اهتماما كبيرا يتضح ذلك فيما أرسله الى سليمان سامى اذ يقول : « لست تجهل أهمية مركز فى الوقت الحالى فيما يتصل بلجنة التحقيق ، وذلك لان أعضاء اللجنة ليسوا كما تعلم مساوين فى العدد لأولئك الذين يهمهم شرف الجيش والامة ، وهذا يجعل من الضرورى أن تتخذ كل الحذر أثناء التحقيق وأن تعمل على كشف الدافع الحقيقى الى هذه الفتنة »

والامر كما نذكر لا يحتاج الى كثير من القول ولا الى

(١) مما كتبه صابونجى الى بلانت عقب الحادث ٠٠ (٢)

قليل لبيان موقف عرابي وحزبه ، فاذا أراد المرء أن يبحث عمن ارتكب جريمة ما فليُنظر من له مصلحة في اقترافها ، ولقد كان في هذه المأساة الضرر كل الضرر على عرابي وعلى قضية الحزب الوطنى

\*\*\*

يأتى بعد ذلك الكلام عن موقف الانجليز من المأساة ، وأول ما نذكره أن ذلك المالى الذى قتل السيد العجبان كان أخا لخادم مستر كوكسن ، وقد يكون ذلك من قبيل المصادفات ، ولكنه لا يمنع من القول بأنه تجرأ على الطعن لما كان يعلمه من نية مبيتة بينه وبين أشباهه من المالطين وكذلك نذكر أنه كان بين القتلى رجل يدعى ستراكت وكان يعمل خادما للسير بوشمب سيمور أدميرال الاسطول وقد أقسم هذا الأدميرال العظيم الذى جاء لضرب الاسكندرية أن يثار من أهل المدينة لمصرع خادمه (١) على أن هناك من الشبهات والقرائن ما هو أهم وأقوى من هاتين القرينتين ، وحسب المرء أن يقلب صفحات الكتاب الأزرق ليرى أنه تلقاء يقين لا يخالطه شك ... ولقد أشرنا الى بعض ما كان يدبره مالت وكوكسن وأشياعهما ، ونكرر هنا الإشارة الى برقية كوكسن الخبيثة بأن تصادما سوف يقع بين المسيحيين وبين المسلمين ، وكذلك نعيد الإشارة الى ما أرسله مالت الى جرانفل فى اليوم السابع من مايو ومؤداه أنه لابد من حدوث ارتباكات قبل تسوية المسألة المصرية وان الاصدوب استعجال هذه الارتباكات لا تأجيلها (٢) .

ونعود بالقارئ الى ما سقناه من أدلة على ان المأساة

(١) S. H. Blunt, P. 317

(٢) Blue Book, Egypt, No. 7; P. 107

مدبرة ، وخاصة تسليح الاجانب أنفسهم ، ولننسى القول بعض البسط في هذه المسألة ، فنقول ان كوكسن كان دائب السعى في تسليح الاجانب وخاصة الانجليز كما هو ثابت صراحة في الكتاب الازرق ، وقد اتصل بالسيرسيمور أكثر من مرة كما اتصل بالسير ادوارد مالت مرات ، وكان يقول لمالت كل مرة انه يحرص على سرية هذا التسليح مخافة أن يحدث ذعرا اذا عرف ، والواقع ان الغرض منه كان تبئيت الفدر حتى تحين الساعة المقصودة ...

وليس يخفى ما ينطوى عليه هذا التسليح من تحريض على الفتنة بطريق الايحاء ، ولعل ذلك ما دعا مالت الى شيء من التحفظ ليفلت من التبعة ويتضح هذا التحفظ في برقية منه الى اللورد جرنفل يوم الفتنة بالذات اذ يقول : « لى الشرف أن أذكر لفخامتكم أن قنصل السويد العام وصل اليوم من الاسكندرية وعرض على مشروعا للدفاع العام عن الاجانب ورغب في موافقة ممثلى الدول عليه ، وقد أجمع الممثلون على أن تسليح ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف تمهيدا لهذا الدفاع عمل بالغ الخطورة ، وانه بجانب ذلك عمل فى ذاته يفضى الى التصادم فى أى وقت ، وعلى ذلك فقد اتصلوا بقناصلهم كيلا يشاركوا فى شيء من هذا ، وبناء على ذلك أبرقت الى مستر كوكسن ألا يشارك بعد الآن فى شيء منه ، وفى حال ما اذا خيف الخطر على البريطانيين فعليه أن يعتمد على مساعدة الادميرال وأن يعمل حسبما يشير به من نصائح ، ولما وجدت الامر يقضى أن تبقى تعليماتى سرية اذ انها تتصل بالرجوع فجأة عن خطة بانث معلومة الى حد ما ، فقد أشرت على مستر كوكسن بأن يجعل ما سلف من الامور السرية وفى الوقت نفسه عليه أن يحاول أن يقضى على



المخاوف بأن يذيع أنه ليس ثمة نزاع بين الوطنيين والإجانب ، وأن المفاوضات في الوقت الحالي في يد درويش باشا المنسوب العثماني الذي يعمل باسم السلطان . وطلبت الى مستر كوكسن أن يطلع على هذه التوجيهات الادميرال السير . ب . سيمور » .

وأدعى من هذا التسليح الى إثارة التنبهة موقف الانجليز من التحقيق الذي أزمعت وزارة راغب باشا إجراؤه عقب تأليفها . . .

أراد الانجليز أن يعزوا هذه المأساة الى عرابي ، ولم يعنوا بالبحث عن الحقيقة في ذاتها ، وقبلت ضمائرهم أن يتجهوا هذا الاتجاه وهم الذين طالما عابوا على الشرقيين انحطاطهم وتفاخروا عليهم بمدنيتهم ، أرسل جرنفل الى مالت يقول له : « اطلب اليك أن تتخذ الخطوات التي تؤيد هذا الدليل وخاصة ما يتصل منه بمسلك نديم ووكلاء عرابي وعلاقة قنديل عرابي »

ثم تلقى كارتريت نائب قنصل الاسكندرية من جرنفل براقية بتاريخ ٢٤ يونية وفيها يقول : « لقد ذكر في الصحف العامة أن راغب باشا أمر بإجراء تحقيق في الاضطرابات التي وقعت بالاسكندرية يوم ١١ الحالي ، وإذا كان الامر كذلك فان حكومة جلالة الملكة ترغب منك أن تقف بمنأى عن هذا التحقيق ، وعليك أن تخبر قنصل جلاتها بما تلقيت من توجيهات في هذه المسألة »

ونفذ كارتريت ما أمر به وأغرى زميله القنصل الفرنسي بأن يسلك مسلكه وكان سبب انسحاب هذين من لجنة التحقيق أن اللجنة أرادت أن تفتش منازل الأجانب والوطنيين على السواء ، وكان أولى بهما لو أرادا انصافاً أن يزدادا اطمئناناً الى عدالة اللجنة بهذا القرار وأن يجعلاه سبباً لانضمامهما اليها لا لابتعادهما عنها .

وعرض راغب باشا على الاجانب أن يؤلفوا لجنة جديدة يحدد عملها فرفض كارتريت هذا العرض وأيده جرنفل في رفضه . وفي الوقت نفسه طلب الى كارتريت أن يجمع المعلومات لحسابه هو وخاصة ما يتصل منها بمسلك وزارة الجهادية تجاه الحادث وبما حصل من تأخير في ارسال الجنود الى أمكنة الاضطرابات (١)

علق اللورد رندلف تشرشل على ذلك بقوله : «وهكذا نرى أن الاضطغان المتعمق في نفس اللورد جرنفل على الحزب الوطنى ، وأن الاعتقاد القائم على غير أساس منه ومن السير ادوارد مالت بأن المذابح كانت من صنع الحزب العسكرى ، وبأن عرابى وأصحابه أرادوا أن يطمسوا الحق بأى ثمن - وقد كانوا فى الواقع يعملون على ابرازه - . نرى ان ذلك كان سببا فى صدد التحقيق عن وجهه ، ذلك التحقيق الذى أجرى عقب الفتنة مباشرة وكان صنيعا فذا من عرابى باشا ، وفضلا عن ذلك فانه كان من الاهمية بمكان عظيم أن يعقب التحقيق الفتنة مباشرة لا ابتغاء الوصول الى معرفة مدبرى الفتنة فحسب ولكن لمنع ما قد يعقبها من ظلم ، وكان التحقيق عقب الحادث هو الوسيلة فى ذلك الوقت فقط التى بها يمكن الوصول الى أدلة يوثق بها ، وليس من ريب فى أنه بناء على تعطيل التحقيق على يد اللورد جرنفل قد عوقب كثير من الابرياء ومن سيئى الحظ بالموت والنفى والسجن » .

وثمة حقيقة أخرى جديرة بكل اعتبار فى صدد الكلام عن سياسة الانجليز فى المأساة وهى خليقة بأن تشير اكبر الشبهات ، وذلك انه ما من برقية أو رسالة بين الخديو

ومالت أو بين مالت وسيمور أو بين عمر لطفي والخديو، عما كان يحدث أثناء الفتنة ، ما من شيء من ذلك أثبت في مجموعة الكتاب الأزرق ، ولا يعقل بأية حال أن المخابرات انقطعت بين هذه الجهات أثناء وقوع الاضطرابات

وحقيقة أخرى جديرة بالنظر ، وقد سبق الإشارة إليها في موضع آخر وتلك هي إطلاق النار من النوافذ على الوطنيين بمجرد مقتل السيد العجان على يد ذلك المايطي الذي هو شقيق خادم كوكسن ، فكأن الأجانب أعدوا هذا الحادث ايدانا ببدء ما سبق به الاتفاق ... ويتصل بذلك ما ذكره جون نينيه في قوله : « وفي طريقى قابلت مستر كوكسن في عربة وأخبرنى أحد الواقفين بجانبى انه كان في بيت أحد المايطيين أثناء إطلاق النار ، وأنه اعتدى عليه عند خروجه من ذلك البيت لان الدهماء عدوه مسئولاً عن إطلاق النار » .

ولا يفوتنا كذلك أن نشير الى مساعي مالت وكوكسن بوجه عام ضد وزارة البارودي وضد عرابى منذ قامت هذه الوزارة ، ومزاعمهما عن تسلط الحزب العسكرى ، ورغبتهما الملحة فى إسقاط تلك الوزارة التى أعلنت الدستور وقضت على نفوذ الرقبين الاجنبيين ، والتى زادت روح الوطنية تأصلاً فى نفوس المصريين بحيث بات يخشى الأجانب استعصاءها على المقاومة لو تركت وشأنها ولقد ازداد غضب مالت وكوكسن بصفة خاصة منذ عودة عرابى الى الوزارة بعد سقوطها والتجاء الأجانب والوطنيين اليه لحفظ الامن ، واعلانه أنه يأخذ ذلك على عاتقه ، وواضح أن نجاحه فيما تعهد به إسقاط لحجتهما من أساسها ، وقضاء على محاولتهما الشيطانية لتنفيذ السياسة المرسومة ، سياسة احتلال مصر ...

والآن بعد أن أثبتنا أن المأساة مدبرة ، وبعد الذى

عرضناه من مسلك عمر لطفى . ومن وراءه الخديو ،  
ومسلك الانجليز قبل المأساة وبعدها ، يمكننا القول في  
غير الأدنى شعور بالخرج أن المأساة كانت من تدبير مالت  
وكوكسن وقبيلهما من شياطين الاستعمار ، وأن عمر  
الطفى كان شريكا لهما فيما دبرا ، أن لم يكن بالتواطؤ  
الصريح ، فبالواقعة الضمنية ، كمن يعلم سلفا أن نارا  
تليشعلها بعض الجنة فيظل يرتقبها لأن له مصلحة في  
إشغالها ، حتى إذا اندفعت أسنتها تركها تأكل كل شيء ،  
ويزيد في تبعته أنه كان بحكم منصبه المسئول الأول عن  
الامن في المدينة

والحق عندى أن كوكسن وطفى كانا في البشر سواء ،  
ولا يقل أحدهما تبعة عن صاحبه في تدبير هذه المأساة  
ولا يستطيع منصف أن يرى عمر لطفى إلا إذا  
استطاع أن يرى كوكسن ومالت ، ولن يبرا هذان إلا  
إذا أدین عرابى وأصحابه ، وهو ما لم يستطع أعداء  
عرابى بكل ما وسعهم من جهد أن يصلوا اليه . . .

قال الشيخ محمد عبده : « وفي يوم هذه الحادثة  
توجهت الى السراى ترأيت موظفيها في جدل عظيم مما  
حدث وكانوا يبالغون في رواية الاخبار ويضحكون من  
عهد عرابى بالمحافظة على الامن العام ، ومن المعلوم أن  
موظفى السراى لا يقولون إلا ما يسر الخديو ، فإذا كانت  
الاخبار سبابة تكلموا وضحكوا ، وإلا تظاهروا بالجزن  
والكآبة جهدهم (١)

وبعد اثنتى عشر يوما من هذا التاريخ كنت في الاسكندرية  
فسمعت الناس جميعا يقولون أن المحنافظ عمر لطفى  
سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد لأنه كان مقيما في

(١) ذكر أحمد رفعت بك شيئا كهذا عن موظفى السراى .

البلد ولم يصدر أمرا بتوقيفها ، ولم يذهب الى مكان  
 الفتنة الا بعد مضي وقت ، واثم يطلب مساعدة العسكر  
 النظامي مع انهم كانوا على مقربة منه ، وأجمع الناس  
 على أن عمله هذا موعز به من الخديو ، وعلمنا أيضا  
 انه لما كانت المذبحة على وشك النهاية وكان المحافظ  
 يتجول من مكان الى آخر واذا بأجنبي في شبكه وفي يده  
 مسدس فقال أحد البدو : أرمى هذا الرجل يا باشا ؟  
 فقال له : ارمه ، فأطلق البدوى عليه الرصاص فقتله ،  
 وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت اقربائه في ذلك  
 اليوم الاسود . . . وقد سمعت أيضا انه عرض بغض  
 الناس أثناء المذبحة وشجعهم على ذلك ، وانه أشار الى  
 البوليس ألا يتدخل قائلا : دعوا أبناء الكلاب يموتون .  
 ولم تسأل اللجنة التي تألفت للنظر في أسباب هذه  
 الفتنة عمر لطفى عن شيء مما حدث مطلقا بل كان الخديو  
 أوعز اليه بأن يستقيل بحجة المرض .  
 كان عمر لطفى محافظ الاسكندرية زمن الفتنة ،  
 وقد أهمل أمر القيام بحفظ الامن العام على انه هو  
 الشخص الوحيد المسئول عنه . هذا اذا لم نقل انه  
 هو المعرض عليها ، فاذا كان فعل ما فعل اطاعة لامر  
 عرابي كما ادعى ، مع ان وظيفته تابعة رأسا الى  
 الخديو - لان الخديو أصدر أمرا خاصا صرح فيه انه  
 بعد استقالة وزارة سامي أفست أمور الداخلية وشؤونها  
 الى السراي - فكيف نعلل تعيينه وزيرا للحربية جزاء  
 لطاعة عرابي وعصيانه لسيده الخديو ؟ واذا كان الامر  
 اهمالا منه فكيف يصح مع اهماله وعدم كفاءته تعيينه  
 وزيرا للحربية ؟ ولماذا لم يسأل سؤالا واحدا عما جرى  
 مع انه كان يجب أن يكون أول من يسأل ؟

لاريب في أن استقراء سير الحوادث، يظهر اتم الظهور

ان الخديو بالاشتراك مع عمر لطفى كانا سبب هذه الفتنة ، أى مذبحه الاسكندرية » (١) .

ويعتقد برودلى اعتقادا جازما بادانة عمر لطفى ، فقد كتب اليه اللورد تشرشل يسأله رايه عقب عودته من مصر ليقدم هذا الراى الى جلادستون ، فكثب برودلى اليه ، بأنه سأل فى السجن اثنين من كبار السياسيين النابهن لا ترقى اليهما شبهة ولا تخفى عنهما حادثة (٢) فتوافقت روايتاهما بما يدين عمر لطفى وكانا كل فى معزل من صاحبه فى السجن بحيث لايمكن التقاؤهما .

اما كوكسن فقد لعب فى هذه الفتنة دور الشيطان ، ويقينى انه لو سار التحقيق كما أراد عرابى لآخذ بجريمته ، ولكن توفيق بادر بتعيين عمر لطفى رئيسا للجنة التحقيق ، ولم يعارض عرابى فى هذا رغبة منه فى المحافظة على المودة بينه وبين الخديو ، وقد أقسم كل منهما قبل ذلك بأيام على أن يحمى الآخر كما يحمى نفسه ، ثم أحبط الأنجليز عمل اللجنة بانسحاب مندوبهم منها فنجا كوكسن من الاتهام . . .

أما الفرض من تدبير هذه المأساة فيتبين لنا فى تتبع سير الحوادث صوب الهدف المقصود ، وحسبنا أن نذكر الآن انها كانت من اقوى الضربات التى نزلت بالحركة الوطنية القومية وكانت فاتحة المآسى التى سوف يأتى بعضها فى اثر بعض حتى تقع المأساة الكبرى يوم التل الكبير

---

(١) تعرب ما ذكره الشيخ للمستتر برودلى المحامى أثناء المحاكمة حسب ما أورده الشيخ رشيد رضا وهو بطابق الاصل الانجليزى .  
(٢) كان يقصد الشيخ محمد عبده وأحمد بك رفعت وقد حذف اللورد اسميهما وقتئذ خوفا عليهما .

تم الجزء الاول



# فهرس

صفحة	
٧	مقدمة . . . . .
١١	الصبي القروي . . . . .
١٨	في صفوف الجيش . . . . .
٣٣	يقظة ونهوض . . . . .
٥٣	الجندي الثائر . . . . .
٧٠	الفلاح الزعيم . . . . .
٧٧	الوطنيون والعسكريون . . . . .
٩٦	دسائس ومخاوف . . . . .
١٠٧	يوم عابدين . . . . .
١١٩	رجل أمه . . . . .
١٢٧	توفيق والثورة . . . . .
١٣٥	بن عرابي وبلنت . . . . .
١٤٣	الثعالب وبنات آوى . . . . .
١٦١	غضبة جديدة . . . . .
١٧٠	عرايى الوزير . . . . .
١٧٨	وطنية لا نزق . . . . .
٢٠٢	أمانى مصلح . . . . .
٢٠٨	مراوغة وتربص . . . . .
٢١٦	اعنات واحراج . . . . .
٢٤١	بغى وعدوان . . . . .
٢٦٦	عرايى ملاذ البلاد . . . . .
٢٨١	بن عرابي والسلطان . . . . .
٣٠٣	مأساة الاسكندرية . . . . .

العدد القادم :

الجزء الثانى والأخير

## **وكلاء اشتراكات مجلات دار الفنون**

**THE ARABIC PUBLICATIONS  
DISTRIBUTION BUREAU  
7, Biskopsthorpe Road  
London S.E. 26  
ENGLAND.**

**انجلترا :**

**Sr. Miguel Maccul Cury.  
B. 25 de Maroc, 994  
Caixa Postal 7406,  
Sao Paulo. BRASIL.**

**البرازيل :**



## هذا الكتاب

«أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه» هو كتاب من أهم الكتب التي صدرت في المكتبة العربية الحديثة ، وقد صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى المحدودة قبل الثورة ، وأثار غضب الملك فاروق والسلطة الحاكمة آنذاك ، فقد أثارهم أن مؤلف الكتاب : الشاعر والمؤرخ والناقد المرحوم محمود الخفيف دافع فيه دفاعا علميا وعاطفيا مجيدا عن أحمد عرابي حيث جعل شعار كتابه « أما آن للتاريخ أن ينصف هذا الزعيم المفلح ؟ » ، ولذلك اتجهت السلطات الحاكمة في ذلك الحين الى تشريد مؤلف الكتاب محمود الخفيف ، وكان موظفا كبيرا في وزارة المعارف ، فصدرت قرارات عديدة بنقله من مكان الى مكان بقصد ازعاجه وارباك حياته ، كما كان معروفا لدى الجميع انه من « المفضوب عليهم » من السلطات مما جعله يعيش في ظروف معنوية ومادية صعبة . ولقد كان محمود الخفيف كاتباً لامعاً ، ولعله أبرز كتاب التراجم التاريخية والأدبية في مكتبتنا المعاصرة كلها ، فقد كتب عن « تولستوى » و « ملتن » و « لينكولن » وكتب هذا الكتاب الرائع الذي نقدم اليوم الى القراء العرب في كل مكان القسم الأول منه على أن نقدم القسم الثاني في الشهر القادم . ولكن محمود الخفيف لم يأخذ حقه الأدبي الكامل بسبب الحرب التي واجهته في حياته وبسبب انصرافه الكامل للعمل الفكري والتقاضي وانصرافه عن الحياة الاجتماعية والعلاقات العامة . وكتابات محمود الخفيف - كما سوف يظهر للقارئ بوضوح من خلال هذا الكتاب الهام - تتميز بالثقافة الواسعة وبالاسلوب المتمتع فقد كان الى جانب ثقافته العلمية والتاريخية شاعراً ، كما يتضح لنا أيضا من هذا الكتاب بالذات : يقظة ضميره القومي بصورة رائعة ، ففي هذا الكتاب وثيقة هامة من وثائق الدفاع عن عرابي بل لعلها الوثيقة الوحيدة في المكتبة العربية ، وعرابي زعيم ظلمه الكثيرون ، وعلى رأسهم المؤرخ الكبير عبد الرحمن الراعي . . . فجاء كتاب محمود الخفيف لينصفه بالحق والعلم ، وليقدم نموذجا رائعا للكتابة التاريخية . . . كيف يمكن أن تصبح هذه الكتابة علما راقيا وأدبا رفيعا في نفس الوقت .